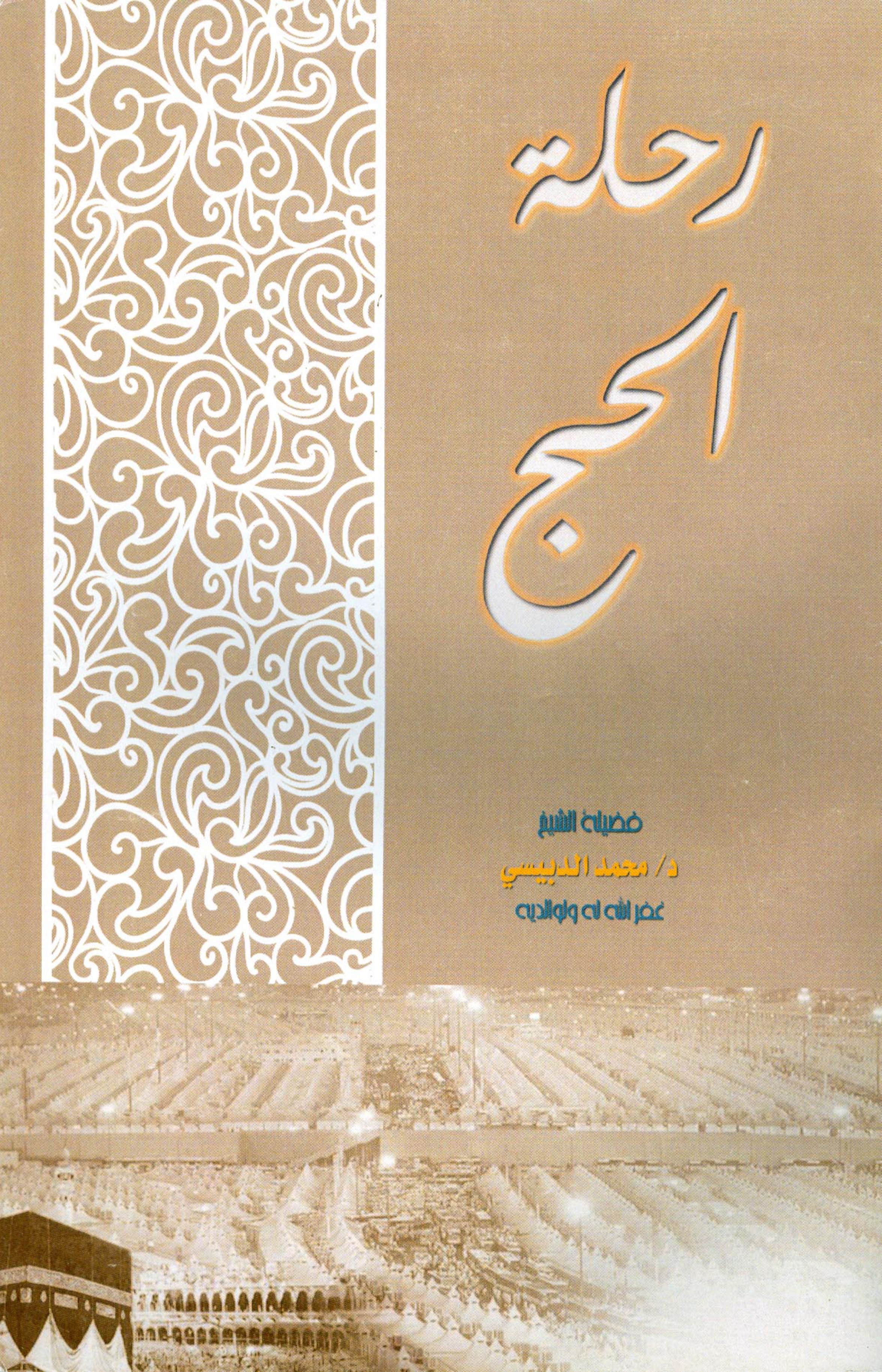


رحلة الحج
فضيلة الشيخ
د/ محمد الدبيسي
غفر الله له ولوالديه

الطبعة الأولى

ذو القعدة ١٤٣٦ هـ الموافق: أغسطس ٢٠١٥ م

رقم الإيداع : ١٩٠٣٤ / ٢٠١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمدُه ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعدُ...

فإنَّ أصدقَ الحديث كتابُ الله تعالى، وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور مُحْدثاتُها، وكلَّ محدَثة بدعةٌ، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد النبي، وأزواجِه أمهاتِ المؤمنين، وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد [(١)].

---

(١) حديث خطبة الحاجة رواه أبو داود (٢١١٨) من حديث ابن مسعود، ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٣٨هـ، والحديث صححه ابن العربي في عارضة الأحوذي (٣/٢٧) والذهبي في المهذب (٣/١١٤٢).

فهذه الرسالة هي تفريغ لمجموعة مختارة من الدروس والخطب التي كان قد ألقاها فضيلة الشيخ/ د. محمد الدبيسي في مواسم عدة، تحدث فيها عن فريضة الحج شوقًا، وبرًا وآدابًا ونسكًا.

وموسم الحج من مواسم الرحمة والمغفرة التي فتحها الله تعالى لعباده؛ ليترقوا إلى الله تعالى، ولترتفع منزلتهم، وليقبلوا على الله تعالى، ولتتحسن أحوالهم وأعمالهم وقلوبهم مع الله جل وعلا، فبذلك تنتشر الرحمة، وتتنزل البركة، وتتسع رقعة الدين، ويسير الناس إلى الله تعالى سيرا حسنا، ويتزودوا منها هذا الزاد الذي ذكره الله تعالى في الحج: ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ** ﴾ [البقرة : ١٩٧]

وموسم الحج يأتي بعد خروج المرء من رمضان مغفورًا له، أو خروجه ينتظر المغفرة ، وكل ذلك تهيئة له لأن يفتح الله له هذه الأيام باليمن والبركة والخير، وأن تعود عليه بالمغفرة والعتق من النار إذا كان من حجاج بيته فيقال له : «**أفيضوا عبادي مغفورًا لكم**» [(٢)] أو إن كان من أهل الأمصار فيصوم يوم عرفة فيحصل المغفرة : «**صيام يوم عرفة يكفر ذنوب السنة الماضية والسنة الآتية**» [(٣)] فيخرج المرء معيدًا في كلا العيدين.

ولما كان الوصول إلى بيت الله تعالى والعودة بحج مبرور هو مقصود أهل الإيمان في هذه الأيام، ولأن الكثير ممن يذهب إلى بيت الله تعالى يرجعون من الحج والعمرة وكأنهم لم يحجوا ولم يعتمروا ولم يتشرفوا برؤية البيت والطواف والقيام بالمناسك في بيت الله تعالى، كان ذلك دليل على قلة تحققهم بمعاني الحج التي يكون حجهم بها على المعنى الذي جاء في الحديث: «**لَيْسَ لِلْحَجِّ الْمَبْرُورِ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّة**» [(٤)] .

---

(٢) رواه ابن عساكر عن أنس، وأخرجه حمزة بن يوسف السهمي في تاريخ جرجان (٤٨٤/١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٠١/٣): رواه البزار وفيه إسماعيل بن رافع وهو ضعيف.

(٣) رواه مسلم (١١٦٢) ولفظه (صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ).

(٤) أخرجه البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩) ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ).

لذلك تأتي هذه الرسالة لتبيين معاني رحلة الحج الصحيحة، ليتمكن المرء من إقامة هذه المعاني في ظاهره وباطنه، ولا يحصل ذلك إلا من درَّب نفسه قبل الحج ليصحح علاقته بالله تعالى، وليستكمل صلاحه، وسيره إلى الله، وأن يصلح بينه وبين ربه، وبينه وبين الخلق، لأنه لا يصل إلى بيت الله تعالى ولا يمكنه الإتيان بالحج على الوجه الصحيح، ولا يستطيع السير إلى الرب إلا بإصلاح العلاقة بينه وبين ربه والعلاقة بينه وبين الخلق.

وقد قسمنا الكلام عن هذه الرحلة المباركة لأربعة أقسام:

الأول: الشوق لرؤية بيت الله تعالى، وهو المعنى الذي ينبغي أن يتحقق في أهل الإيمان ليدل على محبتهم لرؤية ربهم، ولقاءه، وعلى محبتهم لهذا اللقاء، فيكرمهم سبحانه وتعالى في الدنيا بأن يذهبوا إلى بيته المعظم.

الثاني: أعمال البر، وهي الأعمال التي ينبغي أن يحافظ عليها المؤمن ؛ لتكون سببا في أن يحمله الله تعالى لبيته ويكون حجه مبرورا. فلا يبر حج المرء إلا أن يحافظ في ظاهر حاله على أعمال البر التي ذكرها المولى سبحانه وتعالى، وأشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم ليحصل بذلك بر الحج فيعود من ذنوبه كيوم ولدته أمه [٥].

الثالث: مشاهد الحج، وهي أعمال القلب، التي ينبغي أن يلحظها المرء بقلبه ، وأن يتفكر فيها حال رحلة الحج ، فيقوم بقلبه تلك الشواهد التي تعظم هذه الشعيرة ، حتى تكون عونا له على التقرب إلى الله تعالى بهذه المعاني العظيمة من معاني الحج .

الرابع: وصف الرحلة، بمعنى: ماذا يفعل الحاج من حين ينوي الحج إلى أن ينتهي من مناسكه في البلد الحرام، ويعود إلى أهله. وذلك لأن الحج من أركان الإسلام، فيلزم الحاج أن يتعلم كيفية أداء المناسك، كما جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم، لتكون حجته مبرورة ، فتكون في ميزانه حينئذ خير مما طلعت عليه الشمس من مشرقها إلى مغربها من الأعمال الصالحة.

---

(٥) رواه البخاري (١٥٢١) كتاب الحج ، باب فضل الحج المبرور ، ومسلم (١٣٥٠) كتاب الحج ، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة .

وبعد:

فإننا نرجو في وجه الله الكريم أن يمنَّ علينا بقبول جهدنا الضئيل في هذه الرسالة المتواضعة، وأن ينفع بها قائلها وقارئها وكاتبها وناشرها، ونلتمس العذر من القارئ على ما قد يصادف فيها من أخطاء، ورحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا.

مسجد الهدي المحمدي

٧ ذو القعدة ١٤٣٦ هـ

الفصل الأول:

الشوق لرؤية بيت الله تعالى

فإذا بدأت الأشهر المعلومات التي ذكرها الله تعالى في قوله:﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ﴾ [البقرة: ١٩٧] فإن الشوق إلى بيت الله تعالى المحرم، ينبغي أن يكون هو الشغل الشاغل للناس في هذه الأيام، وذلك لأن أهم الأسباب التي يحمل الله تعالى بها المرء إلى بيته الكريم ، أن يكون عنده الشوق إلى رؤية هذا البيت.

وذلك لأن الشوق إلى رؤية البيت، دليلٌ على الشوق لرؤية رب البيت جل وعلا، فهؤلاء المشتاقون، ذاهبون لرؤية ربهم، ولكنهم ليسوا أهلاً في لذلك الدنيا ، فيتسلّون برؤية البيت عن رؤية رب البيت، إلى أن تتحقق لهم رؤية المولى جل وعلا، في موعدها المضروب يوم يقوم الناس لرب العالمين، كما قال: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[القيامة:٢٢،٢٣].

وقد أشار القرآن الكريم إلى معنى الشوق للبيت، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة : ١٢٥] ومعنى: ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أن الناس يذهبون إلي البيت ويعودون ولا يظنون أنهم قد قضوا وطرهم منه، فيعودون وقد ازداد شوقهم إليه، وحنينهم إليه، يعودون وهم يودون أن يرجعوا مرة أخرى، ومرة أخرى، ومرات أخرى!

وقد يقول القائل: ليس عندي مال لأذهب للحج، نقول: الحنين والشوق لا يحتاج إلى مال، ولا يحتاج إلى راحلة، ولا زاد؛ فإذا كان المرء بلا مال، فلا يقعد بلا شوق وحنين، لأنه إذا وُجد الحنين والشوق فإن الله تعالى يحمله إليه بغير أن يرتب شيئًا.

وكم سمعنا ورأينا الكثير من قصص هؤلاء المشتاقين إلى الله تبارك وتعالى، وهم لا يملكون شيئًا، وإذا بالمولى جل وعلا، قد هيئ لهم كل ما كانوا لا يتوقعونه، من المال والسفر والتأشيرة وتيسير الأشغال، وتدبير الأولاد، وكذا وكذا مما يظن المرء أنها موانع وعواقب، إذا به سبحانه وتعالى يذلل

لهم كل ذلك ويحملهم إلى بيته، بما وجد في قلوبهم من الشوق والحنين إلى الله تعالى؛ إذ أن تلك العقبات ليست عند الله تعالى ، ليس عنده سبحانه وتعالى إلا: ﴿ **إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [يس : ٨٢].

وقد بيَّنت الأحاديث أن النفقة التي ينفقها هؤلاء المشتاقون، الذين يتابعون بين الحج والعمرة لرؤية البيت، إنما يعوِّضُها الربّ جلَّ وعلا لهم، كما ذكر النبي ﷺ: «**تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**»[1]، والحديث الآخر قال: «**ما أَمْعَر حاجٌّ قط**»[2]، يعني: ما افتقر حاجٌّ قط. فقطع النبي ﷺ بهذه الأحاديث المعنى الذي ينبغي أن يصل إليه المرء هو: ألا يحجبه شيء عن الحنين والشوق إلى الله تعالى.

لذلك ينبغي أن يتطلع المرء للوصول إلى بيت ربه جل وعلا، وألا أن يَخفُت هذا الشوق في قلوب المؤمنين وأعمالهم، إذ هو دليلٌ على إقبالهم على ربهم، ومحبتهم لله تعالى، و كذلك هو دليلٌ على محبة لقاء الله جلَّ وعلا وإحسان العمل له، وإخلاص القصد له وأنهم متعلقون بربهم، محبون له لا ينفكون عن الحنين والشوق إلى لقائه جلَّ وعلا، لأنهم إذا ما انفكوا عن ذلك، صارت عباداتهم على هذه الحالة الرتيبة، وصارت قلوبهم إلى القسوة، وصارت أحوالهم إلى الغفلة، وإلى الآتيان بأعمال الإيمان على تلك الهيئة التي لا روح فيها، ولا إقبال فيها، ولا خشوع فيها.

---

(١) أخرجه أحمد (١/٣٨٧ ، رقم ٣٦٦٩) ، والترمذي (٣/١٧٥ ، رقم ٨١٠) وقال : حسن صحيح غريب . والنسائي في الكبرى (٢/٣٢٢ ، رقم ٣٦١٠) ، وصححه ابن حبان (٩/٦ ، رقم ٣٦٩٣) ، وابن خزيمة (٤/١٣٠ ، رقم ٢٥١٢) . ولفظه (تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٥/٢٤٥ ، رقم ٥٢١٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٤٨٣ رقم ٤١٣٤) وابن عساكر (١٦/٤٤٥) والديلمي (٤/١٠٦ ، رقم ٦٣٣٦) . قال الهيثمي (٣/٢٠٨) رواه الطبراني في الأوسط والبزار ، ورجاله رجال الصحيح . ولفظه (ما أمعر حاج قط).أي افتقر. وقال المنذري (٢/١١٣) رواه الطبراني في الأوسط والبزار ورجاله رجال الصحيح.

والسبب التالي الذي المهم الذي يدفع المرء للتحقق بالشوق لرؤية البيت، أن هذا الشوق هو الذي يدفع المرء إلى القيام بالأعمال الصالحة، وإلى التضحية في سبيله، وإلى البذل في طريقه سبحانه وتعالى وإلى تحمل كل المصاعب والمشاق من أجل أن ينفذ أوامره، وأن يطيعه، وأن يقبل عليه جلَّ وعلا، انتظارًا لهذا الفضل العظيم الذي فتحه الله تبارك وتعالى في هذه الأيام، وذلك لأن المشتاقين لهذا البيت لا بد وأن يقدموا الأعمال الصالحة، التي يرجون بها أن يحملهم الله تبارك وتعالى لبيته، وأن يتفضل عليهم الكريم المتعال سبحانه وتعالى بتلك الزيارة التي يعود منها المرء كيوم ولدته أمه.

ومن الأعمال الصالحة التي يستعد بها المرء ليظهر بها شوقه إلى بيت الله تعالى وحنينه إليه، أن يضبط المرء فرائضه، وكذلك أن يضبط سننه، يعني : يضبط فريضة الجمعة، فقد ذكر كثير من السلف أن الجمعة حج المساكين، يعني : حج من لا يستطيع الحج ، فإذا لم يستطع المرء الحج فإنه لا أقل من أن يرتب الجمعة ترتيبا يكون دليلا على تحسره على فوت الحج ، ودليلا كذلك على ما ينتظره من الجزاء الكبير عند الله تعالى من أجل الحج.

وكذلك المحافظة على الركعتين الواردتين في الحديث : «**من صلى الفجر ثم قعد يذكر الله تعالى حتى طلعت الشمس ، ثم قام فصلى ركعتين كتبت له حجة وعمرة تامة تامة**»[1] ، فهذه الأعمال التي يظن المرء بنظره القاصر أنها قليلة ، أو أنها بسيطة ، إذا بها تعادل هذه الدرجات العالية، وإن استعد بها المرء فلعل الله أن يوفق للحج ، وإن لم يوفق للحج فلعله بشوقه وحنينه وصدقه وإخلاصه أن يتقبل الله تعالى ذلك منه فيعطيه سبحانه وتعالى درجة الحاج والمعتمر.

فالتقصير في مثل هذه الأمور تقصير في طلب الحج والسعي إليه ، وتقصير في تحصيل الثواب عندما يحرم المرء الوصول إلى البيت.

فهلَّا استعد أهل الإيمان لذلك وتفكروا فيه ، وبدأ يظهر عليهم الحزن والألم، لما فاتهم من الأعمال الصالحة ، يستعدون بذلك لهذه الرحلة المعظمة، التي هي سبب مغفرة الذنوب العظام، أو

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٥٨٦) كتاب الجمعة ، وقال : هذا حديث حسن.

أنهم لا يزالون في غفلة وبعد عنها، وأنهم لا يتخيلون أنها يمكن أن تقع لهم ، أو أن يساقوا إليها؛ فصرفوا أنفسهم ابتداء ولم يفكروا من الأصل في الموضوع ! لا يليق هذا المعنى بأهل الإيمان .

إبراهيم عليه السلام وقصة بناء البيت

وإذا كنا قد جعلنا الشوق هو مدخل الكلام عن رحلة الحج، فإن قصة بناء البيت، وقصة إبراهيم وإسماعيل عليها السلام، هي المدخل الذي تتهيأ به قلوب المؤمنين ويتحرك فيها الشوق إلى الله تعالى، وهي التي تحمل أهل الإيمان على التفكر في زيارة بيت ربهم، والقيام بتلك المناسك المعظمة، وأن تنبعث في قلوبهم الرغبة إلى الطاعة، والسير، والبذل، والتضحية لله تعالى ؛ فلعل الله تبارك وتعالى أن يجود عليهم، وأن يكرمهم بالذهاب إلى بيته المعظم سبحانه وتعالى، فيعودوا منه كيوم ولدتهم أمهاتهم، لا ذنب لهم.

وقصة بناء البيت، تبين لأهل الإيمان بعض الحكم والمواعظ، والأحكام التي ينبغي أن يفهموها، وأن تكون شيئًا من عُدتهم وسلاحهم الذي يتقوون به هذه الأيام على ضعف عزيمتهم، وهِمَّتِهم، وعلى شيطانهم، وعلى نفوسهم الأمارة بالسوء؛ فيرتفع إيمانهم، ويقويهم على تلك المواسم العظيمة من مواسم الرحمة ليقوموا بها حق قيامها، كما قام بذلك إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وكذلك ليستعد أهل الإيمان في هذه الأيام للبذل، والفداء والتضحية، والمبادرة إلى أوامر الله تعالى، وألا يستكثروا شيئًا على الله وألا يخافوا من عاقبة شيئًا أمرهم الله تعالى به، بل على العكس: يستسلمون ويتوكلون على الله تعالى، كما توكل هؤلاء، وليكون عندهم اليقين والثقة في الله جلّ وعلا الذي بيده ملكوت السماوات والأرض وإذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون.

ونقتصر من قصة إبراهيم على بعض المشاهد التي نبين بها هذه المعاني، والتي نصطفي منها تلك الحكم التي ينبغي أن يتأدب بها المؤمنون، وأن يفهموها، وأن يأخذوا بها. وكذلك ليعلموا أنهم إذا استجابوا لله وللرسول لما يدعوهم إليه فإن في ذلك حياتَهم، ليس فيه مماتهم، وليس فيه أذاهم، وليس فيه ما يتخوفون، وذلك حتى تقوى قلوبهم على تنفيذ أوامر الله، والمسارعة إليها، والمسابقة فيها، والمنافسة عليها، ولا يهمهم عاقبة ذلك، بل يوقنون بأن الله تعالى رتَّب على ذلك أعظم النتائج وأعظم الآثار، وأعظم العواقب الحميدة، والعواقب الحسنة.

وإذا نظرنا لكلام الله تعالى في قصة إبراهيم وبناء البيت ، وجدنا أن الآيات بدأت بقوله جلّ وعلا:﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة : ١٢٤]، فهذه هي البداية كما جاء السياق، والسياق القرآني إنما هو سياق العظة والعبرة والحكمة، فما الحكمة في بداية قصة بناء البيت بهذه الآيات؟ نوضح ذلك بالإشارة إلى تفسير تلك الآيات على ما يتيسر.

قوله تعالى:﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ ﴾ و(إذ) معناها في اللغة: واذكر يا محمد ﷺ إذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهنَّ، ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾ [البقرة : ١٢٤] فأمر المولى سبحانه وتعالى النبي ﷺ أن يقول ذلك للمؤمنين على سبيل التعلم وطلب الحكمة وفهم المقصد من الآيات.

وقوله ﴿ ٱبْتَلَىٰٓ ﴾ من الابتلاء، على وزن افتعال، وهو مبالغة ، يعني كأنَّه يقول: وإذا ابتلاه بلاءً شديدًا بكلمات قليلة، وهي وصايا الحنيفية السمحة، ولكنها لما كانت كلمات قليلة، ولكنها لما كانت سبب الابتلاء دلَّ ذلك على أن هذه الكلمات كلمات خطيرة، وشريفة، وعالية، ومهمة قد ابتلاه بها ؛ لأنَّ قوله: كلمات، جاء منونًا، فدل على القلة مع شرفها، ومع خطرها، ومع قيمتها.

والآية تقول: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ ﴾ لم تقل (وإذا ابتلى اللهُ إبراهيمَ بكلمات) فقدم هذه الإضافة تشريفًا لإبراهيم، وهي أُولَى الآيات التي تبين تشريف إبراهيم ورفع مكانته، وعلوَّ درجته، ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ ﴾ فأضاف ضمير الربِّ المشرف إلى إبراهيم عليه السلام، والله تعالى إذا أضاف شيئًا إليه دلّ على تشريفه؛ أضاف البيت، أضاف الناس، أضاف العبد، كل ذلك لرفعه، ولعلوِّ منزلته، ولتبيين شرفه عند الرب جلَّ وعلا.

والفاء في قوله : ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ ﴾ للتعقيب؛ يعني: لبيان سرعة الاستجابة من إبراهيم، فقد سارع لإتمام هذه الكلمات على الفور. وقوله " أتمهن" من الكلمات البليغة؛ فقد كان يمكن للسياق القرآني أن يقول: (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأطاعهنَّ)، ولكن قال: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ يعني: بادر إلى

الامتثال، وأتقن ما أمره الله به، وأتمَّ ما أوحى الله تعالى إليه به على أحسن حال، مما يستدعي بعد ذلك النتيجة الحسنة من الله جلَّ وعلا وهي: أن يكون للناس إمامًا يُؤتَم به، وقدوةً يقتدي بها الناس كما قال المولى جلَّ وعلا في إبراهيم، ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٣]، وكذلك قوله: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٨]، ويُكَرِّمُه ربه بقوله: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٧]، ويقول أيضًا: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٥].

لتحفظها إذن ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ : لأنها مساقةٌ إليك، ابتلاه الابتلاء الشديد بكلماتٍ خطيرة، شريفة فأتمهنَّ، فذكر ذلك للمؤمنين ليفهموا كيف أتمهنَّ وماذا كانت عاقبة الإتمام. فما هي هذه الكلمات التي أتمها إبراهيم لله تعالى؟

<u>والكلمة الأولى</u>، هي أن يقوم لله تعالى داعيًا إلى توحيد الرب سبحانه وتعالى وإلى إعلاء كلمته؛ فذهب إبراهيم لقومه فكسر التماثيل التي كانوا يعبدون، ثم جاءه قومه وقالوا: من فعل هذا بآلهتنا؟ قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٣] إلى أن قالوا: ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : ٩٨].

ماذا كانت العاقبة لما قام لتوحيد الله، ورفع راية التكبير لله تعالى، والدعوة إليه؟ ولم يثنه عن ذلك أنَّه واحد في هذه الدنيا يدعو إلى الله، ولم يثنه عن عزمه ذلك؛ لا قوة النمرود ولا غيره من البشر، ولم يثنه عن تلك الدعوة أنَّه بين قوم كافرين، وإنما قام لله تعالى هذه القومة، ولم يعبأ بما سيحدث له؛ ولأنَّه قام لله، فلم يحدث له إلا ما أراد الله، وما أراد الله به إلا الخير؛ فلن تكون عاقبته إلا إلى خير، انظر ماذا حدث ، قال: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩ - ٧٣] .

فأتمَّ إبراهيم عليه السلام هذه الكلمة : وهي كلمةُ الدعوة إلى الله، ورفع توحيد الله ولو كان ما كان؛ فلم يكن إلا نجاته، وخرج إبراهيم بعد ذلك سالمًا من هذه النار، وهو مستيقن في ربه، متوكل عليه، مهاجر إليه جلَّ وعلا، وهي الكلمة التالية بعد كلمة التوحيد، أن يهاجر إلى الله تعالى، ترك قومه، وداره، وأهله ووطنه وخرج وحيدًا فريدًا إلا من لوط -عليه السلام- ابن أخيه، ﴿ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت : ٢٦].

وأتمَّ هذا الأمر كذلك عليه السلام ، كما أتمه النبي ﷺ وأصحابه المكرمون، الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأرضهم، وأثنى الله تعالى عليهم، كما قال: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة : ١٠٠]، وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

<u>الكلمة الثانية:</u> ونقدم الكلام فيها قبل قصة أم إسماعيل، فإنه لَمَّا خرج إبراهيم من النار وجد نفسه وحيدًا لا يعينه أحد على تبليغ دعوة الله، وعلى استمرار الدعوة إلى توحيده سبحانه وتعالى، ورفع رايته، والتكبير له في الأرض، والنداء باسمه المعظم جلَّ وعلا أن يرزقه ولدًا، قال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الصافات : ١٠٠]، فرزقه الله تعالى إسماعيل، فلم يكن ليدعوا بأيِّ ولدٍ كان، وإنما كان هَمُّ إبراهيم عندما يدعو ربه ويريد من ربه أن يستجيب له، أن يدعو ربه بما يحبه -كما ذكرنا من قبل-؛ فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [

الصافات : ١٠١-١٠٠]؛ لأنه يستحق أن تأتيه البشرى، وأن تأتيه على الفور؛ لأنَّه هو الذي استجاب لكلمات الله تعالى، هو الذي أتم هذه الكلمات، ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١١].

وهذه القصة تُبيّن أنَّ الله تبارك وتعالى لا يريد من المؤمنين إلا أن تخلص قلوبهم، وأعمالهم، وأبداهم، وأقوالهم في الظاهر والباطن لله تعالى، وأن يتجردوا لذلك، وألا يخافوا مما سيحدث لهم، لأنه سيحدث لهم عند ذلك العواقب الحميدة الحسنة والنتائج التي لا يتخيلونها.

وبعد أن أعطى الله تعالى إبراهيم الولد، فرح به فرحًا شديدًا، لِمَا سيكون من نصرته لدين الله، وامتداد الدعوة الله تعالى والقيام بها، وأخذ إسماعيل شعبة من قلب أبيه، وشارك ربه في قلب إبراهيم ولا يجوز ذلك ألبته لخليل الله، فإن الله تعالى لا يقبل لأوليائه وأصفيائه أن يتعلقوا بشيء إلا به سبحانه وتعالى، وأن تكون قلوبهم سليمةً له، لذلك قال الله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ٨٤] وذلك مع أنَّه قد أحبه المحبة التي يريدها لدين الله تعالى ، ولكن المولى جل وعلا أراد لقلب إبراهيم أن يكون خالصًا لله تعالى في محبته وخوفه ورجائه وإمامته، وخشيته، والتوكل عليه، والثقة فيه والطمأنينة بذكره، والسكينة عنده ؛ لأنَّ قلبه إنما هو مَحلُّ محبة الله تعالى، والإيمان به، فلا يجوز أبدًا أن يشاركه فيه شيء من مالٍ ولا ولدٍ ولا دنيا ولا غيره، وهو الأمر الذي ينبغي أن نتفكر فيه.

لذلك جاءه امتحان الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٢] وكان إبراهيم هو الصورة والعبرة والآية التي بيَّنَها الله تبارك وتعالى للمؤمنين ليعلموا أنهم لا يفلحون إلا أن تسلم قلوبهم لله، ولا يكون لهم ميزة في الأولى والآخرة إلا أن يكونوا على هذا الحال، فإذا كانت قلوبهم قد تعلقت بالدنيا وأوديتها والمال والولد والجاه والسلطان، والغفلة والتعارك عليها فأنى تكون هذه القلوب سليمةً لله تعالى، لا بد حينئذ أن يُذبح كل ما يكون سببًا في تعلقها بغير الله تعالى.

قال: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ وهو الابتلاء الذي قال فيه المولى جل وعلا: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الصافات : ١٦]، جاء إبراهيم عليه السلام لإسماعيل فقال: إنَّ الله تعالى أمرني بأمر أَوَ تطيعني؟ قال: نعم[١]، لأنه يعلم أن رؤيا الأنبياء حق، ولم يتأخر في الرد؛ لأنه يعلم أنها من الله، وأنه عنده يقين أن الله تعالى يومًا ما قد حفظه وأمه لما استجابوا لله تعالى.

جاء الشطان إلى إسماعيل أولاً قال: إلى أين تذهب؟ قال: مع أبي في أمر؛ قال: لا، أبوك يريد أن يذبحك، ويقول إنَّ الله أمره بهذا، قال: إن كان الله قد أمره فليمض إلى ما أمر الله، ثم ذهب الشيطان إلى أمِّ إسماعيل وقال: أين إسماعيل؟ قالت: ذهب مع أبيه في شأن، قال: لا، إن أباه يريد أن يذبحه ويقول: إنَّ الله أمره بهذا، فقالت نفس القول -إن كان أمر الله فليمض إلى ما أمر الله- ثم عرج إلى إبراهيم، وجاء عند العقبة وقال: كيف تذبح ولدك؟ فرماه بحصيات سبع، فأتاه عند الجمرة الثانية فرماه بسبع حصيات فساخ في الأرض، فأتاه في الثالثة؛ كل ذلك ليمنعه من أن يقوم بكلمات الله، من أن يبادر إليها، من أن يمتثل أمر الله تعالى، تلك السنة التي قال عنها ابن عباس فيما صح عنه: (**الشيطان ترجمون وملة أبيكم إبراهيم تتبعون**).[٢]

---

(١) رواه البخاري (٣/١٢٢٧ رقم ٣١٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (١/٣٠٦ ، رقم ٢٧٩٥) ، والحاكم في المستدرك (١/٦٣٨ رقم ١٧١٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٣٦٨) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. ولفظه (عن ابن عباس رفعه قال : لما أتى إبراهيم خليل الله المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثانية فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض. قال ابن عباس : الشيطان ترجمون و ملة أبيكم تتبعون).

والقصة مليئة بالقضايا العاطفية التي تبين عظيم حنان الأب على ولده، وأنَّه مشفقٌ أن يقتله، فتلَّه للجبين، فيقول إسماعيل لأبيه: ضع وجهي على الصخرة حتى لا تنظر إليَّ فتشفق عليَّ، فيترك أمر الله تعالى، أو يرجع عن أمره جل وعلا، وانظر لهذا التجرد لله تعالى!

فلما استسلما لأمر الله، وأطاعا أمر الله، وأتمَّا كلمة الله، عندها...جاءته البشرى: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، **الله تعالى لا يريد منه أن يذبح ولده، يريد أن يمتثل لأمر الله تعالى، ويتسابق في تنفيذ هذا الأمر، ويريد أن يتم كلمات الله تعالى، ويتقن هذه الكلمات، وألا يصده أو يمنعه عنها شيء**، وإنما المسارعة والمنافسة.

انتهى الامتحان، تُراه قد ذبح إسماعيل؟ كلا ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾، تُرى قد اقتصرت العاقبة على ذلك ؛ كلا ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات : ١١٢] تلك العواقب الحسنة التي تبين عاقبة الاستجابة لكلمات الله فجعله إمامًا.

<u>الكلمة الثالثة:</u> وهي أن يأخذ إسماعيل وأمَّه إلى مكان غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، وفيها مشهد من أهم المشاهد وهو: **مشهد بذل الأهل والولد لله تعالى**.

فإبراهيم عليه السلام أخذ إسماعيل وهو رضيع هو وأمه، من بلاد الشام إلى مكة المكرمة، حيث مكة المكرمة لم توجد بعدُ، وإنما كان موضع البيت العتيق الذي مَيَّزَه الله تبارك وتعالى لإبراهيم كما قال تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم : ٣٧]، ووضع إبراهيم عليه السلام إسماعيل وأمه بجوار البيت وحيدين في صحراء غير ذي زرع، فلا ماء ولا شجر ولا أنيس، ولا أهل ولا شيء يقوم على رعايتهم، وعندهما سقاء من ماء وجِرَاب فيه تمر، وتركهما ومضى عليه السلام.

سعت أمُّ إسماعيل وراءه تقول له- كما في رواية البخاري -: من أمرك بهذا؟! وفي رواية أخرى ، آلله أمرك بهذا؟! قال: نعم[1]، ولم يلتفت لهما حتى لا يأخذه الحنين ، قالت: إذن لا

---

(١) رواه البخاري (١٢٢٧/٣ رقم ٣١٨٤)، ولفظه:(عن سعيد بن جبير قال ابن عباس رضي الله عنه: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يتلفت إليها فقالت له آلله الذي أمرك بهذا ؟ قال نعم قالت إذن لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع – حتى بلغ – يشكرون) وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فذلك سعي الناس بينهما) . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه، تريد نفسها – ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم :(يرحم الله أم إسماعيل لو كانت تركت زمزم – أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا) . قال فشربت وأرضعت ولدها فال لها الملك لا تخافوا الضيعة فإن ها هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه وإن اله لا يضيع أهله . وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال وأم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ فقالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا نعم . قال ابن عباس قال النبي

يضيعنا، وفي رواية تقول: كذلك لن يضيعنا، ووقف إبراهيم عليه السلام عند الثَّنيَّة حيث لا يرونه ورفع يديه إلى الله تعالى يقول: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ

صلى الله عليه وسلم :(فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس) . فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت خرج يبتغي لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر نحن في ضيق وشدة فشكت إليه قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا فقال هل جاءكم من أحد ؟ قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة قال فهل أوصاك بشيء ؟ قالت نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك قال ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك الحقي بأهلك فطلقها وتزوج منهم أخرى فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فالت خرج يبتغي لنا قال كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله . فقال ما طعامكم ؟ قالت اللحم . قال فما شرابكم ؟ قالت الماء . قال اللهم بارك في اللحم والماء، قال النبي صلى الله عليه وسلم (ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم دعا لهم فيه) . قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه . قال فإذا زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلم جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد ؟ قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال فأوصاك بشيء قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال إن الله أمرني بأمر قال فاصنع ما أمر ربك قال وتعينني ؟ قال وأعينك قال فإن الله أمرني أن أبني بيتا ها هنا بيتا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان { ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم } . قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان:(ربنا تقبل منا إنك السميع العليم).

رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧].

وقوله: ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ [إبراهيم : ٣٧]، كلمة قرآنية موحيةٌ ومعبرة أشد التعبير لأنه لو قال: بواد غير ذي ماء لكان يمكن أن يصل إليه الماء من الخارج، ولكن لما قال: ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ دلَّ على أنَّه ليس هناك ماء، وليس هناك أناس يقيمون به؛ لأنَّه لو وجد الزرع وجد الماء، ووجد الناس، وإنما لما قال: ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ يعني: ليس ثَمَّ حياة في هذا المكان.

ثم إذا به يستعطف ربه، ويتحنن إليه بما يحبه جلَّ وعلا، فقال: ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وانظر إلى هذا المعنى الجميل؛ فهم ليس معهم إلا سقاء فيه ماء وجراب فيه تمر، ثم يقول ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ يعني: ليقيموا ما تحب؛ ليأتمروا بمحابك وأوامرك، ذلك ما يريده، وذلك ما يتمناه، وتلك محبةُ الله تعالى التي يدعوا الله تعالى ويتحنن إليه، ويتعطف إليه بها فيستجيب له جل وعلا.

وينبغي أن نقف الآن عند مشهد أم إسماعيل وهي تقول: من أمرك بهذا؟! وكأنه شيئًا غريبًا أن يُؤمَر بمثل هذا الأمر، وكأن ذلك شيئًا مستصعب في دنيا الناس: **مَن الذي يأمر رجلاً أن يأخذ ولده وامرأته ويضعهما في الصحراء ويمضي؟ مَن أمرك بهذا ؟!! هذا الذي لا يدخل عقلاً ولا يدخل قلبًا، ولا يصدقه أحد؛ مَن أمرك بهذا؟! آلله يأمر بذلك؟!** إذا قيل هذا للمرأة اليوم: ذلك أمر الله جلَّ وعلا، تقول: أنت لا تعرف شيئًا، هذا ليس كلام الله، ولا كلام الرسول ولا كذا ولا كذا !

فلما قال لها: الله؛ قالت أم إسماعيل عليها السلام في هذا الموقف: إذن لا يضيعنا، تُرى أم إسماعيل عليهما السلام لما قالت: إذن لا يضيعنا، تُراها أخذت الأمر بالرضا والصبر أم أنها اعترضت على الله تعالى؟ ظهر منها إذن الثقة واليقين والتوكل على الله تعالى؛ فكانت الاستجابة، وهذا هو الأمر الأول: الاستجابة لأمر الله تعالى كائنًا ما كان ظاهر الأمر شاقًا وعسيرًا، وكائنًا ما كان ظاهر الأمر يودي بحياته فضلاً عن ماله وأهله وولده، فقدَّمَ أمر الله تعالى على نفسه وأهله وولده، وهو يعلم،

والمسألة الثانية التي يحفظها المؤمنون المتقون- أنَّ التوكل على الله تعالى، واليقين في الله تعالى، والثقة في الله تعالى هي زاده الذي يتزوده، و الثالثة: **أن الله تعالى ما كان ليأمره بأمرٍ فيستجيب له في هذا الأمر ثم يضيعه ربه، كلا؛ بل سيحفظه مما يخاف من تلك العاقبة التي يظنها سيئة**. سواءٌ ظن أنه سيموت، سيعذب، سيَهْلِكُ، كل ذلك سيحفظه ربه منه عند تحققه بالاستجابة لربه على الفور.

فعندما قالت أم إسماعيل: لن يضيعنا، لم يضيعهم ربهم جلَّ وعلا، لأنه لن يكون في استجابتهم لأمر الله وأمر الرسول ﷺ أن تضيع حياتهم، أو أن تفقد أموالهم، أو أن يحدث لهم كذا وكذا مما يتخوفه المؤمنون اليوم فلا يستجيبوا لأمر الله، ويتعللوا بالعلل التي تمنعهم من الاستجابة لله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ.

وإبراهيم عليه السلام يتميز بهذه الاستجابة الفورية كما ستتوالى القصص بعد ذلك إن شاء الله تعالى، لذلك لما أمره الله تبارك وتعالى بهذا الأمر لم يكن لإبراهيم أن يؤخر أمر الله تعالى، ولا أن يتساءل عن أمره، وكيف يؤديه، ولا أن يتردد أو يتشكك في أمر الله تعالى بل: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور : ٥١] ، ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، فهكذا كان فعله: سمعنا وأطعنا، فأخذ ولده وأمَّه ووضعهما في هذا المكان، ولم يقصر لحظةً واحدة؛ قيل له اذهب بهما، ذهب بهما، والمؤمن في أيامنا هذه لو قيل له خذ امرأتك وولدك وضعهما في ذلك المكان واتركهما وامضي؛ يقول: كيف؟ ولماذا؟ ومن يقف عندهما؟ ومن يراعي هؤلاء الأولاد؟ وعندما ينفد الماء والطعام من الذي سيأتيهما بالزاد والطعام؟

وفي هذا المعنى قصةٌ مشابهة، وهي قصة هؤلاء المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا في غزوة بدر؛ وقد وصف الله تعالى حالهم كما قال: ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾، إذا بالله تعالى يقول لهم: لا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال : ٢٤]،

لا يدعوكم لما يُهْلِككُم، ولا يدعوكم إلى شيء يكون فيه أذاكم، بل إن كان في ظاهره الأذى فعاقبته الحسنى في الأولى والآخرة.

ننتقل إلى المشهد التالي، نَفِد الماء والتمر من أم إسماعيل، وصارت بلا طعام ولا شراب، وإذا بولدها كما تقول الرواية "يَتَلَبَّط" يعني: يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض وقيل يحرك لسانه وشفتيه كأنه يموت وفي رواية "يتلوى" يعنى: يتمرغ وينقلب ظهرا لبطن ويمينا وشمالا، وهي تنظر إليه لا تريد أن تراه وهو على هذه الحالة من الموت، فاستقبلت الوادي تجري، تدعو الله تعالى أن يغيثها، وصعدت إلى الصفا تنظر من يغيث فلم تجد أحدًا، فنزلت إلى الوادي، ثم كما تقول رواية «ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ»[1]: يعني: سعي الإنسان الجائع العطشان الذي لا يملك شيئًا وهو يجري، يود أن يغيثه أحد من عند الله، وهي تدعو الله تعالى وتتضرع إليه حتى وصلت إلى المروة، فلم تقرها نفسها أن تترك الصبي، فرجعت إليه فإذا به في الحالة السيئة التي رأته فجرت مرة أخرى إلى المروة، ثم سعت ورجعت إليه ثم مرة أخرى إلى الصفا ثم إلى المروة، ثم تراه وهو يتلبط يكاد أن يموت فترجع مرةً أخرى، حتى أكملت الأشواط السبع، ووصلت إلى المروة في نهاية الجهد والتعب الذي وصلت إليه.

تُرى هل الله تبارك وتعالى في حاجةً إلى أن يعذبها وولدها ؟ لو قلنا لأحدنا وهو جائع عطشان لا ماء ولا طعام، اسع بين الصفا والمروة مرةً واحدة يقول: أنا مريض، وجائع، وعطشان ولا أستطيع، وكذا وكذا: فما الحكمة من ذلك إذن؟ كل ذلك امتحانات للمؤمنين حتى يتعلموا أنَّ في طاعة الله حياتهم، وأنَّ في بذلهم أنفسهم لله تعالى حياتهم، وأن قوتهم وممدهم من الله جلَّ وعلا لا من أنفسهم؛ لأن قوتهم هذه تنفد وتضمحل وتذهب ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٦]، ويعلمون إن القوة لله جميعًا، وأن هذه القوة التي يفعلون بها أوامر الله ويستجيبون له بها إنما هي من قوة الله

---

(١) رواه البخاري (١٢٢٧/٣ رقم ٣١٨٤).

ومدده جلَّ وعلا ويعلمون أن ربهم قادرٌ على كل شيء، وأن بيده ملكوت كل شيء، وبيده خزائن السماوات والأرض.

والسؤال الذي نقف عنده: تُرى لو لم يكن هذا الأمر قد حدث، وأنَّ الله تعالى أمر إبراهيم أن يذهب فذهب فبنى البيت وهيأه، وبيَّن الصفا والمروة وأخرج له زمزم، وكل ذلك جاء سهلاً، تُرى لو أمر المؤمنون بعد ذلك بأن يتركوا أولادهم ونسائهم وديارهم كانوا سيتركونها؟ لو لم تكن العبرة والعظة قد ساقها الله سبحانه وتعالى لهم، تراهم كانوا يصبرون، ويجاهدون، ويتحملون، ويضحون؟ ما الذي يحمل الربّ سبحانه وتعالى على أن يأمر إبراهيم بأن يأخذ هذه المرأة المسكينة وولدها الرضيع ليضعهما في هذا المكان، ثم تجري جري المجهود من الصفا والمروة، ثم لا تطاوعها نفسها فتذهب لتنظر إلى الولد فتراه يتلبط يعني: كأنَّه تخرج روحه، فتجري مرةً أخرى إلى الصفا لعل من يغيثها؛ لماذا يفعل الرب بعباده كذلك؟ لو لم يفعل بعباده الأصفياء الأتقياء المتقين، لو لم يفعل ذلك بأهله لم يكن فيه عبرةٌ لأمثالنا اليوم.

إذا كان ذلك هؤلاء هم أهله سبحانه وتعالى وفعل بهم ذلك، وأظهر فيهم العواقب الحسنة ؛ **تُرى لو أمرنا نحن بذلك اليوم ولم يفعل ذلك بأهله، وعباده المرسلين الصالحين، ترى كان أحدٌ من الناس بعد ذلك يستجيب لربه أو يظن أن عواقب الأوامر الشرعية التي ينفذها ويطيعها، ويسارع إليها سيكون فيها هذه العواقب الحسنة**، وتلك النتائج السعيدة التي ظهرت؟

انظر كيف بذل إبراهيم ثمرة فؤاده ولده وأمه وتركهما لله تعالى؟! وكيف بذلت أمُّ إسماعيل هذا البذل مع هذه الشدة وذلك الضيق والضنك لله تعالى؟ وكذلك كيف تحمل أصحاب النبي ﷺ في ترك أولادهم وأوطانهم ونسائهم في هجرتهم، وجهادهم؟ وكان كل ذلك مع جوعهم وعطشهم، وعريهم وحفائهم في سبيل الله تعالى؛ ولكنهم كما قال: ﴿ **فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾** ﴾ [آل عمران : ١٤٦].

نستكمل القصة، قال لها جبريل عليه السلام - كما في الرواية الأخرى- «**لا تخشي الضيعة، فإن ها هنا بيتًا يبنيه هذا الغلام وأبوه -يعني إسماعيل وأبوه عليهما السلام: وإنَّ الله**

لا يضيع أهله»[1]. وإذا بجبريل يبحث بعقبه في الأرض فتنبع زمزم، وأمُّ إسماعيل تحوطها، وتشرب منها، ويدر لبنها على ولدها حتى عاد إلى الرِي والطعام، وتحقق لهما موعود الله تعالى: "إنَّ الله لا يضيع أهله".

لنحفظها إذن: (إنَّ الله لا يُضَيِّعُ أهله) ، وكأن مفهوم الكلام أنه سبحانه وتعالى يضيع من ضيعه، ويضيع من ضيع أوامره، ويضيع من ضيع سنة نبيه، ويضيع من فرط في أوامر الله تعالى، وتشكك فيها، يضيع من ترك التوكل عليه وتوكل على نفسه أو على الذاهبين الأموات، كما قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝ ﴾ [الفرقان : ٥٨]، يُضَيِّعُ العصاة المقصرين المفرطين، يُضَيِّعُ هؤلاء الذين وثقوا في ما عند الناس وتركوا الثقة فيما عند الله، أنَّ فلانًا سيعمل لهم، ويقوم لهم، ويساعدهم، ويقويهم، ويرفعهم، ويعينهم، ويتوسط لهم، وأنَّه سيعطيهم ويمدهم، ويقرضهم وأنَّ فلانًا وفلانًا؛ فإذا بفلان وفلان قد ماتوا، وإذا بهم قد اتكلوا على حائط الذي قد سقط!

لذلك يقول: (إنَّ الله لا يُضَيِّعُ أهله)، وبقدر ما تكون من أهله أيها المؤمن التقي بقدر ما يحفظك ربك جلَّ وعلا، وبقدر ما تبتعد عن أن تكون من أهله، ومن خاصَّةِ أهله بقدر ما يضيعك سبحانه وتعالى، فأنت الذي قد ضيعت نفسك فضيعك جلَّ وعلا لأنك لم تكن من أهله.

بدأت إذن قصة بناء البيت بهذا المشهد، مشهد البذل، والتضحية، واليقين والتوكل، فبيت الله تعالى الذي سيبنى وترتفع منه قواعده على هذا المكان، يحتاج لهؤلاء المؤمنين؛ رجالاً ونساء، وكأن هذه القصة بالذات قد ساقها المولى جلَّ وعلا ؛ لأنَّ النساء بطبيعتهنَّ أقل توكُلاً واعتمادًا على الله تعالى ، فهنَّ يعتمدن على أزواجهن وأولادهن، وعلى من يقوم بشأنهن، فكأنَّه دلهنَّ على أنَّ ربهم جلَّ وعلا هو القائم بالشأن وهو الذي يرعى عباده ولا يفرط فيهم، وهو الذي يحفظ أهله ويمدهم ويقويهم، ويجعل لهم العاقبة له في الأولى والآخرة، ليتعلم المرء كذلك أنَّ الله سبحانه

---

(١) رواه البخاري (١٢٢٧/٣ رقم ٣١٨٤).

وتعالى لن يضيع أهله، حتى يرتفع في قلوب المؤمنين محبة الله تعالى، وإقبالهم عليه فيكون البيت سببًا لهذا الشوق، وسببًا لهذا الإقبال، وسببًا لهذا الحنين إلى ربِّ البيت سبحانه وتعالى.

وكذلك ليعلم المرء أنه لن يكون أهلاً للطواف بذلك البيت وزيارته، إلا بعد أن يفهم المرء تلك المعاني من معاني البذل والتضحية واليقين، والتوكل، والرضا بأمر الله تعالى.

عاقبة الاستجابة لأمر الله

وصلت أم إسماعيل إلى المروة وإذا بالعاقبة الحميدة، تسمع صوتًا، فتقول لنفسها: (صَه صَه..) يعني: كأنها تُسمع نفسها وتقول: اسمع، اسمع، حتى تتأكد أنَّ هناك صوت، فلما تأكدت من الصوت قالت: أغث إن كان عندك غَواث؛ فإذا بالمَلَك، جبريل عليه السلام، واقفٌ يقول لها - استكمالاً للامتحان -: من أنتِ؟ قالت: أنا هاجر أمُّ ولد إبراهيم، قال: ولمن وكَلَكُمَا ها هنا؟ قالت: يقول لله، قال لها جبريل: "**لقد وَكَلَكُمَا إلى كافٍ**"[1] يعني لقد وكلكما إلى صاحب الكفاية العظمى.

انظر كيف كانت كفاية الله لهم لما استجابوا لأمره: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ وفي القراءة الأخرى، " أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عِبَادَهُ"؟ نعم هو يكفي عباده سبحانه وتعالى، وهم يتشككون في قدرته، وقوته، وحفظه، وغناه، ووهبه، وجوده، وإحسانه، فيتركون بذلك التوكل عليه، ويتركون الثقة فيه، ويتشككون في رزقهم، وآجالهم وأعمالهم، وأرزاقهم، وهو يقول: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦] و﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ ﴾ استفهام إنكار، من الذي يرزقهم ويعطيهم الصحة والمدد؟! من الذي يستطيع أن يطعم العالم يومًا واحدً ا؟! من الذي يقدر على ذلك إلا هو؟! وفي نهاية المطاف من الذي يأخذهم إليه؟!

تُرى قد ضيع جهد أمِّ إسماعيل -عليها السلام-؟ لم يضيعه المولى سبحانه وتعالى، إذا بهذه الأشواط التي سعتها أمُّ إسماعيل وهي في نهاية المشقة، وهي في النهاية امرأةٌ ليست رجلاً، ولكنها قد تحملت هذه المشاق وتلك المتاعب في سبيل الله تعالى، **في نهايتها إذا بالله جلَّ وعلا يكافئها؛ فقد حُفرت**

---

(١) رواه البخاري (١٢٢٧/٣ رقم ٣١٨٤).

زمزم تحت عقب ولدها إسماعيل، وجُعِلَ هذا السعي الذي سعته هذه المسكينة بين الصفا والمروة في حالها ذلك من شعائر الله تعالى التي أمر بها المؤمنين إلى يوم القيامة.

وكل ذلك حتى يتذكر هؤلاء يومًا ما ذلك الموقف الذي كانت فيه أمُّ إسماعيل عليهما السلام، وحتى لا يغيب عن ذهنهم تلك التقادير والترتيبات من ترتيبات الحق جلَّ وعلا وليكون ذلك زادهم الذي يتزودون به في رحلتهم إلى الله جلَّ وعلا: كيف يتحملون في سبيله وهم يعلمون أنَّ هذا التحمل وتلك الخطوات التي مَشَوها مذكورةٌ لهم، وأن سعيهم لله جلَّ وعلا لن يضيع، كما ذكر في المؤمنين: ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٢١].

وجاءت العاقبة التالية لأمِّ إسماعيل عليها السلام، أنَّ ركبًا من جُرْهُم -قبيلة من القبائل العربية الأولى- مروا بهذا المكان فرأوا طائرًا عائفًا عليه، فقالوا: ليس لنا عهد بالماء في هذا الوادي، وإنَّ الطائر العائف لا يكون إلا على الماء فأرسلوا رسولاً يستطلع الأمر فإذا به يجد هاجر وإسماعيل عليهما السلام فأتوا إليهما، وكانت أم إسماعيل تحب الإنس: يعني تحب جنسها من الناس أو "تحب الأُنس" يعني: أن تأتنس بالناس، **فإذا بالله تعالى قد أرسل إليها هؤلاء لِيُؤنِسُوها، وليرفعوا عنها وَحشَتها التي تحملتها في سبيل الله سبحانه وتعالى** وليقوموا بها، ولِيَشِبّ ولدها بينهم، وعَمُرَت مكة بهم، ولتكتمل العواقب الحسنة التي ذُكرت في الآية الكريمة : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧].

والملاحظ أن إبراهيم عليه السلام قال :﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم : ٣٧]، لم يقل: (فاجعل ناسًا يهوون إليهم) لأن هؤلاء الناس قد يكونوا على غير ما تود أم إسماعيل وولدها، وإنما عبر بالأفئدة حتى يكون الحنان والرأفة والرحمة هي التي تحوطهم، فكأن المعنى: اجعل قلوب الناس هي التي تحوطهم بالرحمة، والعناية والرعاية، وكذلك حتى يبين محبته لولده، وأنه إن ترك عطفه عليهم، وقيامه بهم، **فإن الله تعالى يرسل إليهم من يحبهم، ويحوطهم ويقوم بحوائجهم، ويعطف عليهم، ويقوم لهم بما يكون سببًا لطمأنينة إبراهيم واستجابة لدعائه لله تعالى**، فلما

كان هو عليه السلام المسارع إلى تنفيذ أمر ربه، المسارع إلى مرضاته، الصابر المحتسب، كانت استجابة الله تعالى له على هذا النحو.

والله جلَّ وعلا عندما استجاب، فإنه قد استجاب لأهله وأوليائه حتى يتعلم المؤمنون هذا المعنى، **أنه عندما يترك المؤمنون أهليهم وأولادهم لله تعالى ثم يدعون ربهم فإن ذلك أقرب للاستجابة لهم،** عندما يبذلون لربهم، ويسارعون في مرضاته، فأولئك هم الذين يستجيب لهم، فعندما استجابوا لربهم استجاب الله تعالى لهم، فلم يخيب دعاءهم، ولم يخيب رجاءهم سبحانه وتعالى، وذلك ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون اليوم بأن يكون طريقهم في تحصيل استجابة الله لهم، أن يكونوا هم المستجيبين لربهم جلَّ وعلا، المسارعين في الاستجابة له كما أمر جلَّ وعلا في آياته: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة : ١٨٦].

ليتعلم المؤمنون ، طريق استجابة الله لهم، طريق التضحية والمسارعة إلى الطاعة، طريق التوكل على الله جل وعلا والثقة فيما عنده، وليعلموا أن حياتهم فيما يرون أنه الموت كما قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال : ٢٤] يعني: إذا أخر المرء الاستجابة يمكن أن يحول الله بينه وبين قلبه فلا يستجيب له سبحانه وتعالى فتكون له العاقبة السوداء في الأولى والآخرة.

ليكن إذن هذا الأمر تدريبًا للمؤمنين المتقين على كيفية الاستجابة لأمر الله تعالى، وأنه إذا أمرهم بأمر، وأنَّه إذا حملهم على شيء فإنَّ فيه حياتهم، ولو كانوا يظنون أنَّ فيه مماتهم، وفقد أنفسهم وأولادهم، وأموالهم، ليس هناك أكثر من النفس والولد، فإذا ضحى المرء بنفسه وولده فأي شيء بعد ذلك هين؛ فإنه لم يكن هناك لإبراهيم أفضل من ولده، ولا أغلى عليه من ذلك الولد الذي قد طلبه من الله تعالى على الكِبَر؛ ولكنه ضحى به عليه الصلاة والسلام، كما سنشير في شرح الآيات، استجابة لأمر الله تعالى له.

ماذا كان جزاء الامتثال لأمر الله تعالى وإتمام كلماته؟ انظر إلى ترتيب الآيات الذي يبين هذا المعنى، قال تعالى:﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة : ١٢٤] ، ولما قال بعد ذلك : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة : ١٢٧]، كان المعنى الدقيق في الآية هو: أنه بعد أن أتمَّ كلمات الله تعالى، جعله إمامًا، فالترتيب يُبين **أنَّ إبراهيم وإسماعيل لم يرفعا القواعد من البيت إلا بعد أن أتَمَّا كلمات الله، فكان لهما هذا الشرف العظيم الذي ميزهما الله تعالى به، ومن ناحية أخرى، ليعلم المرء أنه لا يُحصِّل الشرف العظيم بالوصول إلى البيت إلا بعد أن يتمَّ كلمات الله،** وأن يكون على هذه الحالة من التوكل واليقين والاستعداد لأن يبذل نفسه وروحه لله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾ يبين عزم إبراهيم على الامتثال لأوامر الله، وتلك منقبة عظيمة له، يذكر بها المولى سبحانه وتعالى المؤمنين المتقين لتكون لهم فيها الأسوة والقدوة، ومثل ذلك قوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] وهو طريق المؤمنين الذي ينبغي أن يسلكوه، **وهو الامتحان الذي ينبغي أن تكون هذه الأيام سببًا لنجاح المؤمنين فيه، كيف يمتثلون لأوامر الله، وكيف يسارعون إلى هذا الامتثال،** وكيف يتقنون هذه الأوامر، وكيف يُتِمُّونَها على الوجه الأكمل الذي ينتظرون به رضا الله تعالى، وينتظرون به محبته، ينتظرون به ثوابه الجزيل في أن يجعلهم أئمةً في الأولى والآخرة، وأن يجعلهم السابقون المقربون حينئذ إلى الله تعالى.

فلما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ فكأنَّ المعنى: أن الذي يريد أن يكون إمامًا لا بُدَّ وأن تتحقق فيه صفات التقوى التي تعلو على صفات غيره حتى يكون هو إمامًا للمتقين، لذلك قال المفسرون: في هذه الآية معنيين يكادا أن يكونا متضادين ، يقول مجاهد وهو من أئمة التفسير﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ يعني: واجعل المتقين لنا أئمة.

وهذا معنى جميل: **أنَّه لا يكون إمامًا حتى يكون المتقون له أئمة**. فيقتدي أولاً بالأئمة المتقين حينئذ يصل إلى تلك الحالة التي يكون فيها إمامًا للمتقين، ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾، فلم يطلب من الله تعالى الإمامة إلا في تقواه، وكأنَّ التقوى لله جلَّ وعلا في هذه الأمة هي سببُ إمامة أهل الإيمان، وانظر إلى هذه الدرجة التي نحن في بُعْدٍ عنها، ليس في محاولةِ الوصول إليها، بل لم تخطر على بالِ المرء وهو يسير إلى الله جلَّ وعلا؛ فلم يطلب هذا الطلب الذي طلبه إبراهيم عليه السلام ولم يتفكر في نفسه ليحقق شيئًا من تلك الكلمات التي تجعله في تلك المصاف القريبة إلى الله تعالى، في أن يكون من أهل الله تعالى، أن يكون في تلك المصاف والمراتب التي رفع الله تعالى والتي مَيَّزَ الله تعالى، والتي كان نسيانها والغفلة عنها سبب نزول الأمة إلى هذا الحال السيئ الذي نحياه اليوم.

المؤمنون الذي توجّه لهم هذا الخطاب لم يفكروا بعد في أن يكونوا أئمة، يعني: لم يفكروا بعد في أن يكونوا متقين، ولم يفكروا بعد في أن يقتدوا بالمتقين، حتى يكونوا بعد ذلك هم الأئمة المتقون، إنهم لم يفكروا في هذه الدرجة التي هي سعادة أمتهم، وسعادة أنفسهم، وسعادة الدنيا والآخرة، وكأنَّ تلك الآيات لا تقال لهم!!

وهو الواقع الذي منع أهل الإيمان اليوم أن يمتثلوا لأمر الله تعالى، وأن يسارعوا إليه، ومن قام بأمر الله تعالى لم يَقُم على المسارعة والمنافسة، ومن قام على المسارعة والمنافسة قام على التكاسل، وإن قاموا بشيء من ذلك لم يتقنه حق إتقانه، انظر إلى صلاتنا وقرآننا وذكرنا وما تخلل ذلك كله من الوسوسة والغفلة والبعد عن الله تعالى، وعدم التدبر والخشوع، والتواضع، والانكسار في إقبالك على الله تعالى، تراك تُقبل صلاتك هذه لله تعالى، أو يقبل خشوعك هذا لله تعالى أو ذكرك أو قيامك، تُراك قد أتممت كلمات الله لتكون من الأئمة؟

نعود لآية البقرة، بعد ذلك: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، فإبراهيم عليه السلام، كان بارًّا رحيمًا بالناس، يود لهم الإيمان ولو أُحرق بسببه، يود لهم الإيمان لو حدث له ما حدث، فيتفجر الخير

من جوانبه، كما كان النبي ﷺ عندما أمروه أن يدعو على قومه قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».[1]

لذلك قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ يعني: اجعل من ذريتي هؤلاء الأئمة، وترى في هذا الدعاء، هذا المعنى من معاني الخير، ومن معاني المحبة، ومن معاني الأدب، فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، و"من": للتبعيض، لم يقل: واجعل ذريتي أئمة كذلك؛ لأنَّه ليس هناك أحدٌ في الدنيا يكون كل ذريته من الأتقياء العاملين الأئمة ، فهذا غير وارد في العادة، فلم يطلبه من ربه سبحانه وتعالى، وإنما تأدب معه وقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فهو لم ينس الفضل لذريته، بأن يدعوا لهم الرب جلَّ وعلا أن يكونوا أئمة.

وقد قال المولى سبحانه وتعالى : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، وكان سياق الآيات أن يقدم الصفات التي تبين صفات الأئمة، كأن يقول: لا ينال ذلك العهد إلا من أتمَّ كلمات الله، أو كان كذا وكذا مثلك يا إبراهيم، وإنَّما بيَّن الله تعالى ذلك مجملاً قال: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فكأنَّه قدم المفاسد التي لا ينال المرء بها الإمامة حتى يتجنب المفاسد قبل تحقيق المصالح؛ لأنَّ تجنب تلك المفاسد أولاً يوصله إلى أن يكون من الأئمة بعد ذلك.

وهو الخطاب الموجَّه للمؤمنين اليوم: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ الظالمون لأنفسهم ولغيرهم ولدينهم ولأمتهم لا ينالون عهد الله تعالى، كما قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٢]، فكأنَّه يقول سبحانه وتعالى: هؤلاء الذين لم يتمُّوا

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٢/٣ ، رقم ٣٢٩٠) ، ومسلم (١٧٩/٥ رقم ٤٧٤٧) ولفظه (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ « رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ »).

كلمات الله في أنفسهم، وفي غيرهم، في دعوتهم إلى الله تعالى، وصبرهم على أمر الله، في امتثالهم لطاعة الله، والاستجابة والمسارعة إلى هذه الطاعة، في إتقان عبادتهم لربهم والسير إليه سبحانه وتعالى، وأن يكونوا على هذه الحال التي كانت لإبراهيم فكان السبب في أن يكونوا أئمة.

لذلك كان لا بُدَّ وأن تشير الآية إلى أنَّه لا ينال عهد الله الظالمين، **هؤلاء الظالمون الذين قد اتصفوا بتلك الصفات في البعد عن الرب جلَّ وعلا، لا ينالون تلك الإمامة،** أو حتى ينالون هذه المراتب الدينية في أفرع الإسلام، لا ينالها أبدًا هؤلاء الظالمون!

لذلك ينظر المرء لنفسه: كيف يستفيد من هذه الآية؟ كيف يتحقق بكلمات الله؟ كيف يتصف بصفات الأئمة؟ أو أنه لا يزال في صفات الظالمين، ولم يحاول ولم يفكر أن يجاهد نفسه، وأن يأخذ بيد نفسه إلى الله جلَّ وعلا ؟ وأن يستعين بالله تعالى أن يخرجه من هذه الصفات التي هو فيها ليكون في صفات هؤلاء الذين أتموا كلمات الله تعالى فجعلهم أئمة .

وبقية القصة أن إبراهيم بعد أن ترك إسماعيل وأمه بسنين، جاء بعدها ليطالع تركته، فوجد إسماعيل قد تزوج، ووجد امرأته فسألها عن عيشهم، قالت: نحن في ضيقٍ وشدة، فقال: عندما يأتي إسماعيل قولي له غيِّر عتبة بابك، يقصدها هي بذلك؛ فهذه المرأة لا تصلح أن تكون في بيت النبوة، وأن تكون من أهل الله تعالى وخاصّته. وعندما جاء إسماعيل - كأنه آنس شيئًا -فقال: هل أتى من أحد ؟ قالت: نعم، شيخٌ هيئته كذا وكذا وقال : غير عتبة بابك، قال: أنتِ العتبة، الحقي بأهلك.

وجاء في المرة التالية، ووجد امرأةً أخرى قد تزوجها إسماعيل عليه السلام، فسألها عن عيشهم، قالت: بخير عيش، وأثنت على الله تعالى، ودعته إلى أن تستضيفه، وقالت: أنت يبدو عليك آثار السفر، انزل فاغتسل ، وإلى أن يطعم، في النهاية قال لها: قولي له ثبت عتبة بابك، فلما رجع إسماعيل قال: أنت العتبة، وأمرني بتثبيتك [1].

في المرة التالية جاء إبراهيم، ووجد إسماعيل عند زمزم ففعل ما يفعل الوالد بولده من العناق والتقبيل، وتقبيل اليد وغيره، وقال: يا إسماعيل إنَّ الله أمرني أن أبني له بيتًا ها هنا، قال:

---

(١) رواه البخاري (١٢٢٧/٣ رقم ٣١٨٤).

افعل ما تأمر، قال: أَوَتُعينني؟ قال: نعم[1]، لم يتردد، وحينئذ أخذا في رفع القواعد من البيت، ومعنى ذلك أنَّ البيت كان موجودًا، ولكن عندما جاء الطوفان أخذ البيت وبقيت القواعد التي أعْلَمَها الرب جلَّ وعلا لإبراهيم فأقام حوائط البيت عليها.

وبقي موضع الحجر الأسود، فأمر إبراهيم ولده إسماعيل عليهما السلام أن يأتيَ له بحجر ليضعه في هذا المكان، وكان التعب قد بلغ بإسماعيل عليه السلام مبلغه، فذهب يبحث عن حجر مماثلٌ من جبال الكعبة التي بنيت منها فتأخر، فنزل جبريل عليه السلام بالحجر الأسود من الجنة أبيض كاللبن كما يقال ، فلما جاء إسماعيل ورأى الحجر قال: من أتى بهذا؟ قال إبراهيم: جاءني به الذي لم يَكِلْنِي إليك ولا إلى حجرك.[2]

ورفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت، وهما يبنيان ويطوفان ويقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة :١٢٧، ١٢٨].

وقوله: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ ينبغي أن يلاحظ المرء معناه في كل حين: أنَّه مهما قدَّم من عمل فلا بد أن يكون ذلك على التواضع لله تعالى، فقد كان إبراهيم وإسماعيل هما من خاصة المولى جلَّ وعلا، الذين اختصهما برفع القواعد من البيت، فهما حينها أفضل العالمين ، وما كان المولى جلَّ وعلا ليخُصَّ أيَّ أحدٍ ليبني له هذا البيت، فهما في أعلى الدرجات، ثم بعد ما خصَّهُمَا بذلك إذا بهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾، ليُظهرا لله تعالى أنهما مهما عملا له جلَّ وعلا، فإنها نعمة الله عليهم ، وأنه أنعم بفضله عليهما فعملا، ثم بفضله جلَّ وعلا تقبل منهم ذلك العمل، ليظهروا الإخلاص والتواضع له، وفي نفس

---

(١) انظر السابق.

(٢) رواه البخاري (١٢٢٧/٣ رقم ٣١٨٤).

الوقت هم وَجِلون خائفون ألا يتقبل منهم فقالوا: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، **يدعون الله تعالى مع كل ذلك بالتواضع أن يتقبل منهم، أن يرفع أعمالهم إليه سبحانه وتعالى، وأن تكون أعمالهم في مَحِلِّ القبول عنده جلَّ وعلا، فلا يستكبرون عن تلك الأعمال، ولا يستطيلون بها على الخلق.**

لذلك وجدنا أن النبي ﷺ يحجّ على رحل رثٍّ، وقطيفة لا تساوي أربعة دراهم وهو يقول: «**اللهم اجعلها حجةً مبرورة لا رياء فيها ولا سمعة**»[1] فيخرج على هذه الاستكانة، وعلى هذا الافتقار إلى الله تبارك وتعالى، وعلى هذا التواضع والتذلل له، ثم يدعو الله تعالى أن تكون حجةً مبرورة، مقبولة، لا رياء فيها ولا سمعة.

انتهى إبراهيم من بناء البيت، فذهب إلى الصفا ليؤذن في الناس ، استجابة لأمر الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ [الحج:٢٧] وقال: أيْ ربي؛ وما يبلغ صوتي؟ فقال: نادِ وعلينا البلاغ، فوقف على جبل أبي قبيس، وهو جبل موازٍ للصفا، وقال يا أيها الناس إنَّ ربكم قد بنى بيتًا فحجوه، فسمعه كل أحد، وأجابه من كتب الله له الحج ملبيًا، قالوا: (**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**)، حتى جاءوا رجالاً، يعني: يمشون على أرجلهم، شوقًا إلى الله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[الحج:٢٨]، وهو ما قال فيه النبي ﷺ: الحجاج والزوار وفد الله، دعاهم فأجابوا وسألوه فأعطاهم، سبحانه وتعالى.[2].

---

(١) أخرجه هناد (٤١٩/٢ ، رقم ٨٢١) ، وابن ماجه (٩٦٥/٢ ، رقم ٢٨٩٠) قال البوصيري (١٨٢/٣) : إسناده ضعيف . وأخرجه أيضًا : ابن أبي شيبة (٤٤٢/٣ ، رقم ١٥٨٠٥) . وقال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦١٧): صحيح بمجموع طرقه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٩٦٦/٢ ، رقم ٢٨٩٢) . قال البوصيري (١٨٣/٣) : هذا إسناد حسن . والبيهقي (٢٦٢/٥ ، رقم ١٠١٦٨) . و الديلمي (١٤٩/٢ ، رقم ٢٧٦٠) ، وقال الهيثمي (٤٨٤/٣) : رواه البزار ورجاله ثقات.

الفصل الثاني:

أعمال البر

بعد الكلام على مشاهد التضحية وبناء البيت التي تهيئ قلوب أهل الإيمان لتعظيم شعائر الله، والشوق إلى زيارة بيته، نبدأ الكلام عن أعمال البر، التي ينبغي أن يتصف بها المؤمن، كائنا من كان في هذه الأيام، سواء أكرمه الله تعالى بالحج، أم لم يذهب إلى بيته سبحانه وتعالى؛ فإن ذلك مما لا ينبغي أن يتخلف المرء عنه، فالأيام من رمضان إلى الحج – والتي سميناها أيام البر- هي أيام المجاهدة على تلك المعاني المهمة من معاني البر الذين إن حصلوا ذلك يوشك أن يكرمهم ربهم بزيارة بيته، أو أن يغفر لهم في عرفات، فيصبحوا معيدين برحمة الله تعالى وفضله؛ ولتكون شحنة أو دفعة قوية على قلب المؤمن، يصلح به قلبه، وتهذب به نفسه، وتصفي به روحه؛ ليقبل على الله تعالى أحسن مما كان عليه، وليكون بعد ذلك شخصا جديدا، يسير إلى الله وقد تنزلت عليه رحمة الله تعالى.

وأيام البر هذه يهدف فيها أهل الإيمان لشيئين لمواصلة إصلاح علاقتهم مع الله تعالى:

الأول: الاستمرار في الارتباط بأحوال رمضان، بأن يغفر الله لهم، ويعتق رقابهم من النار، فإنك إن خرجت من رمضان مغفورًا لك أو غير مغفور لك، فلا زلت ملتصقًا برمضان تريد أن يُغفر لك، ومن ثم بدأت أعمال البر مرة أخرى، ولكن على تصحيح ما فات، بأن تعمل أعمالاً جديدة تكون سببًا في تحقيق تلك المغفرة، بالالتصاق في رمضان، وسببًا في أن تكون بارًا، فازدادت مهمتك، وازدادت مسئوليتك، وارتفعت أعباؤك.

الثاني: التهيؤ لموسم الحج الأكبر، الذي يغفر الله سبحانه وتعالى فيه للناس الغفران العظيم، فيفيضوا مغفورًا لهم، فيكون عمل أهل الإيمان في أيام البر وسيلة إلى الله تعالى ليبلغهم هذه الأيام، فيغفر لهم فيها، أو أن يزيدهم من فضله سبحانه وتعالى فيبلغهم بيته الحرام.

وإن كانت المغفرة في رمضان متعلقة بالقيام والصيام، وبما يتعلق من أعمال بين المرء وبين ربه سبحانه وتعالى، إذا بالنبي ﷺ يقول في الحج: «**لَيْسَ لِلْحَجِّ الْمَبْرُور جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّة**» [٢١] ، والحديث الثاني: «**مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُث وَلَمْ يَفْسُق رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**» [٢٢]وفي المسند أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: « **أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله وحده، ثم الجهاد، ثم حجة برة تفضل سائر الأعمال كما بين مطلع الشمس ومغربها**» [٢٣].

والمعنى المستفاد من ذلك هو: أنه علق المغفرة في الحج على أن يكون المرء بارًا، وعلى أن يتخلص المرء من الرفث والفسق والأخلاق السيئة المرذولة. ومن ثم كانت هناك علاقة وشيجة قوية بين أن يخرج المرء صحيح العلاقة مع الله تعالى بعد رمضان، مغفورًا له، وبين دخوله موسم الحج.

ومن ثم فإننا محتاجون إلى أن نتعرف على صفات الحج المبرور، التي يرجع بها أهل الإيمان من رحلتهم وقد غفرت سيئاتهم، ومحقت ذنوبهم وتاب الله تعالى عليهم وبشرهم بجنته سبحانه وتعالى.

وتتلخص هذه العلاقة في أن المرء إن كان قد خرج صحيح السير إلى الله بعد رمضان، فإنه لا يستكمل سيره إلى الله تعالى ولا يستكمل المغفرة في الحج الأكبر، إلا بأن يصحح العلاقة بينه وبين الناس، بأن يتخلص من إثمه وفسقه وكذبه ورفثه وسخريته وأخلاقه السيئة، وغير ذلك مما نهى النبي ﷺ عنه. **لأن المرء إن لم يأت بهذا البرّ الذي أمره الله تبارك وتعالى به في حجّه وعمرته ، لن يعود كيوم ولدته أمه ،** بل على العكس، يأتي المرء وقد حمل سيئات كثيرة، من الغيبة والنميمة والنظر المحرم وتضييع الفرائض، والشحناء لإخوانه، وغير ذلك مما نرى ، وهذه السيئات لا توازي أعمال البرّ التي

---

(٢١) أخرجه البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩) ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ).

(٢٢) أخرجه البخاري (١٥٢١)، ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ).

(٢٣) رواه أحمد (٣٤٢/٤ ، رقم ١٩٠٣٢) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٧٦/٣): رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجال أحمد رجال الصحيح.وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح.

أتاها؛ لأنه إن كان قد انشغل بالسيئات والمعاصي والذنوب ، فمتى ينشغل بأعمال البرّ ؟ ! أعمال البر ليست على باله من أصله ؛ لأنه لو كان منشغلا بها، ومهمومًا في إصلاح عمرته وحجّه ، يريد بذلك أن يغفر الله له ، وأن يرجع مجبورًا ، لكان رجوعه على غير هذا الحال.

السبب التالي الذي يدفع المرء للحفاظ على أعمال البر في هذه الأيام بعد رمضان وقبل الذهاب إلى الحج، أن هذه الأعمال من أعمال البر هي التي تحافظ له على قلبه ، وعلى صلاته ، وعلى قيامه ، وعلى ذكره ، وتبعد عنها المفسدات والمحبطات؛ فكلما كان المرء بارًّا كانت أعماله وطاعاته في ازدياد ، وكانت في محل القبول عند الله تبارك وتعالى، فيشعر بحلاوة الطاعة ، ونعمة القرب ، ابتداء من بره بنفسه، وبره بوالديه، وبره بأهله وولده، وبره بإخوانه ومشايخه وأهل الفضل عليه، ثم بره بالناس أجمعين، حتى يصير من الأبرار الذين يتنعمون في الدنيا والآخرة بمعرفة الله ومحبته والقرب منهككما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]، و نعيم هؤلاء الأبرار إنما يكون في الدنيا والآخرة، من لم يحقق نعيم الدنيا لم يحقق نعيم الآخرة.

وهذه المسألة يحفظها المرء ، ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾، يعني: في نعيم في الدنيا ونعيم في الآخرة؛ لذلك كان الصالحون يقولون هذا المعنى: (لو علم أهل الدنيا ما نحن فيه من النعيم لجالدونا عليه بالسيوف) ، وهو نعيم القرب من الله تعالى ، والأنس به ، ووجود حلاوة الطاعة ، وكثرة الذكر للرب سبحانه وتعالى ، وغير ذلك من الطمأنينة والسكينة ، وتنزل الرحمة والمغفرة ، وإحساس المرء بمحبة الله تعالى ، وقربه منه جل وعلا.

عندما تجد نفسك في شقاء وبؤس وبعد وضعف في الهمة والعبادة والقلب والعمل ، وانفرطت عليك أحوالك ، فاعلم أنك قد نزلت عن درجة البر وابتعدت عنها؛ لأنه قد وعد الله تعالى بهذا الوعد الصادق: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾.

فإن قيل: لماذا لا يشعر المرء بذلك ؟ ! نقول: لأنك لم تتحقق بعد بأعمال البرّ ؛ وهذه الأيام هي فرصتك لتحقيق هذه المعاني، والمضيع فيها للبر مضيعٌ لنفسه في الدنيا والآخرة؛ لأنه - كما قال أهل العلم : من لم يذق نعيم القرب من الله في الدنيا ، لم يذقه في الآخرة . وهذا النعيم يفتحه الله

تعالى لأهل الإيمان في الدنيا ، ليدلّهم به على الآخرة ، وليكون سببًا من الأسباب الحاملة لهم على أعمال البرّ.

فعندما ينفتح للمرء باب من أبواب البرّ ، فإن هذا البر إنما يكون سببًا لأن يعلم به بر الآخرة ونعيمها ، ومن ناحية ثانية ليكون عونا من الله له على المسارعة والمجاهدة والمكافحة؛ فكلما ضعفت نفسه ، أحس بهذا النعيم فيتضاءل في جنب هذا النعيم ، كل البذل الذي يبذله ، والتعب الذي يتعبه . فإذا ما فتح لك هذا الباب من أبواب النعيم بأعمال البرّ ، فإن ذلك رحمة من الله تعالى يهديها لك لتكون عونًا على أن تتحمل هذه الأعمال ، وأن تتحمل هذا البذل ، وأن تتحمل هذه المشقات ، وأن تسارع إلى الله تعالى ، وأن تبذل ، وألا تبخل بوقت ولا بجهد في تحصيل ذلك.

لذلك نوضح أعمال البرّ ، ليحاول المرء الذي يخاف على عمرته وحجّه أن يأتي بهذه الأعمال، تقربًا إلى الله تعالى، وخوفًا من أن يضيع عمله ويقل ثوابه وأن تذهب سيئاته بحسناته التي أتاها .

إن العمل المبرور، المقبول، له علامات وآثار تظهر على أصحابها تدل على أن الله تعالى قد اجتباهم وغفر لهم، وأن الله تعالى قد رحمهم سبحانه وتعالى، واصطفاهم وكانوا من ضيفه المكرمين، والسؤال الآن: كيف نحقق الحج المبرور؟

يكون الحج مبرورًا باجتماع أمرين فيه:

الأمر الأول: الإتيان فيه بأعمال البر.

والأمر الثاني: اجتناب أفعال الإثم.

الأول مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم: «**ليس للحج المبرور جزاء إلا الجنة**»[٢٤]، والأمر الثاني من قوله صلى الله عليه وسلم: «**من حج فلم يفسق ولم يرفث رجع من حجه كيوم**

---

(٢٤) رواه أحمد (٤٦٢/٢ ، رقم ٩٩٤٩) ، والبخاري (٦٢٩/٢ ، رقم ١٦٨٣) ، ومسلم (٩٨٣/٢ ، رقم ١٣٤٩).

ولدته أمه»[٢٥] لذلك فلا بد من أن يجتمع هذان الأمران في الحج؛ حتى يكون مبرورًا مقبولاً عند الله تعالى.

نبدأ بالأمر الأول وهو: الإتيان بأعمال البر، فما هو البر؟ يقال: البر يطلق على معنيين:

المعنى الأول: الإحسان إلى الناس. والمعنى الثاني: الإتيان بأفعال الطاعات كلها.

فإذا قلنا كيف يكون الحج مبرور؟ نقول: لا بد أن يجتمع في الحج معاني البر وهي: الإحسان إلى الناس، والإتيان بأفعال الطاعات كلها ، وأن تنتفي عنه أعمال الإثم، فيكون الحج مبرورا، ويكون سببًا في أن يرجع المرء منه كيوم ولدته أمه، ليكون الحج سببًا لتحصيل الدرجة العالية من المغفرة والجنة.

والنقطة المهمة التي ينبغي أن يعلمها أهل الإيمان، أن تحققهم بأعمال البر[٢٦] لن يأتي بغتة، ولكن يجب أن يبدأ المرء في المحافظة على هذه الأعمال قبل أن يذهب إلى الحج ، وأن تستمر هذه المحافظة على الأعمال سواءً في ظاهره أو باطنه ، ليكون برًا من ناحية ، ومن ناحية أخرى، أن يجتنب ما أمره الله تعالى باجتنابه من الرفث والفسوق والعصيان، حتى لا يكون وقوعه في ذلك سبب في أن يرجع من حجِّه ولم يحصل شيئًا ، كما سنوضح هذه المعاني بإذن الله تعالى.

أولًا: الإحسان إلى الخلق

ونفصل في معنى الإحسان إلى الخلق؛ حتى يفهم المرء كيف يحقق الإحسان في حجه؛ ليكون هذا الحج مبرورًا، ففي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن البر قال: «**البر**

---

(٢٥) رواه أحمد (٢/٢٤٨ ، رقم ٧٣٧٥) ، والبخاري (٢/٥٥٣ ، رقم ١٤٤٩) ، والنسائي (٥/١١٤ ، رقم ٢٦٢٧) ، وابن ماجه (٢/٩٦٤ ، رقم ٢٨٨٩) ، وابن حبان (٩/٧ ، رقم ٣٦٩٤).

(٢٦) للاطلاع على المزيد من التفاصيل بخصوص أعمال البر في الأشهر المعلومات، برجاء مراجعة كتاب "أيام البر" للمؤلف.

حسن الخلق»[٢٧]، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لما سئل عن البر: «قال: إطعام الطعام، وإفشاء السلام»، وفي حديث آخر: «وطيب الكلام»[٢٨].

وينبغي أن يعود المرء نفسه على هذه الأخلاق من الآن حتى إذا أذن الله له أن يتشرف بالذهاب إلى بيت الله تعالى يكون قد استعد لهذا البر لهذا الحج المبرور إن شاء الله تعالى.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «البر شيء هين وجه طليق وكلام لين» وهذا المعنى يحتاج إليه المرء في الحج كثيرًا يعني: معاملة الناس بالإحسان في القول والفعل.

وسئل سعيد بن جبير رضي الله عنه أي الحاج أفضل؟ قال: من أطعم الطعام، وكف لسانه. قال الثوري رحمه الله: سمعت أنه من بر الحج، يعني على هذا الكلام.

وفي مراسيل خالد بن معدان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « ما يصنع من يؤم هذا البيت إذا لم يكن فيه خصال ثلاثة: **ورع يحجزه عما حرم الله، وحلم يضبط به جهله، وحسن صحابة لمن يصحب**، وإلا فلا حاجة لله في حجه»[٢٩] هذه الثلاثة يحتاجها المرء في أي سفر وفي سفر الحج متأكدة تأكدًا زائدًا؛ لأنه يريد أن يغفر الله له، ويريد أن يرجع كما ولدته أمه لا ذنب، يريد أن يرافق النبيين والصديقين والشهداء في الجنة.

أولها: «ورع يحجزه عما حرم الله»، وهي مسألة مهمة سواء في معاملته في أمواله، سواء في نظره، وسمعه، وكلامه؛ لأنه سيجد المناظر التي يقع عليها عينه مما حرم الله سبحانه وتعالى والكلام الذي يسمعه مما حرم الله تعالى؛ فيلزمه في هذا: أن يغض بصره عما حرم الله، وأن يتورع عما حرم الله في مأكله ومشربه وملبسه، وفي بصره وسمعه وكلامه؛ حتى يعود خلقًا آخر قد تعود بدنه

(٢٧) أخرجه أحمد (٤/١٨٢ ، رقم ١٧٦٦٨) ، ومسلم (٤/١٩٨٠، رقم ٢٥٥٣)، والبخاري في الأدب المفرد (١/١١٠، رقم ٢٩٥) .

(٢٨) رواه أحمد (٣/٣٢٥ ، رقم ١٤٥٢٢) ، والطبراني في الأوسط (٦/٣٦٢ ، رقم ٦٦١٨) ، وقال المنذري (٢/١٠٦) ، والهيثمي (٣/٢٠٧) : إسناده حسن . و الحاكم (١/٦٥٨ ، رقم ١٧٧٨) وقال : صحيح الإسناد .

(٢٩) أورده ابن رجب في لطائف المعارف ص٤١١ .

الورع عما حرم الله تعالى، فإن تورع عما حرم الله كف لا شك عما حرم الله؛ فالورع أعلى درجات الوقوف عن الحرام.

الأمر الثاني: «وحلم يضبط به جهله» لا بد وأن يكون حليمًا يضبط غضبه وسرعة عصابيته و"نرفزته" كما يقال؛ لأنه سيجد من يخبطه، ومن يسرقه، ومن يفعل به كذا وكذا، سيجد كل هذه الامتحانات والابتلاءات التي تخرجه عن شعوره؛ فيشتم ويسب ويتعارك ويصل إلى حالة كأن لم يكن محرمًا ! لذلك لا بد أن يتسع صدره لما يحدث، ويعلم أن كل ذلك في ميزانه، ولا يظن أن شيئًا من ذلك يضيع عليه عند الله تبارك وتعالى، بل لا بد وأن يعود نفسه حتى يكون حجه مبرورًا يعود من حجه لا ذنب له، فيكون على هذا لحال إلى أن يلقى الله تعالى، أن يتسع صدره لمن يجهل عليه بكلام أو بفعل أو باستهزاء أو بسخرية أو بأكل ماله أو بغير ذلك مما يمكن أن يحدث له في مثل هذه السفر لله تعالى.

يعني: هذه سفرة لله تعالى إذا خرج فيها إلى الرفث والفسوق يعني: إلى الكلام الخارج عن حد الشرع؛ فإنه حينئذ لا يعود كما ولدته أمه، وهو الحال التي نراها نرى الحجيج وقد خرجوا إلى الكلام التافه، وإلى مضيعة الوقت، وإلى النظر المحرم والكلام المحرم، وإلى الشجار، وإلى المفارقة، وإلى الغضب، وإلى المصائب السوداء التي نسمع عنها ومن حج أو اعتمر فقد رآها!

الأمر الثالث: «وحسن صحابة لمن يصحب» فلا بد إذا صحبت قومًا في سفرك للحج أن تكون أحسنهم صحبة، أن تعود نفسك على أن تحتمل أذاهم، وأن تكف أذاك عنهم، وفي نهاية المطاف أن تبذل لهم الندى كما هو المذكور في فعل النبي صلى الله عليه وسلم وهدي الصحابة المكرمين أن يكف الأذى، وأن يتحمل الأذى، وأن يبذل الندى؛ فلا يكف أذاه فقط، ولكن يتحمل أذى الآخرين وأن يبذل لهم الندى، أن يبذل لهم من ماله ووقته ووجهه ما يود أن يكون به حجه مبرورًا يريد به رحمة الله، ويستمطر به مغفرة الله، وسنسمع سير الصحابة التي ينبغي أن يكون عليها أهل الإيمان.

وهو على عكس ما يحدث اليوم، فإن كل صحبة تنطلق إلى بيت الله تبارك وتعالى فإن الشيطان يحضر لهم صحبة بعددهم؛ حتى يفسد عليهم حجهم، بمعنى أن يخرجهم عن هذه الأخلاق حتى يرجعوا متقاطعين متدابرين، وقد رأينا مثل ذلك: ما أن يصلوا إلى بيت الله تعالى حتى يتصرف كل أحد بمفرده، ولا يريد أن يصاحب الآخر، ولا يريد أن يراه ولا أن يكلمه، حتى يتم حجه!

لذلك قال: «**وإلا فلا حاجة لله بحجه**»؛ لأنه كذلك سيضيع حجه إذا لم يكن يصحب من يصحب بالمعروف وبذل الندى وكف الأذى، وأن يضبط حلمه وضيقه وغضبه مما سيرى من الأقوال والأفعال، وأن يكون كذلك ورعًا عما حرم الله تعالى؛ فإن سيرجع وكأنه لم يفعل شيئًا كهذا الذي يصلي وخرج من صلاته كما دخل فيها !

ومن أجمع خصال البر التي تنفع الحاج، والتي قصر فيها معظم الحجيج، ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أبا جري الهجيمي قال: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي ولو أن تعطيه صلة الحبل، ولو أن تعطي شسع النعل، ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق، ولو أن تلقى أخاك المسلم فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض**».[(٣٠)]

وصاه صلى الله عليه وسلم بهذه الخصال من خصال البر، وهذه لا يقوم بها أحد في الحج – إلا من رحم الله- فلو كان أحد معه بعض الماء تجده لا يريد أن يعطي أحدًا شيئًا ، ويريد أن يكتزهم لنفسه، وكذلك المال، فترى الحجيج كلهم يحاول أن يحافظ على ماله، وألا ينفق منه إلا بمقدار معلوم، ولو رأى فقيرًا أو جائعًا أو مسكينًا أو مقتولاً حتى لا يفكر في أن يسعفه أو أن يقوم له بشيء، أو أن يساعده على شيء، أو أن يبذل له شيئًا من بر الحج، وحتى في السلام تراه مقصرًا في أن يسلم على أحد، فلا يسلم إلا على من يعرفه، ولا يحاول أن يبر حجه ليكون على النحو الأكمل الذي به يرجع مغفورًا له، وكذلك لو وجد المرء واحدًا حزينًا مسكينًا مستوحشًا جالسًا في مكان يبدو عليه الوحشة وعدم الأنس لا يؤنسه ولا يكلمه، ولا يستفسر عنه ولا يدخل عليه السرور، ولو سأله أحد شيئًا ما أعطاه ويقول له: اذهب، ربنا يعطيك.

ينبغي إذن أن يحافظ المرء على هذه الخصال من خصال البر ؛ حتى يكون بها حجه مبرورا يعني: أن يضعها المرء في اعتباره من اليوم، حتى إذا ذهب إلى الحج بفضل الله تعالى وجد نفسه قد

---

(٣٠) أخرجه أحمد (٦٣/٥ ، رقم ٢٠٦٥٢) وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح، والنسائي في الكبرى (٤٨٧/٥ رقم ٩٦٩٦) ، والطبراني في الكبير (٦٥/٧ رقم ٦٤٠٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢٠/٣ ، رقم ٣٣٧٦) .وصححه ابن حبان في صحيحه (٢٨١/٢ رقم ٥٢٢).

وضع في عقله وخاطره وماله ووقته أنه سيبذل كل ذلك لبر حجه: **بأن يخرج من ماله ليعطي السائل والفقير، وأن يدبر مالاً ليؤنس به الوحشان في الأرض، أو ليسقي به الحجيج، أو ليطعمهم الطعام وفي إفشاء السلام، وطيب الكلام، وطلاقة الوجه، وعلى إحضار مال زائد معه لينفقه في بر حجه**: بأن يشتري به ما يسقي به الحجيج من ماء وغيره من المشروبات، أو أن يطعمهم به من طعام يعده لهم، وكذلك أن يواسيهم. والنقطة المهمة في كل ذلك أن يكون على الإخلاص لله تعالى، فيخبئ هذه الخبايا لنفسه بينه وبين ربه؛ حتى ينتظر بها مغفرة الله تعالى.

ولينتبه لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الوصية؛ فلا يحقر منها شيئًا حتى ولو كان شيئًا هينًا قليلاً كما قال: «**ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي**» واحد يريد بعض الماء أعطه الماء، «**ولو أن تعطي صلة الحبل**»، واحد يريد حبلاً لكي يربط به الحقيبة يقول: لا أنا ليس معي، يقول: أعطني "بكرة اللزق" يقول له: لا ، سأستعملها في حقيبتي! وهكذا تجد الكثير من هذه الأخلاق التي رأيناها وسمعناها، أليس كذلك؟

ويستكمل صلى الله عليه وسلم تبيين هذه الخصال، فيقول: «**ولو أن تعطي شسع النعل**» وكأن النبي صلى الله عليه وسلم يرى أيامنا هذه ! فيخرج المرء من الحرم لا يجد نعله "الشبشب" ولا يجد غيره، فمن بر الحج أن تعطي أحدًا ذلك؛ وحتى تحقق في نفسك هذه الخصلة الجميلة التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم، فلتعد معك مجموعة من "الشباشب" وكلما وجدت واحدًا ضاع نعله تعطيه واحدًا من معك، وانظر إلى ثواب ذلك عندما تجده مزخورا لك عند الله تعالى يوم القيامة، ولا تحقرن من المعروف شيئًا !

وكذلك يقول: «**ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق**»، وذلك لأن في سفر الحج والعمرة بالذات، تجد من سرق ومن ضرب ومن فقد ماله، **وتجد الكل حزين و"مكشر" ؛ فيحتاج منك ذلك إلى أن تبسط وجهك وأن يكون وجهك منطلقا إلى الحجيج**، ليس إلى إخوانك فقط، وإنما إلى الحجيج عامة؛ ولا زلت أنت المتمسك ببر الحج الذي تود به أن يغفر الله لك، لعلمك أن المغفرة شيء عظيم، وهين أن يبذل المرء في تحصيلها هذه الأمور: أن يضرب وأن يكسر وأن يحدث له كل ذلك سهل عليه إذا ما حصل مغفرة الله تعالى، فلا زلت بشوشًا منطلق الوجه إلى إخوانك وإلى المسلمين ليشعروا أن في أهل الإيمان من لا يزال له حج بارّ.

وكذلك يكون لك نصيب من وصية النبي صلى الله عليه وسلم: «**ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض**»، كثيرًا تجد من ضاع ابنه ومن ضاعت أمواله ومن حصل له كذا ومن لا يعرف إلى أين يذهب، فماذا لو أن تؤنسه بكلمة وأن تأخذه إلى مكانه الذي قد ضاع منه، أو أن تواسيه بشيء من مالك إن كان صادقًا، أو أن تأخذه إلى أهله الذين يبحثون عنه، وغير ذلك كثير من هذه المعاني التي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم.

في الجملة «**فخير الناس أنفعهم للناس**»[٣١]، وأصبرهم على أذى الناس، وقد وصف الله تعالى المتقين بهذه الصفات كما قال تعالى:﴿ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾** ﴾ [**آل عمران: ١٣٤**] فهم ليسوا على الحال التي فيها الناس اليوم، فبعد أن كان يعطيهم ويواسيهم ويصلهم ويبش في وجوههم، ثم أصابوه بشيء أو آذوه بشيء انقلب عبوس الوجه، ومنع خيره، ومنع بره عنهم وصلته إياهم لا، وإنما كان: «وأصبرهم على أذاهم»، وهي من صفات المتقين. والمؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل مما لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم، والحاج يحتاج إلى مخالطة الناس.

ومن خصال البر كذلك الذي قاله ربيعة – وهو شيخ مالك شيخ الإمام مالك إمام الدنيا في عصره رضي الله عنهم أجمعين- قال ربيعة: «**المروءة في السفر بذل الزاد، وقلة الخلاف على الأصحاب، وكثرة المزاح في غير مساخط الله عز وجل**»، وهذا من الأمور المطلوبة في الحج، لماذا؟ لأنه كأنه يقول: "النذالة" أن تحجز زادك عن إخوانك، وأن تبقيه لنفسك، فتجده حتى لو كان يأكل مع أخيه، إذا به يخرج المقدار القليل، ولا يبذل بكرم وينفق بسخاء يرجو مغفرة الله، ويرجو أن ينفق الله عليه .

ثم يقول: «**وقلة الخلاف على الأصحاب**» ونرى كذلك هذا المعنى، يقول لصاحبه: شمالاً فيقول له: لا يمين أفضل! يقول نمشى، يقول له: لا نركب ، يقول نشتري كذا، يقول له: لا هذا

---

(٣١) رواه الطبراني في الكبير (٤٥٣/١٢ رقم ١٣٦٨٠) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٩٤/٨): رواه الطبراني في الثلاثة وفيه سكين بن سراج وهو ضعيف.

الرجل سيئ تعال نشتري من غيره ! والكل يمشي على هذا المنوال، أن رأيه هو الحسن، وأن رأيه هو الصحيح، مع أنها في نهاية الأمر مسألة بسيطة، اشتريت من هنا اشتريت من هناك، المسألة قريبة.

لذلك قال: من المروءة في السفر قلة الخلاف على الأصحاب، لأن كثرة الخلاف في نهاية المطاف ستتسبب في تفرق هؤلاء الأصحاب، وفي تباغضهم وتقاطعهم إلى نهاية حجهم وكأنهم لم يحجوا في نهاية الأمر، أما من تعود في الحج على قلة الخلاف، فإنك تراه بعد الحج قد صار إنسانًا سمحًا هينًا لينًا مع إخوانه، كثير المروءة معهم، وكذلك صار على البشاشة وعلى البر وعلى طيب الخلق وعلى حسن الكلام وعلى غير ذلك من وصايا النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم يقول: «**وكثرة المزاح في غير مساخط الله عز وجل**» وهو لا يقصد أن ينقلب الأمر إلى "تهريج" لا، وإنما يقصد أن يخفف وعثاء السفر وضيق الطريق، وما يقابل المرء من الأخلاق السيئة والمعاملات الصعبة على إخوانه، بأن يبسط عليهم وأن يخفف عنهم، وأن يحمل عنهم ما يسوؤهم ويضايقهم، وأن يذكرهم بقصص الصالحين التي تخفف عنهم وتروح عن قلوبهم حتى يستكملوا رحلة السير إلى الله تعالى، بحيث يكون ذلك أنشط للعبادة، وأنشط للقيام بالمناسك، وأبعد للشيطان عن النفس.

جاء رجلان إلى ابن عون يودعانه ويسألانه أن يوصيهما؛ فقال لهما: « **عليكما بكظم الغيظ وبذل الزاد، فرأى أحدهما في المنام أن ابن عون أهدى إليهما حلتين** »، انظر إلى هذه الزينة، فتكظم غيظك وتبذل ما معك أموال وأكل وشرب، ولا تبخل على إخوانك والله ينفق عليك، لا تخش شيئا.

الإحسان في السفر

ولا زلنا في المعنى الأول من معاني البر وهو: الإحسان إلى الناس الذي لا بد أن يتحقق به الحاج حتى يبر حجه.

والمعنى الجديد هو أن الإحسان إلى الرفقة في السفر أفضل من العبادة القاصرة، وانظر إلى هذا المعنى الجميل، لا سيما إن احتاج العابد إلى خدمة إخوانه. وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، عندما كانوا في السفر في حر شديد ومعه من هو صائم ومن هو مفطر؛ فسقط الصوام من التعب والحر فقام المفطرون فنصبوا الخيام وسقوا الإبل والخيل وما معهم؛ فقال النبي صلى الله

عليه وسلم: «**ذهب المفطرون اليوم بالأجر**»[٣٢]، فأجر اليوم كله أخذه المفطرون ليس الصائمين، فكأنه يؤيد هذا القول بأن الإحسان إلى الرفقة في السفر أفضل من العبادة القاصرة.

فإذا همَّ أحد بأن يصلي ركعتين أو يقرأ بعضا من القرآن ووجد إخوانه متعبين ولا يستطيعون؛ فمن وقع مريضا ومن أصابه المرض الذي يصيب الناس في الحج، فقام هو بدلا من ذلك بسقايتهم والقيام على تمريضهم، والقيام على طعامهم ودوائهم ذهب بالأجر، وهذه ينبغي أن يأخذ المرء باله لها.

ونذكر أفعال السلف الصالحين في السفر، ونبدأ بقصة ابن عمر رضي الله عنهما - وهومن هو- ومجاهد - وهو من أئمة التابعين، وكان مجاهد تلميذ ابن عمر رضي الله عنهما وكان ابن عمر رضي الله عنه شيخا ومجاهد شابا **فقال مجاهد: صحبت ابن عمر في السفر لأخدمه؛ فكان هو يخدمني،** وهي مسألة مهمة، ألا ينتظر المرء من أحد ألا يقوم له بخدمة، بل على العكس أنت خارج في سفر الحج للقيام بالخدمة، والخدمة هي العمل المتعدي، فهي أفضل من العبادة القاصرة، فتقضي أورادك وأذكارك وأن تنشغل بالذكر، ثم تقوم بعد ذلك بخدمة إخوانك فذلك أفضل الأعمال، وذلك هدي السلف كما أشرنا؛ لذلك كان كثير من السلف يشترط على أصحابه في السفر أن يخدمهم؛ اغتناما لأجر ذلك، ومنهم عامر بن عبد قيس رضي الله عنه، وعمرو بن عتبة مع اجتهادهما في العبادة يعني: ليس مفرطين في العبادة، فاغتنموا أوقاتهم في العبادة لربهم وقاموا بهذه الخدمة كذلك، فحصلوا العبادة القاصرة، والعبادة المتعدية.

وكذلك كان إبراهيم بن أدهم يشترط على أصحابه في السفر الخدمة والأذان ، كان رجل من الصالحين يصحب إخوانه في سفر الجهاد وغيره؛ فيشترط عليهم أن يخدمهم فكان إذا رأى رجلا يريد أن يغسل ثوبه قال له: هذا من شرطي؛ فيأخذ الثوب منه فيغسله له، وإذا رأى من يريد أن يغسل رأسه قال: لا هذا من شرطي فيغسل له رأسه كذلك! انظر إلى هذه النفوس الطيعة المتواضعة التي تبغي بهذا التواضع والانكسار، مغفرة الله تعالى، فلما مات نظروا في يده فإذا فيها مكتوب: من أهل الجنة.

---

(٣٢) صحيح مسلم (١١١٩).

اليوم لا أحد يفعل ذلك فلا يأخذ ثوب أحد يغسله ولا شيء! كله: نفسي نفسي، وكأننا يوم القيامة، وليس سفر الثواب، وسفر الأجر، والبر وسفر المغفرة والرحمة وسفر الجنة والدخول على الله تعالى.

وهناك قصة جميلة كثيرًا ما نشير إليها وهي قصة بُهيم الذي توافق مع هذا التاجر الموسر ليذهبا إلى الحج، وقد وفق بينهما رجل وكأنه يريد لهذا التاجر الموسر بمرافقة بُهيم أن يهديه الله تعالى وأن يخرج من حرصه على الدنيا وشحه بها عندما يرى أهل الإيمان على حالهم الحسن حتى يكون ذلك سببًا في إقباله على الله تعالى.

فقد كان بُهيم رضي الله عنه من العُبَّاد البكائين، فلما ابتدأ الرحلة إلى الله تعالى ووضعا أرجلهما في الغرز بكى بكاء شديدًا حتى بلت دموعه لحيته وتقاطرت على الأرض وقال: ذكرتني هذه الرحلة بالرحلة إلى الله تعالى، عندئذ خشي التاجر أن يتنغص عليه حجه من كثرة ما يرى من بكاء بهيم، فلما رجعوا من الحج جاء الرجل الذي رفق بين هذا التاجر الموسر وبين بُهيم رحمه الله تعالى فقال يبدأ بالتاجر الموسر أولاً ليسأله عن حال بُهيم صاحبه في الحج فقال: والله ما ظننت أن في الخلق مثله، لقد كان يوسع علي في النفقة وهو معسر وأنا موسر، ويخدمني في السفر وهو شيخ وأنا شاب، ويصنع لي الطعام وهو صائم وأنا مفطر، والله ما ظننت أن في الخلق مثله قال: وماذا فعلت في بكائه قال: لقد أشرب حبه قلبي، فكان إذا بكى بكيت معه حتى تأذى بنا الرفقة. كما يقول الناس اليوم: ما هذه الوقعة السوداء علام يبكون؟ لا تبشروا علينا! دعوا الرحلة تمر على خير ونرجع لأهلنا وعيالنا!

ثم ماذا ؟ثم إنهم كذلك أحبوا هذا البكاء وقالوا: ما لنا لا نبكي والمصير واحد فصاروا إذا بكينا بكوا معنا، ثم سار إلى بهيم وسأله عن حال التاجر معه قال: جزاك الله خيرا ، فقد كان سريع العبرة يعني: كثير الدمعة لله تعالى، كثير التلاوة لكتاب الله تعالى، كثير الذكر لله جل وعلا، متحمل لهفوات الصديق.

رجع التاجر_وهو سريع العَبرة، ما أن يذكر الموعظة إلا ويبكي ويتذكر الرحلة إلى الله تعالى والدار الآخرة وفناء الدنيا وموقفه بين يدي الله تعالى، فكأن ما حدث له، جعل قلبه الصلد القاسي الذي لا يفكر إلا في الدنيا والذي قد امتلأ بالوساوس والشبهات والشهوات والآفات والأخلاق

الذميمات المرزولات التي قد امتلأت بها القلوب اليوم، إذا بهذا القلب قد أصبح متأثرًا لما يسمعه من الموعظة، أصبح على كثرة الذكر لله تعالى، كثرة التلاوة لكلام الله تعالى، يتحمل الهفوات، ويحسن صحبة أصحابه ويتحمل أذاهم، وهذا هو التواضع الذي ينبغي أن يتعلمه المؤمنون اليوم في أحوالهم ليكونوا أبرارا كما أراد الله لهم.

وانظر إلى ابن المبارك رضي الله عنه، وهو من التابعين الأجلاء ، وكان يقال عنه: سيد المسلمين رضي الله عنه فكان إذا أراد الحج رضي الله عنه من بلده "مرو" جمع أصحابه وقال: من يريد منكم الحج؟ فيأخذ منهم نفقاتهم فيضعها عنده في صندوق ويغلق عليه، ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة، ويطعمهم أطيب الطعام، وهو صائم، ثم إذا انتهوا من حجهم يشتري لهم من مكة الهدايا والتحف التي يريدون أن يرجعوا بها إلى أهليهم وأصحابهم، فإذا وصلوا صنع لهم طعاما بمناسبة عودتهم المباركة، ثم جمعهم عليه ودعا بالصندوق الذي أخذ منهم النفقات فيه ففتح الصندوق وأعطى كل أحد نفقته التي أعطاها إياه قبل السفر! هل هناك أحد يفعل ذلك؟!

ثانيا: الإتيان بكل أعمال الطاعات

بعد الإشارة إلى المعنى الأول من معنى بر الحج وهو: الإحسان والصلة ننتقل إلى المعنى الثاني وهو: الإتيان بالطاعات كلها، لأنه من معاني البر المطلوبة في الحج، ، وقد فصل الله تعالى هذا المعنى في قوله:﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧] فتضمنت هذه الآية أن أنوع البر ستة أنواع من استكملها فقد استكمل البر؛ ويصير حجه مبرورا بعد ذلك إن استكمل ذلك بالجزء الثاني من البر وهو: اجتناب الآثام.

والبر الذي ذكرته الآية ستة أنواع:

الأول: الإيمان بأصول الإسلام الخمسة وهي: الإيمان بالله والملائكة والكتاب والنبيين واليوم الآخر فلا بد منها ولا كلام فيها.

وثانيها: إيتاء المال المحبوب إيتاؤه لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب.

ثالثها: إقام الصلاة، **ورابعها:** إيتاء الزكاة، **وخامسها:** الوفاء بالعهد، **وسادسها:** الصبر على البأساء والضراء وحين البأس، وهي الستة أنواع من أنواع البر التي يحتاجها كل أحد والحاج يحتاجها احتياجا زائدًا متأكدًا.

فإنه لا يصح حجه بدون إيمان، ولا يكمل حجه ويكون مبرورا بدون إقام الصلاة وإيتاء الزكاة: فإن أركان الإسلام بعضها مرتبط ببعض فلا يكمل الإيمان والإسلام حتى يؤتى بها كلها، ولا يكمل بر الحج دون الوفاء بالعهود من التعاقدات والمشاركات التي يحتاجها المرء في الحج، من أن يتفق مع هذا ويعطي هذا ويأخذ من هذا ويشارك هذا في المواصلات أو المال أو الطعام أو الإيجار، فلا بد من الوفاء بالعهد في مثل ذلك، وكذلك إيتاء المال المحبوب للنفس لمن يحب الله تعالى إيتاءه إياه :ما قال: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ فلابد أن يكون المال محبوب لنفسه وشديد على أن يخرجه وهو حريص عليه وشحيح به، فيأتي البر ليخرج من نفسه هذا الشح وهذا الحرص وهذا الاكتناز، وأن ينفق، فينفق الله تعالى عليه، ثم يحتاج بعد ذلك إلى الصبر ﴿ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾، فأنت محتاج في سفر الحج إلى الصبر ولا شك.

وهناك مسألة متعلقة بإقامة الصلاة في الحج لا سيما إن كان حجه تطوعا، وهي مما يقع فيها المتدينون فضلا عن غيرهم. **وهي أنه في حج النافلة أو في عمرة النافلة يضيع صلاة الجمعة، ويضيع الصلاة على وقتها، ولا يتحرج من ذلك، مع أن الصلاة على وقتها وصلاة الجمعة وغير ذلك من الفرائض أهم من العمرة المستحبة** التي يفرط بها المرء في صلواته ولا حول ولا قوة إلا بالله!

لذلك فمن حج من غير إقام الصلاة لا سيما إن كان حجه تطوعا كان بمنزلة من سعى في ربح درهم وضيع رأس ماله وهو ألوف كثيرة، وقد كان السلف يواظبون في الحج على نوافل الصلاة ليس على الصلاة في أوقاتها فقط، بل وعلى نوافل الصلاة كذلك، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يواظب على قيام الليل على راحلته في أسفاره كلها، ويوتر عليها وما كان ليضيع ذلك صلى الله عليه وسلم.

وحج مسروق –من التابعين- فما نام إلا ساجدًا، وكان محمد بن واسع رضي الله عنه يصلي في طريق مكة ليله أجمع في محمله يومئ إيماءه، ويأمر حاديه -سائقه يعني- أن يرفع صوته حتى يشغل الناس عنه بسماع صوت الحادي؛ فلا يتفطن له أحد، وذلك أدعى إلى الإخلاص.

وكان المغيرة بن حكيم الصنعاني يحج من اليمن ماشيًا، وكان له ورد بالليل يقرأ فيه كل ليلة ثلث القرآن؛ فيقف ويصلي حتى يفرغ من ورده ثم يلحق بالركب ، وربما لم يلحقهم إلا في آخر النهار. سلام الله على تلك الأرواح، رحمة الله على تلك الأشباح، ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل:

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت بالبيداء أبعد منزل

فنحن ما نأمر إلا بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها، ولو بالجمع بين الصلاتين المجموعتين في وقت إحداهما؛ فإنه لا يرخص لأحد أن يؤخر الصلاة البتة.

فالمرء يقول: أنا إن صليت في جماعة، لن أدرك الحافلة وستغادر وتتركني، وكذا وكذا مما يقال من أعذار، ونذكر هذه القصة التي تبين رحمة الله تعالى بأولئك المكرمين، ولتكون تثبيتًا لأهل الإيمان، حتى يزداد يقينهم في الله تعالى، وحتى يحسنوا توكلهم على الله سبحانه وتعالى.

قال بعض العلماء: كنت في طريق الحج وكان أمير الحج يقف للناس كل يوم لصلاة الفجر فننزل ونصلي ثم نركب، فلما كان ذات يوم قرب طلوع الشمس ولم يقف الركب ليصلوا الفجر يقول: فناديتهم أن يقفوا ليصلي الناس الفجر، فلم يلتفتوا إلى ذلك؛ فتوضأت على المحمل ثم نزلت للصلاة على الأرض ووطنت نفسي على المشي إلى وقت نزولهم للضحى مع علمي بمشقة ذلك علي وأني لا قدرة لي عليه، يعني: سيتبعهم ماشيًا، وأجره على الله تعالى، وكانوا لا ينزلون إلا قريب وقت الظهر يعني: يصلون الفجر ثم يركبون وتأخذهم رواحلهم فلا ينزلون إلا قريب وقت الظهر، يقول: فلما قضيت صلاتي، يعني: صلى وجلس في رحمة الله تعالى، ونزلت عليه السكينة، نظرت إلى رفقتي:

فإذا هم وقوف ! وكانوا لو سئلوا ذلك لم يفعلوه، يقول: فسألتهم عن سبب وقوفهم، فقالوا: لما نزلت تعقدت مقاود الجمال بعضها في بعض ، يعني الحبال التي يقودون بها الجمال، فنحن في تخليصها إلى الآن!!

يقول: فجئت وركبت وحمدت الله تعالى عز وجل **وعلمت أنه ما قَدَّم أحد حق الله تعالى على هوى نفسه وراحتها إلا ورأى سعادة ذلك في الدنيا والآخرة**. العكس كذلك؛ فمن قدم حظ نفسه وراحتها على حق ربه سبحانه وتعالى إلا رأى الشقاوة في الدنيا والآخرة، واستشهد بقول القائل:

والله ما جئتكم زائرا إلا وجدت الأرض تطوى لي

ولا ثنيت العزم عن بابكم إلا تعثرت بأذيالي

يعني: كلما أراد أن يذهب إليهم، تطوى له الأرض ويمشي مثل الصاروخ، وإذا أراد أن يرجع وجد نفسه يتعرقل في رجليه لا يستطيع أن يسير.

كثرة الذكر من أعظم أنواع البر

ومن أعظم أنواع البر في الحج كثرة ذكر الله تعالى، وقد أمر الله تعالى بكثرة ذكره في إقامة مناسك الحج مرة بعد أخرى، وقد روي «**أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أي الحاج أفضل؟ قال: أكثرهم لله ذكرًا**»[33] خرجه الإمام أحمد وروي مرسلاً من وجوه متعددة.

وقال صلى الله عليه وسلم: «**أفضل الحج العج والثج**»[34]، وفي حديث جبير بن مطعم المرفوع: «عجوا التكبير عجا، وثجوا الإبل ثجًا» العج: رفع الصوت بالتكبير والتلبية يعني: كثرة رفع

---

(٣٣) أخرجه أحمد (٤٣٨/٣ ، رقم ١٥٦٥٢) ، والطبراني (١٨٦/٢٠ ، رقم ٤٠٧) . قال الهيثمي (٧٤/١٠) : فيه زبان بن فائد ، وهو ضعيف وقد وثق وكذلك ابن لهيعة ، وبقية رجال أحمد ثقات .

(٣٤) أخرجه الشافعي (١٠٩/١) ، والترمذي (٢٢٥/٥ ، رقم ٢٩٩٨) وقال : لا نعرفه من حديث ابن عمر إلا من حديث إبراهيم بن يزيد الخوزي المكي وقد تكلم بعض أهل الحديث في إبراهيم بن يزيد من قبل حفظه. والبيهقي (٣٣٠/٤ ، رقم ٨٤٢٠) . وأخرجه أيضًا : ابن أبي شيبة (٤٣٢/٣ ، رقم ١٥٧٠٣) ، وابن ماجه (٩٦٧/٢ ، رقم ٢٨٩٦) ، والدارقطني (٢١٧/٢) ولفظه (عن عبد اللَّه بن عمر –رضي اللَّه عنهما– أنَّ رَجلا قال لرسول اللَّه

الصوت بذكر الله تعالى تكبيرا له وتلبية له سبحانه وتعالى، والثج هو: إراقة الدماء، إراقة الهدايا والنسك والأضاحي وغير ذلك في الحج تطوعا وتقربا لله تعالى، والهدي من أفضل الأعمال قال تعالى:﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ [الحج: ٣٦] .

وقد أمر الله تبارك وتعالى بذكره جل وعلا؛ فقال: ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣٩] وقال في الحج: ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ ﴾ [البقرة: ١٩٨-١٩٩] إلى قوله: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٠٣] فوجد المرء في آيات الحج كثرة الذكر لله تعالى، وكثرة الذكر يعين على تحمل المشاق، وعلى إحسان العمل، وعلى صفاء النفس، وعلى التقرب إلى الرب سبحانه وتعالى؛ إذ ذلك مقصود الحج في نهاية الأمر.

وقال تعالى:﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج: ٣٢] ، وقد أهدى النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بمائة بدنة، وكان يبعث بالهدي إلى منى فتنحر عنه وهو مقيم بالمدينة صلى الله عليه وسلم؛ دليلا على أن أفضل الحج العج والثج .

-صلى الله عليه وسلم- : «مَنِ الحاجُّ ؟ قال : الشَّعِثُ التَّفِلُ ، قال : وأَيُّ الحجِّ أفضلُ ؟ قال : العَجُّ والثَّجُّ، قال : وما السبيلُ ؟ قال : الزَّادُ والراحِلَةُ»).

ثالثا: اجتناب أفعال الإثم

وهو قوله تعالى: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾ [البقرة: ١٩٧] ، وفي الحديث الصحيح قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**»[٣٥].

فاجتناب الآثام في رحلة الحج، هو الجزء الثاني من بر الحج الذي ينبغي أن يحافظ عليه الحاج، فما أن يخرج من بيته إلا وقد عزم على التوبة من كل المعاصي، والتنصل من كل الذنوب فيما بينه وبين الله، وأن يستحل الناس مما وقع فيه من مظالم، حتى يخرج تائبا متطهرًا ظاهرًا وباطنًا إلى الله تعالى حتى يكون جديرًا بأن يدخل على الله تعالى في بيته، ويكون أهلاً لأن يقف في تلك الأماكن التي وقف فيها النبيون والصديقون، وأن يكون أهلاً لأن يوفقه الله تعالى لهذه المناسك، ولأن يقبل الله تعالى حجه، ويتولى أمره جل وعلا.

من خرج على غير ذلك، ذهب إلى الله تعالى بالذنوب والمعاصي، كيف يدخل الفقير الحقير بذنوبه ومعاصيه على الملك الجبار؟ هذا أولى بالطرد والحرمان، وهذا حال كثير من الحآج ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والنقطة الأولى التي نشير إليها هي النهي عن الرفث والفسوق والجدال في الحج؛ فإن كان الله سبحانه وتعالى قد نهى عن الرفث والجدال والمعاصي في الأيام العادية ، ووعد أشد الوعيد بأنه من يقع في شيء من ذلك سيكون حسابه على الله تعالى شديدًا ، إلا عند الكلام عن الحج شدد الله تعالى على ذلك مرة أخرى، كما قال: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ۚ ﴾ فما الحكمة لأن يؤكد الله تعالى على هذا في أيام الحج ؟

السبب في ذلك، أنك قد ذهبت إلى بيته ، فهل تذهب إلى بيته ، ثم تعصيه في بيته ؟ ! إن كنت خارج البيت تعصيه ، لا حياء عندك، فحتى عندما تكون في بيته العتيق، تأتي بالذنوب

---

(٣٥) رواه أحمد (٤٦٢/٢ ، رقم ٩٩٤٩) ، والبخاري (٦٢٩/٢ ، رقم ١٦٨٣) ، ومسلم (٩٨٣/٢ ، رقم ١٣٤٩).

والعاصي والسيئات ؟ ! .. تأتي إلى بيته لتحاربه بها جهارًا نهارًا ، وترفع إليه هذه المعاصي في البيت ؟ ! يعني لا حياء ولا خوف ولا خشية ولا شيء مما يجب أن يكون رادعًا للمرء عن السيئات !

وقس ذلك على أعمالك وتصرّفاتك مع الناس، ولله المثل الأعلى ، فإذا كنت تتعامل مع الإنسان في غيبته فإنك قد تتكلم عليه أو أن تغتابه أو تقلل من شأنه ، أما إذا دعاك إلى بيته وذهبت إليه وأكلت طعامه ، فإذا بك تحترم المكان ، ولا ترفع عليه صوتك ، ولا تحاول أن تظهر له هذه المعاصي التي كنت تأتيها من خلفه ، فما بالك بالله تعالى !

هذه المسألة مهمة ، ينبغي أن يفهمها المرء ، ويفهم كذلك أن المعاصي تتضاعف ذنوبها في البيت ، أكثر من خارج البيت، وذلك قوله: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحج: ٢٥] .

لذلك شدد على ترك هذه الأعمال في الحج بالذات ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ لأنه في هذه الأيام وفي تلك الأماكن المكرمة ، يتضاعف ذنب المعصية، فأنت خارج البيت تأخذ بالسيئة سيئة، أما إن عصيت في بيت الله تعالى فإن السيئة تتضاعف، فليكن الحياء والخوف هو الذي يسيطر على أعمالك فلا يصعد منك في بيته ما لا يرضيه جل وعلا.

لذلك ابن عباس رضي الله عنهما ، لم يسكن مكة المكرمة ، وإنما ذهب ليسكن الطائف ، خوفًا من هذه الآية الكريمة : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحج: ٢٥] ، مجرد نية الظلم في الحرم يحاسب عليها ، أنت لا تحاسب على نية الظلم خارج الحرم ، في الحرم تحاسب عليها ، ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ مجرد الإرادة ﴿ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

والواقع الأليم الحادث اليوم ، أنك تجد معظم الحجيج عندما يرجعون من الحج، إذا أسوأ حالا مما كانوا من ذي قبل ، يقول لك: والله لقد حججت هذا العام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، رجعت إلى الدنيا والمصائب والمعاصي ، وكأنّي لم أحج ولم أفعل شيئًا ! سبب ذلك هو فقدان معاني البر ومعاني التقوى في القيام بمناسك الحج.

لذلك ننتقل إلى النقطة التالية، وهي التقوى ، كما قال تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ فما تزود حاج بأفضل من زاد التقوى، ولا دُعي للحاج عند توديعه بأفضل من التقوى ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم ودع غلامًا للحج فقال له: «**زودك الله التقوى**»(٣٦)، فوصية التقوى جامعة لخصال البر كلها .

وقال بعض السلف لمن ودعه: اتق الله فمن اتقى الله فلا وحشة عليه، وقال آخر لمن ودعه للحج: أوصيك بما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا حين ودعه: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**» (٣٧) وهذا الحديث إن حققه المرء في حجه فإنه يبر حجه، ويرجع لا ذنب له.

ولأبي الدرداء رضي الله عنه بيت من الشعر يقول:

يريد المرء أن يؤتى مناه ويأبى الله إلا ما أراد

يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفاد

ومن أعظم ما يجب على الحاج اتقاؤه من الحرام، أن يطيب نفقته في الحج، فيحذر أن تكون في نفقته نفقة خبيثة، أو في ماله شبهة، مما يمنع بر الحج ومما يحبط ثوابه، لأنك إن وضعت في مالك شيئًا حرامًا ، أو قد اختلط عليك الحلال بالشبهة ، أو غير ذلك مما كان ينبغي عليك أن تجتنبه؛ فإذا بالحج الذي حججته لا يساوي شيئًا؛ وذلك لأن الله تبارك وتعالى لا يقبل إلا طيبًا، وهو

---

(٣٦) رواه الترمذي(٥/٥٠٠ ، رقم ٣٤٤٤) وقال : حسن غريب . وصححه ابن خزيمة (٤/١٣٨ ، رقم ٢٥٣٢) ، والحاكم (٢/١٠٧ ، رقم ٢٤٧٧) ، وأخرجه الضياء (٤/٤٢١ ، رقم ١٥٩٧) وقال : إسناده حسن . ولفظه (عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – : قال : «جاء رجلٌ إلى رسولِ الله –صلى الله عليه وسلم–، فقال : إني أُرِيدُ السفر ، فزَوِّدني ، قال : زَوَّدك اللهُ التَّقوى ، قال : زِدني ، قال : وغفر ذَنبَكَ ، قال : زدني، – بأبي أنتَ وأُمِّي – قال : ويَسَّرَ لك الخير حيثما كنتَ»)

(٣٧) رواه أحمد (٥/١٥٣ ، رقم ٢١٣٩٢) ، والترمذي (٤/٣٥٥ ، رقم ١٩٨٧) وقال : حسن صحيح . والدارمي (٢/٤١٥ ، رقم ٢٧٩١) ، والحاكم (١/١٢١ ، رقم ١٧٨) وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي .

سبحانه وتعالى يعامل بمثقال الذرة ، حجك فيه مثقال ذرة من حرام لا بد وأن يحاسبك عليها: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾ [الزلزلة: ٧ ، ٨] .

وقد خرج الطبراني وغيره من حديث أبي هريرة -وإن كان فيه ضعف-: «إذا خرج الرجل حاجًّا بنفقة طيبة ووضع رجله في الغرز، فنادى: لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء: لبيك وسعديك، زادك حلال وراحلتك حلال وحجك مبرور غير مأزور، وإذا خرج الرجل بالنفقة الخبيثة فيضع رجله في الغرز فنادى: لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء: لا لبيك ولا سعديك زادك حرام ونفقتك حرام وحجك غير مبرور».(٣٨)

وهناك الكثير من القصص التي تدل على ذلك، ذُكر منها: أن رجلا مات في طريق مكة وهو ذاهب إلى الحج فحفروا له فدفنوه، ونسوا الفأس في لحده؛ فكشفوا عنه التراب ليأخذوا الفأس فإذا رأسه وعنقه قد جمعًا في حلقة الفأس، ولا حول ولا قوة إلا بالله فردوا عليه التراب، ورجعوا إلى أهله فسألوهم عنه؛ فقالوا: صحب رجلاً فأخذ ماله، فكان منه يحج ويغزو.

فمع أنه يحج ويغزو إلا أن هذا المال أصله حرام، لما فتحوا عليه القبر مرة أخرى وجدوه في هذه الحالة السيئة وقد جمعت يداه ورأسه في حلقة الفأس، على هيئة الذين يعذبون بالأغلال، لذلك قال القائل :

إذا حججت بمال أصله سحت فما حججت ولكن حجت العير
لا يقبل الله إلا كل طيبة لا كل من حج بيت الله مبرور

---

(٣٨) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٥١/٥ ، رقم ٥٢٢٨) قال الهيثمي (٢٩٢/١٠) : فيه سليمان بن داود اليمامي، وهو ضعيف . وأخرجه أيضًا : البزار كما في كشف الأستار (٦/٢ ، رقم ١٠٧٩) .. ولفظه (إذا خرج الحاجُّ حاجًّا بنفقةٍ طيبةٍ ووضع رجلَه في الغَرْزِ فنادى لبيك ناداه منادٍ من السماءِ لبيك وسعديك زادُك حلالٌ وراحلتُك حلالٌ وحجُّك مبرورٌ غيرُ مأزورٍ وإذا خرج بالنفقة الخبيثة فوضع رجلَه في الغرز فنادى لبيك ناداه مَلَكٌ من السماءِ لا لبيك ولا سعديك زادُك حرامٌ ونفقتُك حرام وحجُّك غيرُ مبرورٍ)

فيحرص الحاج أن تكون نفقته وزاده من حلال ويتحرى ذلك التحري التام، وألا يضع فيه شبهة ولا مكروهًا ولا حرامًا من الأموال، وأن يستحسن الأموال الحسنة فيضعها في حجه يريد بذلك رحمة الله تعالى ومغفرته.

ترك مظاهر الفخر والمباهاة والرياء

أنت تريد أن يُغفر لك، أليس كذلك؟ هل تذهب على المباهاة والفخر والخيلاء ومناظر ليغفر لك؟ الله سبحانه تعالى عند المنكسرة قلوبهم لأجله، المتواضعين له، المخبتين له جل وعلا.

معظم الناس اليوم، إلا من رحم الله تعالى، على غير هذا؛ فيتحرك في قلبه شيء من الرياء والمباهاة، بأنه قد حج وذهب إلى بيت الله الحرام، وأنه زار النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإذا تكلم رأيته يقول: لقد كنا في الحج في كذا وفي منى في كذا وفي عرفات في كذا، وكأنه يُظهر أنه قد فعل وذهب وحج وأنه كذا وكذا مما يبين الرياء في فعله والسُمعة في قوله، وأنه يريد بذلك الاشتهار عند الناس، لا يريد بذلك وجه الله تعالى ولا رضوانه.

ومعنى التواضع والاستكانة من المعاني الظاهرة في آيات الحج ، يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الحج : ٣٤ - ٣٥] ، وقد جاءت هذه الآيات في منتصف الكلام عن الحج وشعائره ومناسكه، فقال: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾، والإخبات : التواضع الانكسار ، وفيه كل ما فيه معاني الذلة لله تعالى.

وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : (**اللهم اجعلها حجة مبرورة لا رياء فيها ولا سمعة**) [٣٩].

(٣٩) رواه الإمام ابن ماجه في سننه (٢٨٩٠) كتاب المناسك ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢٣٥٥).

وقال عبد الله بن الحارث : ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم رحلا فاهتز به ، فتواضع لله عز وجل وقال : (لبيك لا عيش إلا عيش الآخرة) [٤٠]،فكأنه صلى الله عليه وسلم يلتفت عن هذه الدنيا كما أمره الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه : ١٣١].

لذلك ينبغي أن تكون هذه شعار الحاج: (لبيك لا عيش إلا عيش الآخرة)، **كلما رأى الحاج منظرا من مناظر الدنيا وزينتها وزهرتها وزخرفها، في الناس ، في المال، في البيوت في المساكن ، في المراكب، في كذا في كذا ، قال : (لبيك لا عيش إلا عيش الآخرة)** فيثبت قلبه على محبة الآخرة وعلى ألا يهمه الدنيا وزينتها وزهرتها ولا شيء منها.

قال بعض التابعين: رب محرم يقول: لبيك اللهم لبيك؛ فيقول المولى له سبحانه وتعالى: لا لبيك ولا سعديك هذا مردود عليك. قيل له: لماذا؟ قال: لعله اشترى ناقة بخمسمائة درهم، ورَحْلا بمائتين درهم، ومفرشا بكذا وكذا، ثم ركب ناقته ورَجَّل رأسه، ونظر في عطفيه، يعني نظر للهيئة الجميلة التي هو عليها، فذلك الذي يرد.

وكأنه يرى أحوال الناس اليوم ! وأنه يؤجر طائرة بكذا ثم يشتري لبسًا وأكلاً وشربًا، ويقيم في الفنادق والمناظر والمفارش، واشترى ملابس بكذا وأكلًا بكذا وكذا؛ فما تزودوا للحج بزاد التقوى، وإنما تزودوا بزاد الدنيا من أكلها وشربها ولبسها وهيئتها وغير ذلك مما يرجع به الحاج ليس كما ولدته أمه[٤١]، بل يرجع وقد زادت سيئاته بما حصَّل هنالك من بقية السيئات التي يرتكبها الحجيج في أخلاقهم السيئة، وفي جهلهم بالمناسك، وفي جهلهم على الناس، وغير ذلك.

فالحجيج في حجهم ليس عليهم سمت الخشوع ولا روح التواضع ولا هيئة الاستكانة لله تعالى، وإنما تراهم في خوضهم وفي لعبهم وفي كلامهم وفي سَرفهم وأكلهم وشربهم ولا يظهر عليهم

---

(٤٠) رواه البخاري (٣٧٩٥) كتاب المناقب.

(٤١) رواه أحمد (٢/٤٦٢ ، رقم ٩٩٤٩) ، والبخاري (٢/٦٢٩ ، رقم ١٦٨٣) ، ومسلم (٢/٩٨٣ ، رقم ١٣٤٩).

استكانة ولا تواضعًا ولا خشوعًا، وإنما رؤية النفس والعجب بالمال وما يتقلبون فيه من الأحوال التي نراها من حج الناس اليوم.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : «**أنه حج على رحل رثّ وقطيفة لا تساوي أربعة دراهم وقال: اللهم اجعلها حجة لا رياء فيها ولا سمعة**» [٤٢] ، وانظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره، يحج على رحل رث، والرحل :ما يوضع فوق الناقة ، وبالٍ يعني قديم، وقطيفة يعني قطعة قماش، لا تساوي أربعة دراهم!

وهي حجة لا رياء فيها ولا سمعة، ولا شك! أين الرياء وأين السمعة وهو الرسول صلى الله عليه وسلم؟ وذلك ليتعلم أهل الإيمان أن يتواضعوا لله تعالى، وأن يخرجوا عن رؤية النفس، وهذه الأحوال السيئة. أمثالنا اليوم يستنكف ويتوجع إن لبس شيئًا رثًا أو قديمًا أو مخيطًا أو متقطعًا أو حتى "غير مكوي"، ويرون أن الناس يرونهم فلا بد أن يكونوا على الهيئة الحسنة وعلى المظهر التام، ولو رأى في شعره شيئًا مُعوجًا يقف ويسرحه في المسجد، ويسرح لحيته وينظر إلى جلبابه ويشد فيه كذا ويفعل كذا وكذا من الأحوال التي نراها اليوم.

لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الحاج الشعث التفل»[٤٣]، والتفل يعني الذي تغيرت رائحته ، فترك الرائحة الجميلة حتى تغيرت رائحته، وذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم في

---

(٤٢) أخرجه هناد (٤١٩/٢ ، رقم ٨٢١) ، وابن ماجه (٩٦٥/٢ ، رقم ٢٨٩٠) قال البوصيري (١٨٢/٣) : إسناده ضعيف . وأخرجه أيضًا : ابن أبي شيبة (٤٤٢/٣ ، رقم ١٥٨٠٥) .

(٤٣) أخرجه الشافعي (١٠٩/١) ، والترمذي (٢٢٥/٥ ، رقم ٢٩٩٨) وقال : لا نعرفه من حديث ابن عمر إلا من حديث إبراهيم بن يزيد الخوزي المكي وقد تكلم بعض أهل الحديث في إبراهيم بن يزيد من قبل حفظه. والبيهقي (٣٣٠/٤ ، رقم ٨٤٢٠) . وأخرجه أيضًا : ابن أبي شيبة (٤٣٢/٣ ، رقم ١٥٧٠٣) ، وابن ماجه (٩٦٧/٢ ، رقم ٢٨٩٦) ، والدارقطني (٢١٧/٢) ولفظه (عن عبد اللّه بن عمر –رضي اللّه عنهما– أنَّ رَجلا قال لرسول اللّه –صلى الله عليه وسلم– : «مَنِ الحاجُّ ؟ قال : الشَّعِثُ التَّفِلُ ، قال : وأَيُّ الحجِّ أفضلُ ؟ قال : العَجُّ والثَّجُّ، قال : وما السبيلُ ؟ قال : الزَّادُ والراحِلَةُ»).

الصيام: (**لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**) [٤٤]، والخلوف هو الرائحة الكريهة المستكرهة في مشم الناس، إذا بها أطيب عند الله تعالى.

وانظر إلينا اليوم لا أظن أن أحدا يفكر في أن يكون على حالة مرضية عند الله تعالى، وأن يكون مقبولا عند الله تعالى، وهي الأحوال التي ينبغي أن نخرج فيها عن العوائد والمألوفات وعن نظر الناس ورؤيتهم، ليكون ذلك أقرب إلى الخشوع وأدعى إلى التواضع والاستكانة لله تعالى، وليكون نظر الله تعالى هو الأولى عندك، والأحق بالرعاية والاهتمام؛ لأن نظر الله تعالى إليك في الأولى والآخرة هو رحمتك وهو مغفرتك ونعيمك وسرور قلبك، وهو كذلك تحصيل نجاتك في الأولى والآخرة.

وهذا هو ما طبقة الصحابة رضوان الله عليهم، كان عمر رضي الله عنه يحج حجة لا تتكلف إلا ستة عشر درهما !! وانظر إلى حال الناس اليوم، في الطائرات والفنادق والكبسة والمشروبات الغريبة والمأكولات الغريبة، وما نسمع من الحكايات العجيبة!!

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن ربه صفة هؤلاء المقبولين في حديث المباهاة يوم عرفة، الذي يباهي المولى سبحانه وتعالى فيه ملائكته بهؤلاء الحجيج يقول لملائكته : (**انظروا عبادي أتوني شعثا غبرا ضاحين ، اشهدوا أني قد غفرت لهم**) [٤٥].

والمراد من قوله: شعثا غبرا ضاحين ، يعني غير مهندمين ، فالغُبر هو التراب وترك النظافة ، والشُعث هو ترك الهيئة الحسنة ، وضاحين يعني: ذاهبون إليه في الشمس لا يستظلون ، يرجون بوقوفهم لله تعالى أن يغفر لهم سبحانه وتعالى، ، كما قال ابن عمر : عندما وجد رجلا يقف مستظلا فقال له : اضح إلى ربك، يعني اطلع في الشمس إلى الله تعالى ليغفر لك في هذه الأيام التي ترجى فيها المغفرة، إن رآك المولى سبحانه وتعالى على ذلك يقول: « **أشهدكم أني قد غفرت لهم**»[٤٦].

---

(٤٤) رواه البخاري (١٩٠٤) كتاب الصوم ، باب هل يقول إني صائم إذا شتم ، ومسلم (١١٥١) كتاب الصيام ، باب فضل الصيام .

(٤٥) أورده الإمام المنذري في الترغيب والترهيب (١٩٢/٢) وقال : إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما

(٤٦) سبق تخريجه.

قال عمر يومًا وهو بطريق مكة: تشعثون وتغبرون وتتفلون وتضحون لا تريدون بذلك شيئا من عرض الدنيا؟ لا نعلم سفرًا خيرًا من هذا، إذا كنتم تريدون بذلك وجه الله تعالى والدار الآخرة، لا تريدون بذلك شيئًا من عرض الدنيا، فنعم السفر هذا، أتعب نفسه وترك هيئته وتغيرت رائحته واغبر شعره وملابسه، كل ذلك ليحصل ما قال المولى سبحانه وتعالى: «**أشهدكم أني قد غفرت لهم**»[٤٧].

فكأن المغفرة مترتبة على أن يتعب المرء نفسه لله ، ويخرج عن مألوفاته وعن راحته وعن منظره وهيئته ، وأن يتحمل التعب والغبار ، وترك الهيئة لله تعالى ، كل ذلك إن عمله على هذه النية الحسنة، وهو يوم واحد ، عندما تقف فيه في الشمس لن يحدث شيء ، إن حصلت مغفرة الله تعالى، فقد فزت فوزا عظيما ، وإن مت على المغفرة فقد متَّ عند أَجَلك.

فما ارتفعت مرتبتهم عند الله تعالى إلا بسخاوة النفس في الأخلاق والمال والوقت والجهد، وعلموا أن ذلك كله لا يضيع منه شيء كما ذكر الله تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

التواضع والاستكانة والانكسار لله تعالى

بمعنى أن المرء عليه أن يعلم أنه واحد من ضيوف الله تعالى، وأنه لا مزية له ولا فارق بينه وبين غيره ممن يرى وإنما هو مثلهم وككلهم جميعًا لا يتميز عنهم بشيء، ولا يزيد عنهم بشيء، وبالتالي يجب عليه عندما يكون في مناسكه أن ينظر لهؤلاء القوم جميعًا ما ينظر لنفسه على أقل تقدير.

إن هؤلاء الحجيج صاروا ضيوفًا على الله تعالى في بيته، وهؤلاء الضيوف قد دعاهم الله جميعًا لا فرق بين صغير وكبير وحقير وعظيم ووزير وغفير وملك وغيره كلهم سواء. فالله تبارك وتعالى

---

(٤٧) سبق تخريجه.

قد نادى أناسًا قبله وأتوا قبله، وحضروا بيت الله تعالى وأخذوا من ضيافة الله تعالى ما شاء الله لهم، حينئذ يظن في نفسه أنه أقل هذا الوفد وأحقرهم وأقلهم، وأنه لابد أن يكون في بيت ربه متعظًا بهذه الموعظة ألا يتكبر على ضيوف الله تعالى ولا يحتقر أحدًا منهم ولا ينظر لأحد منهم بعين السخرية، ولا يدفع أحدهم أو ينفعل عليه أو يعامل أحدهم بغلظة، فكلهم ضيوف ربه - سبحانه وتعالى – قد لزمه حينئذ أن يتواضع لهم، وأن يعاملهم ببذل الندى وكف الأذى وتحمل الأذى.

أنت في حضرة الله تعالى ومن مجمل ضيوفه وفي بيته وهو ناظر إليك فلا ينبغي أن يخرج منك تكبر على ضيوفه، هم ضيوفه الذين دعاهم كيف تتكبر عليهم؟ كيف تؤذيهم؟ كيف لا تتحمل منهم الأذى لأنك في ضيافة ربك - سبحانه وتعالى – فمهما فعلوا فيك أنت تنظر إلى ربك ولا تريد أن تعاملهم بالمعاملة السيئة، ولا أن تخشن في معاملتك معهم، ولا أن تدفع أحدهم ولا أن تسب أحدهم ولا أن تتطاول على أحدهم، بل أن تبذل لهم نداك وأن تتواضع لهم وأن تخفض لهم الجناح، وينبغي أن يكون الجميع على هذا الحال.

قد ألزمك حتى يكون حجك مبرورًا أن تكون معهم على هذا الحال وهذه الأخلاق الحسنة التي ينبغي أن يتعامل بها من زار بيت الله تعالى من أعمال البر، ولو أن تلقى أخاك المسلم فتسلم عليه، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منطلق إليه ولو أن تفرغ إليه من دلوك في إناء المستسقي ولو أن تعطي شسع النعل ولو أن تعطي صلة الحبل ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض [٤٨].

---

(٤٨) أخرجه أبو داود (٤/٥٦ ، رقم ٤٠٨٤) والترمذي مختصرًا (٤/ ٣٧٤ ، رقم ١٩٧٠) ، وقال: حديث حسن، وأخرجه أحمد (٣/٤٨٢ ، رقم ١٥٩٩٧)، وصححه ابن حبان (٢/٢٨١ ، رقم ٥٢٢)، ولفظ أحمد (عَنْ أَبِي تَمِيمَةَ الْهُجَيْمِيِّ عَنْ رَجُلٍ مِنْ قَوْمِهِ قَالَ: لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ وَعَلَيْهِ إِزَارٌ مِنْ قُطْنٍ مُنْتَثِرُ الْحَاشِيَةِ فَقُلْتُ عَلَيْكَ السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ إِنَّ عَلَيْكَ السَّلَامَ تَحِيَّةُ الْمَوْتَى إِنَّ عَلَيْكَ السَّلَامَ تَحِيَّةُ الْمَوْتَى إِنَّ عَلَيْكَ السَّلَامَ تَحِيَّةُ الْمَوْتَى سَلَامٌ عَلَيْكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا هَكَذَا قَالَ سَأَلْتُ عَنْ الْإِزَارِ فَقُلْتُ أَيْنَ أَتَّزِرُ فَأَقْنَعَ ظَهْرَهُ بِعَظْمِ سَاقِهِ وَقَالَ هَاهُنَا اتَّزِرْ فَإِنْ أَبَيْتَ فَهَاهُنَا أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ فَإِنْ أَبَيْتَ فَهَاهُنَا فَوْقَ الْكَعْبَيْنِ فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ قَالَ وَسَأَلْتُهُ عَنْ الْمَعْرُوفِ فَقَالَ لَا تَحْقِرَنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ صِلَةَ الْحَبْلِ وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ شِسْعَ النَّعْلِ وَلَوْ أَنْ تَنْزِعَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي وَلَوْ أَنْ تُنَحِّيَ

لا ترد الأذى بالأذى فأنت في حضرة الله تعالى، بل قد أمرك أن تكون مكرمًا لضيوفه باذلاً نداك غير بخيل عليهم بشيء مما ينبغي أن يكون، قد تعلمت حينئذ أن تتواضع وأن ينخفض جناحك وأن تبذل نداك وأن تكف أذاك وأن تعلم أن الجميع كذلك؛ لأنه أحرى أن يكون ضيوف الله تعالى على هذا الحال الحسن،

فإن خرج من بيته بعد ذلك كان على نفس الحال من البر، فقد أتيت بيت الله لتتزود زاد التقوى، قد أتيت بيت الله تعالى، تنتظر بهذه الأعمال التي قد أتيتها في بيته جائزتك في الآخرة رؤية الرب تبارك وتعالى فإن زيارة البيت تمهيد لرؤية رب البيت في الميعاد المضروب يوم يقوم الأشهاد لذلك تعلم المرء هذا الحال ورجع به متواضعًا منكسرًا لأهل الإيمان.

قد علمت أنك واحد ضعيف لا قيمة لك في بقية أضياف الله تعالى التي لا حصر لها، ومع ذلك علمت أن الله يسمعك وينظر إليك ودعاك واجتباك واصطفاك؛ لتحمل ذلك ولوهبك وإعطائك فتعلمت كيف تكون متواضعًا تعلم أنك أقل ضيوف هذا الملك سبحانه وتعالى وأنك لما رأيت هؤلاء العصاة وهم في بيته علمت أنك يمكن أن تكون مثلهم، وعلمت أنهم قد يكونون - بل ظنك ذلك – **أنهم أفضل منك؛ لأنك لا تدري خاتمتك عند الله تعالى، فالأمور مغيبة والخاتمة غير معلومة،** ويسبق الكتاب على أهل النار فيعملون بعمل أهل الجنة فيدخلونها ويسبق الكتاب على من يعمل بعمل أهل الجنة فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، فأنت على خوف في حياتك كلها من تلك الخاتمة التي قد غيبها الله تعالى حتى يتنافس الناس وحتى يتضرعوا وحتى يتمسكنوا وحتى يخشعوا لله جل وعلا.

لا ترى نفسك أفضل من أحد لا ترى نفسك متكبرًا على أحد ولا ترى نفسك معجبًا بشيء قد وجدت نفسك نقطة ضعيفة في مجموع هذا الخضم الهائل الذي يزور بيت الله تعالى منذ طافه الطائفون إلى يوم القيامة، ماذا تساوي أيها المسكين ؟

الشَّيْءَ مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ يُؤْذِيهِمْ وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْطَلِقٌ وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِ وَلَوْ أَنْ تُؤْنِسَ الْوَحْشَانَ فِي الْأَرْضِ وَإِنْ سَبَّكَ رَجُلٌ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ فِيكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ فِيهِ نَحْوَهُ فَلَا تَسُبَّهُ فَيَكُونَ أَجْرُهُ لَكَ وَوِزْرُهُ عَلَيْهِ وَمَا سَرَّ أُذُنَكَ أَنْ تَسْمَعَهُ فَاعْمَلْ بِهِ وَمَا سَاءَ).

عدم الانشغال بغير الله تعالى

وهو المعنى التالي ، فإن على هذا الضيف الذي قد أتى بيت ربه أن يكون على حال الانشغال بربه سبحانه وتعالى، بصاحب البيت، بالملك الذي قد دعاك لبيته، لا ينبغي أبدًا لهذا المملوك العبد الفقير إذا حضر إلى بيت الله تعالى أن ينشغل بغير الملك، وإنه شيء من سوء الأدب وقلة الحياء من الله تعالى - وقل ما شئت من هذه الأوصاف السيئة - **أن يجلس المرء في حضرة الملك وهو يلتفت يمينًا وشمالاً لخلق الملك، ينظر إلى هذا وينظر إلى هذا وينشغل قلبه بهذا وبتلك وبكذا وبكذا، وأسوأ من ذلك أن ينشغل بأمور الدنيا وما عليها.** أنت قد أتيت إلى بيت الملك إذن يكون لك هم واحد هو هم الانشغال بالملك سبحانه وتعالى الذي سيكافئك ويكرمك بأنواع الكرم الذي يكرم به عبيده سبحانه وتعالى الآتين إليه المتقربين إليه، ويعطيك جائزتك وترجع به مسرورًا مجبورًا قد جبرك كسرك وأعطاك من فضله وغفر ذنبك وأخلف نفقتك وغير ذلك مما لا يكثر على الله تعالى، إذن قد أتيت لكي تكون منشغلاً به واقفًا قلبك وجوارحك عليه سبحانه وتعالى لا تنشغل بغيره ولا تنظر إلى غيره ولا يحدثك قلبك بغيره، ولا يكون لك هم إلا أن تقبل عليه سبحانه وتعالى وهذا الانشغال الذي ينبغي أن يكون عليه قلب المؤمن وجوارحه إن كان هنالك في بيت ربه إذ يتعلم ذلك ويجاهد نفسه عليه: أن يكون نظره متوجهًا إلى ربه، سمعه متوجهًا إلى ربه قلبه متوجهًا إلى ربه عمله متوجهًا إلى ربه سبحانه وتعالى.

ينشأ من ذلك تلك الحال التي ذكرها النبي –صلى الله عليه وسلم- وهي أن تعبد الله كأنك تراه، وهي درجة الإحسان فإن لم تكن تراه فإنه يراك(٤٩).

ومعنى ذلك أن في بيته **قد أدبت جوارحك وقلبك على ألا تشتغل بغيره سبحانه وتعالى وألا تنظر لغيره وألا تسمع غيره وألا يوسوس قلبك بشيء إلا بخواطر الإيمان والإقبال عليه سبحانه وتعالى** والتحدث بما ينبغي أن تكون عليه من أعمال الخير والإقبال على الله تعالى، ذلك يعلمك حينئذ كأنك تراه أنت في حضرة الملك ناظر إليه في بيته مؤتمر بأمره غير منشغل بغيره سبحانه وتعالى وهذا هو الحال الذي

---

(٤٩) أخرجه البخاري (١/٢٧ ، رقم ٥٠) ، ومسلم (١/٣٩ ، رقم ٩) ولفظه (فأخبرني عن الإحسان ، قال : «أن تعبدَ اللهَ كأنك تراه ، فإن لم تكن تَراه ، فإنه يَراكَ»).

إن عودت نفسك عليه في حرم الله تعالى في بيت الله تعالى يوشك أن تكون كذلك إذا خرجت من بيته، متأدب الجوارح قد كف لسانك وبصرك وسمعك ويدك ورجلك وكل ذلك عما نهى عنه سبحانه وتعالى أن يكون كل ذلك قد توجه واشتغل بما يرضيه سبحانه وتعالى وبما يكون سبب رضائه عنك وبما يكون سبب إعطائه إياك ومنحه ووهبه لك ما لا يخطر لك على بال.

وهذه مسألة من أهم المسائل التي ينبغي أن يتعلمها المرء، حال كونه في بيت الله تعالى حتى لا يكون حاله على انشغال القلب والجوارح واللسان والنظر والسمع والوسوسة مما لا ينبغي أبدًا بالمرء المؤمن وهو في حضرة الملك . ترى لو كنت في حضرة أبيك أو عالم أو غير ذلك، وأخذت في الالتفات يمنة ويسرة، وتكلم هذا وتكلم هذا، وقلبك هنا وهناك، غير متوجه إلى ذلك الذي تحدثه وتعظمه وتقبل عليه في مجلسه، انظر إليه كيف يكون رده عليك وكيف يكون إعطاؤه إياك؟

ينبغي أن يعود المرء نفسه على ذلك من اليوم حتى إذا حضر بيت الله تعالى أقبل عليه فعظمت جائزته من الله تعالى ووهبه له وعظم إعطاؤه وجزيل ثوابه له فإذا عاد كان كما قال الحديث : (**رجع كيوم ولدته أمه**)(٥٠) حقًّا ولذلك إذا رأى الرائي ونظر الناظر لماذا لا يعود كما ولدته أمه؟ لأنه ذهب على الحال السيئ، وبقي في بيت الملك على تلك الحال، ثم يحصل له فيه ما يكون سبب رجوعه أبيض كالصفا كيوم ولدته أمه لا سيئة له، له صفحة بيضاء يقال له: اعمل فيما يستقبل فقد غفر لك ما مضى.

إن هؤلاء الحجيج أتوا إلى بيته لكي يتسابقوا جميعًا في أيهم يكون أقرب إلى الملك الأحب إليه، الأسمع والأطوع له سبحانه وتعالى. لم يجيئوا لكي يقصروا ويفرطوا - حتى في بيته - فيما يكون سبب نجاتهم وسعادتهم عندما يعودوا من بيت الملك وعندما يقابلوا الملك يوم القيامة، وإنما جاءوا ليتسابقوا جميعًا.

لماذا جمعهم؟ جمعهم جميعًا ليكون التسابق همهم جميعًا والمنافسة دأبهم وشأنهم لا المنافسة على الأكل والشرب والكلام والمزاح وتضييع الوقت في حضرة الملك! لم يكن ذلك ولا يكون

---

(٥٠) أخرجه البخاري (٢/٥٥٣ ، رقم ١٤٤٩) ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ).

وما ينبغي أن يكون كذلك، وإنما دأب المؤمنين الحذرين الذين يأخذون حذرهم ويستيقظون لآخرتهم أنهم قد أتوا للمسابقة ليكونوا هم الأقرب إليه هم الأطوع له هم الأقوم هم الأذكر هم الأكثر صلاة وصدقة وبذلاً وتحملاً هم الأكثر لله تبارك وتعالى في المسابقة في كل أنواع الخيرات التي هي المقربة إليهم إلى الله تعالى.

همه إذن المنافسة ، عندما اطلع الله تعالى عليه فوجده متنافسًا ليكون هو الأقرب إليه، رزقه تلك المنافسة عندما يعود إلى بيته وأهله فإذا به يسارع غيره وينافس المؤمنين في أن يكون كذلك، انقلبت أحواله إذن، بدأ الصفحة البيضاء مع الله حال عودته، وإذا بهذه الصفحة تملأ بأسرع ما يكون الملء من تلك المنافسة على ذلك، ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦] فعودوا أنفسهم وروضوها وربوها على أن تكون حال رجوعهم على ذلك المطلب من الله تعالى ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] إلى آخر هذه الآيات التي أمر الله تعالى بها.

إذا حصل المؤمنون ذلك لا شك أنهم إن عادوا، عادوا على هذه الأخلاق الحميدة الحسنة وعلى هذه المعاملات الحسنة وعلى هذه المراقبة والمشاهدة الحسنة وعلى هذه الطاعات الحسنة التي لما حصلوها هنالك كانت ذخرهم وكانت ما جمعوه في تلك الأيام ليكون ذلك عونهم ومددهم الذي به يسيرون إلى أن يأتيهم موسم آخر من مواسم الحق سبحانه وتعالى ليتزودوا فيه زادًا جديدًا يستكملون به السير إلى الله تصح به قلوبهم وأبدانهم وجوارحهم ومعاملاتهم وتقوى به هذه الأفئدة على متابعة السير وعدم الرجوع أو التقهقر مرة أخرى عن طريق الله تعالى.

رؤية النفس وقلة الإخلاص

وهي مما ينبغي أن يتنبه له أهل الإيمان وهو: كيف يكونون مخلصين فيما ذكرنا؟ فهم لا يفعلون شيئًا من ذلك حتى يُرد لهم في الدنيا، ولكن ليكون ذخرًا لهم في الآخرة إخلاصًا لله تعالى، ومحبة له جل وعلا في عمل الخير، وتسابقًا فيه - كما ذكر المولى ﷻ في قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] .

قال رجل لابن عمر رضي الله عنهما : ما أكثر الحاج ، وهو ما يقال في أيامنا، الحجيج كثير هذا العام مليونان أو ثلاثة ملايين ، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: ما أقله ! إنهم قليل ، ثم رأى رجلا على رحل رث، خطامه حبل، فذكره بالنبي صلى الله عليه وسلم وحبله ، فقال : لعله هذا ، يعني يمكن أن يكون هذا فقط هو الحاج! فقال شُريح : الركبان كثير والحاج قليل، ما أكثر من يعمل الخير ، ولكن ما أقل الذي يريدون وجه الله تعالى، ثم أنشد:

خليلي قطاع الفيافي إلى الحمى كثير وأما الواصلون قليل

وجوه عليها أهل القبول علامة وليس على كل الوجوه قبول

وهناك قصة تؤكد هذا المعنى، أن الوافد كثير ، وأن القليل من هؤلاء هم الذين يريدون وجه الله ويعملون على الإخلاص، تقول القصة : كان بعض المتقدمين يحج ماشيا على قدميه كل عام ، فكان ليلة نائما في فراشه ، فطلبت منه أمه شربة ماء ، فصعب على نفسه القيام من فراشه ، فتذكر حجه ماشيا كل عام ، وأن أمه تريد شربة ماء ولا يستطيع أن يعطيها ، فحاسب نفسه فرأى أنه لا يُهون عليه الحج ماشيا وما فيه من تعب ومشقة إلا رؤية الناس له ومدحهم وثنائهم عليه ! فعلم أنه كان مدخولا ، يعني نيته فيها شيء لغير الله تعالى؛ فلعله تاب.

وهذا مما يحاسب به المرء نفسه ؛ ليعلم إخلاصه لله تعالى ، فإن كان بين الناس فهو في العبادة والاجتهاد والعمل الصالح ، والأدب والأخلاق العالية ، ثم إذا كان بينه وبين نفسه يظهر على حقيقته ، فلا قيام ولا ذكر ولا صيام ، والغفلة والشهوات والميل إلى النوم والميل والسكون ، وهذا ليس من الإخلاص بل من عدمه !

والمعنى التالي يبين الإخلاص في توحيد الله، وهو في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٤] يعني جعلنا لكل أمة منسكا يدل على توحيد الله تعالى في تقديمهم القرابين والهدايا والذبائح إلى الله تعالى، ولن ينال الله تعالى منها دماء ولا لحوم، كما قال: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ ولكن يصل إلى الله تبارك وتعالى منكم الامتثال لأوامره والاجتناب لنواهيه، وما جعلت هذه المناسك إلا لتكون دليلا على توحيد الله تعالى في الذبح له والإهداء له ودليلا على توحيد الرب ﷻ في أن يتقدم المرء بكل أعماله وأقواله يرجو بها رحمة الله

تعالى، وأن يتقدم بأعماله كلها لله تبارك وتعالى مخلصا لربه فيها مسلما وجهه إلى الله جل وعلا، لا يريد بذلك رياء ولا سمعة ولا مباهاة، أما وأنهم قد أتوا إليه متكبرين يرون أنفسهم وينظرون إليها بعين التكبر والتعالي والعجب، ويرون أنهم قد فعلوا ويفعلون وغير ذلك مما نراه من عدم الإخبات ورؤية النفس والكبر وعدم التواضع لله جل وعلا، فماذا ينتظرون بعد ذلك؟

إذن فليحقق كلٌ الإخلاص في نفسه اليوم، قبل أن يذهب إلى هنالك، وحتى يستطيع ذلك فلا بد أن يجاهد نفسه عليه حتى إذا ذهب إلى بيت ربه كان قد روض نفسه وتمرن علي أخلاق الإخلاص ليكون طريقًا لبر حجه وليكون عوده حميدًا عند الله تعالى يقول له الملك وقد وضع يده بين كتفيه: «**اعمل فيما تستقبل فقد غفر لك ما قد مضى**»[٥١].

---

(٥١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣ /٢٧٧)، وقال رجاله موثقون.

الفصل الثالث

مشاهد الحج

ومشاهد الحج هي المشاهد التي ينبغي أن تهل على قلب المرء سواء كان حاجا أو معتمرا عندما يذهب إلى ربه سبحانه وتعالى في بيته ، ليعيش في معانيها، ويستنشق عبقها وشذاها، ولتكون زاده الذي يتزود به في رحلته إلى الله تعالى، ليكون حجه على هيئة حج أهل الآخرة.

وذلك لأن كل مشهد من مشاهد الحجّ -كما يقول العلماء- يذكر بمشهد من مشاهد الآخرة، فيذكر المرء به، ويفهمه معناه؛ ليكون كل أعمال الآخرة وكل سلوك طريقها على باله وقلبه، يتحرك من خلالها؛ ليتم حجه، وليقبل على ربه، وليعود مقبولا عند الله تعالى، قد غفر له ما تقدم من ذنبه.

فهذه المشاهد من الأمور المهمة جدا؛ لأنها أعمال القلب في رحلة الحج. فأعمال الجوارح الظاهرة: أن يلبي المرء، وأن يطوف ، وأن يسعى، وأن يذهب إلى عرفات، وأن يرمي الجمرات، هذه الأعمال الظاهرة. أما الأعمال والآداب الباطنة فهي ما ينبغي أن تقوم به الرحلة على أصولها الصحيحة، التي أراد الله لها، والتي كان عليها النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه والتابعون الكرام، والمدخل المهم لذلك هو: الفهم لقضية الحج، وهو من أهم الأمور التي ينبغي على المؤمن أن يعرفها.

مدخل الفهم لقضية الحج: مشهد التجرد لله تعالى

بعد أن بنى إبراهيم البيت، وأذَّن في الناس بالحج، وجاء الناس إلى البيت، وأقاموا فيه توحيد الله وذكره إلى ما شاء الله تعالى، ثم اندثر طريق الآخرة، فبعدما عَمُرَ البيت هذه الفترة الطويلة، انقلبت أحوال الدنيا وجاء الشرك والأوثان، وجاءت عبادة الأصنام وهجر الناس طريق الآخرة، واتخذ المتقون من الأمم السابقة قمم الجبال ليعبدوا الله تعالى، بعيدًا عن هذه الأوثان، ويجاهدون أنفسهم على ترك الشهوات والملذات؛ طلبا للآخرة.

وظل الأمر على هذا الحال إلى أن بعث الله النبي ﷺ ليجدد للناس طريق الآخرة، ومن طريق الآخرة الذي يجدده لهم ﷺ ، تلك المناسك من مناسك الحجّ، من الإحرام والتلبية، والطواف والسعي ، وزيارة البيت ، وتجديد الشوق إلى الله تعالى، وإظهار الامتثال لأمره وطاعته، وبذل النفس في سبيل الوصول إليه.

وطريق الآخرة عنوانه: هجر الشهوات، وترك الملذات، والاقتصار على الضرورات، والتجرد في الحركات والسكنات لربِّ الأرض والسماوات ، طلاب الآخرة هذا هو طريقهم.

وقد جاء النبي ﷺ ليجدد هذا الطريق، وهو طريق الأنبياء من قبله -صلوات الله وسلامه عليهم- فبيَّنَ للمؤمنين كيفية التجرد لله تعالى، والمحبة له، وهجر الشهوات والتقلل من الملذات، فمنذ وصل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ما شبع من خبز بُر يومين متتاليين، وكان يمر عليه الهلال والهلال والهلال لا يوقد في بيته نار، وإنما هما الأسودان الماء والتمر [٥٢].

وكذلك الاقتصار على الضرورات، والاستعداد للقاء الله تعالى ؛ لأن ذلك كله يفرغ القلب حينئذ في الحركات والسكنات لرب الأرض والسماوات سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾[الأنعام:١٦٢].

وربما يقول القائل: ما العلاقة بين تجديد طريق الآخرة ومناسك الحج؟ إن هذا من أهم المعاني التي ينبغي للمؤمنين المتقين استيعابها ليتحققوا بها

إن الله جل وعلا بنى بيته، وعظم أمر هذا البيت، وفخم شأنه، وحرم ما حواليه، وجعله على صفة قصور الملوك، يأتونه من كل فج عميق، شعثا غبرا متواضعين خاشعين للملك سبحانه

---

(٥٢) أخرجه البخاري (٦٤٥٩) ، ومسلم (٢٩٧٢) واللفظ له. ولفظه (عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ وَاللَّهِ يَا ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ ثُمَّ الْهِلَالِ ثُمَّ الْهِلَالِ ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- نَارٌ - قَالَ - قُلْتُ يَا خَالَةُ فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ قَالَتِ الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- مِنْ أَلْبَانِهَا فَيَسْقِينَاهُ.).

وتعالى، مستكينين لعزته، مخبتين خاشعين لجلاله سبحانه وتعالى، وحرم صيده، وحرم شجره، وجعله حرما آمنا - ليأتي إليه الناس.

فجعل سبحانه وتعالى للناس بيتا يأتون فيه إلى الله تعالى، يقصدون زيارة الرب جل وعلا، ويأتون إليه متواضعين قد تركوا زينة الدنيا وشهواتها، وتركوا ما هم عليه من الهيئة الحسنة واللباس الحسن، وجاءوا إليه شعثا غبرا تُفلا - أي لا رائحة لهم إلا رائحة التراب والغبار والسفر وتلك المشقة - متواضعين إليه مخبتين.

ثم وظف عليهم هذه الوظائف من أعمال الإيمان التي لا تميل إليها النفوس، ولا تفهم معانيها العقول، كأن يرمي الحجارة سبع مرات، كأن يسعى بين الصفا والمروة، كأن يطوف سبعا، كأن يقف في أرض تسمى عرفات، كل هذه الوظائف لا أنس للنفس بها، ولا مدخل للعقل فيها، لماذا؟ قال: لهذا المعنى من معاني طلب الآخرة، وهو الامتثال المحض لأوامر الله تعالى، أنه يمتثل لمجرد أن أمره الله جل وعلا، وينتهي لمجرد أن نهاه الرب جل وعلا، وهذا الجزء الأول لسلوك طريق الآخرة.

معنى ذلك هو: أنَّ مناسك الحج من الطواف بالبيت وقصده وزيارته ليست ككل العبادات التي يتعبدها المرء، بل هي عبادة قائمة على الامتثال المجرد لأمر الله تعالى. فإنَّ المرء إذا صلى وركع وسجد فإنَّ ذلك خشوع وتواضع لله له معنى تأتنس به النفس، وكذلك إن زكَّى وأعطى ماله لغيره من الفقراء، فإن في ذلك معنى المواساة والتكافل، وإن صام فنفسه تأتنس بمعاني ترك الشهوات، وتضييق مجري الشيطان، وتصفية النفس، فأي فعل من أفعال العبادة له معنًى معقول، وهذا المعنى المعقول يساعد النفس ويستأنس به العقل على أن يفعل تلك الأفعال؛ لأنه لا يكون مضادًا للعقل، ولا يتميَّز العقل معناه، فيكون ذلك حينئذ معينًا على الامتثال لأمر الله.

ولأن الامتثال المجرد للأمر لله شيء آخر، لذلك كان شاقًّا على النفس، وشاقًّا على العقل أن يقبل ذلك، فيتعلم المؤمنون كيف يتجردون من عقولهم التي تعوقهم عن الله تعالى، وذلك ليس من تجريد العقل، لا، ولكن من باب عدم إدخال العقل فيما ليس له مجال، فإن كان هناك أمر لا يدركه العقل، فلتنحي هذا العقل، وإن هناك أمر لا تستأنس له النفس، فلا يخشى المرء من القيام به، إن كان الله يأمر به فلا يهمه، فالأجر على قدر المشقة، وإن كان هذا الأمر نفقته كثيرة، فالأجر

على قدر النفقة، كل ذلك يحمل المرء إلى الله تعالى، لأنه حينئذ لم تمنعه هذه المشقة، من السير إلى الله، محبًا له مقبلاً عليه، مطيعًا له، قد جرد نفسه من أوهام وحسابات الدنيا، جرد نفسه من كل ذلك سائرًا إلى الله تعالى، باذلاً نفسه وماله وأهله لله، حينئذ يكون من المتقين أو للمتقين إمامًا.

ومن ثَم كان التعبد بهذه المعاني التي لا أنس للنفس فيها، ولا مجال للعقل فيها، كان من أبلغ التزكيات التي يتزكى بها القلب والنفس؛ لأنها إنما تصدر محبةً لله تعالى، وامتثالاً مجردًا لأمره. ولطاعته جلَّ وعلا، لا لشيءٍ آخر يمكن أن تستأنس به النفس، أو أن تميل إليه، أو ترى له معنى أو أن ترى له حكمة، مما يجعله شاقًّا على النفس، لذلك قال ﷺ: «**أجركِ على قدر نصبكِ ونفقتكِ**» [1]

تلك هي التعبدات التي تتزكى بها النفوس؛ لأنها صارت متعبدًة لله ، مسترقا عنده، يسمع ويطيع فقط لله جل وعلا؛ محبة له، وانكسارا لأمره، وتواضعا لما يأمر به جل وعلا فقط، أخرج حظ النفس وحظ العقل والأنس بذلك كله إلى مجرد أنه يقبل على ربه، يحب ربه، يأتمر بأمره، يمتثل بما أمره به، يجتنب ما نهاه عنه، يقبل عليه؛ لأنه عبد له، مسترق له، كما يقال: (لبيك حقا حقا تعبدا ورقا).

لذلك بيَّن النبي ﷺ جزاء هذه المناسك، ليكون ذلك معينًا للنفس على القيام بها، فقال ﷺ: «**من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع من حَجّهِ كيوم ولدته أمه**» [٥٣]، والحج المبرور ليس لها جزاءٌ

---

[1] رواه مسلم في صحيحه (١٢١١) ولفظه (عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَصْدُرُ النَّاسُ بِنُسُكَيْنِ وَأَصْدُرُ بِنُسُكٍ وَاحِدٍ قَالَ: « انْتَظِرِى فَإِذَا طَهَرْتِ فَاخْرُجِى إِلَى التَّنْعِيمِ فَأَهِلِّى مِنْهُ ثُمَّ الْقَيْنَا عِنْدَ كَذَا وَكَذَا – قَالَ أَظُنُّهُ قَالَ غَدًا – وَلَكِنَّهَا عَلَى قَدْرِ نَصَبِكِ – أَوْ قَالَ – نَفَقَتِكِ).

(٥٣) رواه أحمد (٢٤٨/٢ ، رقم ٧٣٧٥) ، والبخاري (٥٥٣/٢ ، رقم ١٤٤٩) ، والنسائي (١١٤/٥ ، رقم ٢٦٢٧) ، ومسلم (١٠٧/٤ رقم ٣٣٥٧). ولفظه (عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–: « مَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ »).

إلا الجنة[٥٤]، والحجةُ المبرورة تغفر ما بين المغرب والمشرق، كما جاء في رواية من روايات الحديث، ثم بيَّن ﷺ جزاء كل عمل من أعمال المناسك، فإن طافوا فلهم كذا، وإن صلوا في المقام فلهم كذا، وإن سعوا فلهم كذا، وإن أفاضوا فلهم كذا، وإن وقفوا بعرفات فلهم كذا، وإن رموا الجمرات فلهم كذا وإن حلقوا فلهم كذا ، فقال ﷺ: «**من طاف أسبوعًا حول البيت كان كل خطوة يخطوها حسنة، ويحط بها عنه سيئة، ويرفع بها درجة، ثم إن صلى ركعتين بين المقام والركن كانت كعتق رقبة من ولد إسماعيل**»[٥٥]، و قال في زمزم: «*مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ*»[٥٦] ، وكذلك قال: «**ماء زمزم طعام طعم، وشفاء سقم**»[٥٧]، وفي السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط فهي كعتق سبعين رقبة من ولد إسماعيل، وفي الوقوف بعرفات يقول الربّ بعد ما يتنزل إلى السماء الدنيا ويباهي بهم الملائكة: «**عبادي أتوني شعثًا غبرًا ضاحين، أشهدكم أني قد غفرت لهم**»[٥٨]، ويقول: «**وما لبَّ مُلَبٍّ حتى غربت الشمس بذنوبه**»، يعني: ما يكون المرء محرمًا مُلبيًا إلا أن تغرب الشمس بذنوبه، فيفيضون مغفورًا لهم من عرفات إلى مزدلفة إلى مِنَة، فيحلقون ولهم بكل شعرةٍ يحلقونها حسنة، ويرمون سبع حصيات، كل حصاةٍ تكفر موبقةٍ يعني: كبيرةٍ من الكبائر، وإذا ذبح ذبيحته تنقذ كل عضو من جسمه من النار، وإذا أفاضوا بعد ذلك طواف الإفاضة، أفاضوا ولا ذنب لهم، ويأتي ملكٌ

---

(٥٤) رواه أحمد (٤٦٢/٢ ، رقم ٩٩٤٩) ، والبخاري (٦٢٩/٢ ، رقم ١٦٨٣) ، ومسلم (٩٨٣/٢ ، رقم ١٣٤٩). ولفظه (عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: « الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الْجَنَّةُ »).

(٥٥) أخرجه أحمد (٣/٢ ، رقم ٤٤٦٢) ، والترمذي (٢٩٢/٣ ، رقم ٩٥٩) وقال: حسن ، وأبو يعلى (٥٤/١٠ ، رقم ٥٦٨٨) ، والبيهقي (١١٠/٥ ، رقم ٩٢١٤) . وصححه الحاكم (٦٦٤/١ ، رقم ١٧٩) .

(٥٦) أخرجه أحمد (٣٥٧/٣ ، رقم ١٤٨٩٢) ، وابن ماجه (١٠١٨/٢ ، رقم ٣٠٦٢) ، والحكيم (٢٢٢/٢) ، والبيهقي(١٤٨/٥ ، رقم ٩٤٤٢) ، وقال الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٢): صحيح.

(٥٧) أخرجه الطيالسي (ص ٦١ ، رقم ٤٥٧) . وقال الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٣٥٧٢): صحيح.

(٥٨) سبق تخريجه.

يضع يده بين منكبيه يقول له اعمل فيما يستقبل فقد غفر لكم ما قد مضى؛ فيرجع الحاج وليس له ذنب ، كل ذلك بيَّن لهم النبي ﷺ فيه الثواب العظيم والدرجات العُلَى، ليحض المؤمنين على القيام بها، وليرتفع شوق المؤمنين إلى البيت وإلى رؤيته، وإلى زيارته تسليةً به، وانتظارًا لرؤية ربِّ البيت.

إذن الشوق هنا اشتياق لرؤية صاحب البيت في الموعد المضروب يوم القيامة؛ ولذلك كان هذا الشوق - كما يقولون - شوق إلى الله تعالى، بل شوق إلى ما يمت لله تعالى بصلة، فقد نسب وأضاف المولى سبحانه وتعالى هذا البيت لنفسه؛ تشريفا لأمره، وتفخيما لشأنه، وإعلاء لقدره، فكان انتساب البيت لله تعالى شوقا إليه؛ ليكون هذا الشوق شوقا إلى الله تعالى؛ لرؤية وجهه الكريم في الميعاد المضروب يوم يقوم الناس لرب العالمين.

إذن من لا شوق له إلى زيارة ربه ليكون تسلية له عن رؤية الرب، فكيف يحمله ربه إلى بيته؟! وكيف يأخذه سبحانه وتعالى إلى هذه المناسك والمشاهد التي سار فيها الأنبياء والصالحون والأولياء من قبل، وكيف يأخذ بيده إلى طريق التزكية وطريق الآخرة ومحبة الله تعالى؟!

ذلك الشوق هو الذي يحمل هذا المشتاق على العزم على مفارقة الأهل والوطن (هذه الأولى) ومفارقة اللذات والشهوات(هذه الثانية) ليذهب إلى بيت الله تعالى، متعلقا بربه جل وعلا، محبا له، مقبلا عليه.

وهذا العزم لا بد أن يخلصه لله وحده سبحانه وتعالى، فإنه كما يقال: من أفحش الفحشاء أن تقصد البيت ببدنك، ومقصودك ونيتك غير الله تعالى. **تقصد بيته ونيتك ومقصودك غير الرب سبحانه وتعالى؟! رياء وسمعة أو فخرا أو مباهاة أو مالا أو تجارة أو غير ذلك!** لا، وإنما يقصد بيت الرب ومقصوده الرب سبحانه وتعالى؛ إخلاصا له، وإقبالا عليه.

فيعزم المرء على أن يفارق هذه الشهوات "عبادي أتوني شعثا غبرا، أشهدكم أني قد غفرت لهم"[٥٩] لذلك كان يقول عمر: هذا السفر سفر لا يضاهيه سفر من أسفار الدنيا، تشعثون وتغبرون وتتفلون وتضحون لله تعالى. نعم السفر!

تشعثون: أي يمشي أشعث في هيئته ولباسه وشعره. وتتفلون: أي تتغير الرائحة من الرائحة الحسنة إلى رائحة العرق نتيجة الزحام وغيره. وتضحون: أي تبرزون في الشمس لله تعالى، وتقفون له. و تغبرون: أي تتغير وجوهكم من الغبرة والتراب والتعب والمشقة. كل ذلك لله! ليس لغيره، بل لبيته؛ انتظارا لرؤيته!! نِعْم السفر إذا !

إذا فهم العبد ذلك، وعزم هذا العزم، وعزم على مفارقة الأهل والوطن، ومفارقة الشهوات والملذات، كل ذلك إنما ليزكي نفسه، وليغفر له، وليدخل بيت الله، ينتظر بدخوله على بيت الله مشاهدة الرب سبحانه وتعالى، والنظر إلى وجهه الكريم، وهو أعلى مطلوب أهل الإيمان. هذا هو طريق الآخرة، الذي جاء النبي ﷺ لتجديده.

وقد علم المؤمنون هذا المعنى، فتركوا شهواتهم، وتنزهوا عنها، وتخلوا عن لذَّاتهم، واقتصروا على ضروراتهم، وجردوا أنفسهم في الظاهر والباطن، في حركاتهم وسكناتهم لربِّ الأرض والسماوات سبحانه وتعالى، وسافروا إلى الله تعالى وهم يقولون: (**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**).

---

(٥٩) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢/٢٨ رقم ١١٢٨) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٤٦٠ ، رقم ٤٠٦٨) ، وابن عساكر (٤٥/٣١٦) وصححه ابن خزيمة (٤/٢٦٣ ، بعد رقم ٢٨٣٩)، وابن حبان (٩/ ١٤٦، رقم ٣٨٥٣). ولفظه (إذا كان يومُ عرفةَ نزل الربُّ إلى سماءِ الدُّنيا ليباهيَ بهم الملائكةَ، فيقولُ انظروا إلى عبادي أتوني شُعْثًا غُبْرًا ضاحين من كل فجٍّ عميقٍ، أشهدُكم أني قد غفرتُ لهم فتقولُ الملائكةُ: إنَّ فيهم فلانا مرهقًا وفلانًا، فيقولُ اللهُ: قد غفرتُ لهم فما من يومٍ أكثر عِتْقا من النارِ من يومِ عرفةَ). ومن من غريب الحديث : "شعثا" : غير مرجلين لشعورهم . "غبرا" : أصابهم الغبار من جهد السفر ، وأداء المناسك . "ضاحين" : بارزين للشمس لا يظلهم شيء .

مشهد الاستعداد إلى السفر

فأول ما يفعله المسافر أن يرى زادا صالحا حلالا يأخذه معه، يكون سببا لبلوغه، وسببا لبره، وسببا لأن ينفق منه - كما ذكرنا في أعمال البر - ولو كان معسرا، وأن يقوم بالخدمة ولو كان ضعيفا، وأن يقوم بكل ما يمكن أن يقوم به، كان شيخا، كان شابا، كان صائما، كان فقيرا، ينفق في كل هذه الأحوال من وقته من جهده من ماله، يريد بذلك أن يكون حجه مبرورا.

والمشهد الذي يستصحبه حينئذ أن خير ما يتزود به المرء هو زاد التقوى. فزاد الرحلة من طعام وشراب يمكن أن ينفد، ولا بد وأن ينفد ويتركه أما الزاد الذي ينبغي أن يحصله هو زاد التقوى، فيضع في مشاهدته نفسه، أنه إن كان يريد زادا ليوصله إلى الله فإن أهم ما يوصله إليه ويبقى له بعد موته في آخرته هو زاد التقوى، الذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم أن يزودهم التقوى وأن يغفر لهم سبحانه وتعالى فقال صلى الله عليه وسلم : "**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها**"[٦٠] .

فيعلم أن زاد التقوى لا بدَّ أن يتزوده قبل زاد البدن، فهو الباقي معه حتى يلقى الله تبارك وتعالى، فخرج حينئذ متجردًا من الدنيا، زاهدًا فيها متشبهًا بالأموات السائرين إلى تبارك وتعالى بأكفانهم وقد تزود زاد التقوى التي تكون سبب سعادته عند الله تعالى كما قال في رحلة الحج: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة : ١٩٧].

---

(٦٠) أخرجه أحمد (١٥٣/٥ ، رقم ٢١٣٩٢) ، والترمذي (٣٥٥/٤ ، رقم ١٩٨٧) وقال : حديث حسن صحيح . والدارمي (٤١٥/٢ ، رقم ٢٧٩١) ، والحاكم (١٢١/١ ، رقم ١٧٨) وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي . والبيهقي في شعب الإيمان (٢٤٥/٦ ، رقم ٨٠٢٦) . ولفظه (عن أبي ذر الغفاري – رضي الله عنه – : قال : قال رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– : «اتَّقِ الله حيثما كنتَ ، وأتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسَنَةَ تَمْحُهَا. وخالِقِ الناسَ بخُلُق حسن» .).

مشهد السفر إلى الله تعالى

وهو مشهد مفارقة الوطن والأهل، ويرى فيه المرء أنه قد ترك أهله ووطنه ليذهب إلى الله تعالى، كما سيترك أهله ووطنه ليذهب إلى الله تعالى في الدار الآخرة، فهو ليس كسفر الدنيا، إذا به قد فارق الأهل والوطن، ودخل في زمرة الوافدين على الله تعالى، الزائرين له، الذين نودوا فأجابوا، واستنهضوا فنهضوا، وشوقوا فاشتاقوا، ففارقوا الخلائق، وقطعوا العلائق، وذهبوا إلى بيت الله تعالى؛ لرؤية البيت؛ تسليا برؤية البيت عن رؤية رب البيت؛ حتى ينالوا مناهم ويسعدوا برؤية ربهم في الآخرة.

ويغلب عليهم حينئذ في مفارقة أوطانهم أمران:

الأول: أن يبلغهم ربهم بيته سبحانه وتعالى. الثاني: أن يقبلهم.

كل ذلك ثقة في فضل الله تعالى وكرمه، ليس بما حضره من مال، ولا من ركوب، ولا من زاد، ولا من كذا وكذا، فكل ذلك ثقة في فضله ونعمته سبحانه وتعالى، واتكالا على عفوه وكرمه جل وعلا أن يبلغهم بيته، وأن يوصلهم إليه آمنين. بهذه المعاني يرجون رحمته، ويطلبون مغفرته، ويغلب عليهم الرجاء في أن يقبلهم ربهم كما وعدهم بفضله ومنّه أن يكونوا من المقبولين، وأن يعودوا كما ذُكر في الحديث: "يضع الملك يديه بين منكبيه وهو يطوف طواف الإفاضة ويقول: "**اعمل فيما يُستقبل قد غفر لك ما قد مضى**"[(٦١)].

وأول ما يشهده المرء عند خروجه لسفر الحج، أنَّ السفر إلى الله قد ذكره بالسفر إلى الآخرة، فهو في رحلة ليست تشبه رحلات الدنيا فالسفر إلى الآخرة يود أن يكون فيه على أحسن حال يلاقي بها ربه جلَّ وعلا، وتثقل فيها موازينه، ويخف مروره على الصراط لِيَنْجَوا عند الله يوم يقوم الناس لربِّ العالمين.

---

(٦١) سبق تخريجه.

وكذلك يذكرهم ذلك بأنهم في الدنيا إنما هم مسافرون، فحالهم في الدنيا كما قال ﷺ: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»[1] فحال المؤمن أنه غريب في الدنيا، يجهز نفسه ليعود من دار الغربة إلى أهله ووطنه، فيسارع في أن يقطع في كل يوم مرحلة حتى يصل إلى الله تعالى.

فهو يود أن يسافر إلى الله على حالٍ يستقبله فيها ملائكته الاستقبال الحسن، كما قال الله تعالى: ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣]. وهذا يستدعي من المؤمن أن يغير نفسه، فيخرج من العلائق التي تعلق بها في الدنيا، ويكتب وصيته، ويتوب من المظالم بينه وبين الله، ثم يخرج من المظالم التي بينه وبين الناس.

ذلك لأن **المقصود بقطع العلائق، أولًا: رد المظالم والتوبة من المعاصي؛** لأن كل معصية أو مظلمة إنما هي علاقة - والعلائق جمع علاقة - تتعلق بالمرء، وتمسك فيه، وتقول له: إلى أين تذهب؟ **تذهب إلى بيت ملك الملوك وأنت على هذه المظالم وأنت على هذه المعاصي؟! تزوره وأنت على هذا الحال؟! ألا تستحي أن يردك خائبا؟!** أن يردك ممقوتا مطرودا؟! لا بد وأن تتخلص إذن من هذه العلائق التي تتعلق بتلابيبك إذا ذهبت إليه وأنت على هذا الحال.

كيف يدخل المرء على الملك سبحانه وتعالى، مخالفا له، عاصيا له، قد ظلم هذا، ووقع في حق هذا، وكذا وكذا من هذه المظالم ؟! لا بد إذن أن يقطع هذه العلائق قبل أن يدخل على الملك تائبا قد أخلص لله، تائبا قد رد مظالمه، تائبا يرجو رحمة الله، تائبا يرجو مغفرة الله.

كيف يقصد المرء بيت ملك الملوك -سبحانه وتعالى- وهو مُتَسِخٌ بهذه القاذورات من الذنوب والمعاصي، والسيئات والمظالم، كيف يتدخل عليه وهو على هذا الحال؟! لابد أن تقطع ما يمنعك عن الوصول إلى الله تعالى ، اخرج من هذه المظالم وتُبْ منها أولاً، حتى تكون أهلاً لدخول

---

[1] رواه البخاري (٥٩٣٧)، وأخرجه أحمد في مسنده من حديث ابن عمر(٤٥٣٤). ولفظه (عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم بمنكبي فقال: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) . وكان ابن عمر يقول إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك).

البيت، وحتى تكون أهلاً بعد ذلك للدخول على ربِّ البيت، لأنه لا يدخل عليه إلا الطيبون ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر: ٧٣].

وقطع العلائق الثاني: أن يفارق الأهل والمال والوطن ويقطع تلك السكة من ورائه، فلا ينظر إليها، ولا يلتفت لها، لأن كل همه أن يذهب إلى ربه، أن يكون من وفده المكرمين، ومن زواره المشتاقين الذين كل همهم أن يغفر لهم، أن ينزلوا بساحة الله تعالى، أن يخرجوا وأن يعودوا كيوم ولدتهم أمهاتهم. هذا همه.

أما إذا خرج وهو متعلق بالمال والأهل والولد والوطن وكذا وكذا – فإن لم يقطع هذه العلائق عن نفسه، يوشك أن تكون هذه العلائق سببا لأن يرجع خائبا، لا حج له، فإنما حج بظاهره، ورجع وقلبه لم يحج ، وقد ذكرنا في معاني البر أن الركب كثير والحاج قليل. يقول ابن عمر: لعله هذا-واحد فقط -قد غُفر له في هذا الجمع، والله تعالى يتفضل عليهم بسبب أن غفر لواحد منهم أن يهبهم له جميعا.

إن قطع العلائق في سفر الحج تُيسر على المرء أن يكون طامعا أن يقطع الله تعالى عنه العلائق في سفر الآخرة؛ فإن سفر الآخرة إلى الله تعالى يمكن أن يكون أقرب إليه من سفر الحج، وأن يكون السفر إلى الله تعالى نهاية مطافه، فلعله لا يصل إلى بيت الله، ويذهب إلى الله تعالى قبل أن يذهب إلى بيته؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "**صل صلاة مودع**"[٦٢] كذلك في الحج، أن يقطع الالتفات إلى ما وراءه من أهل ومال ووطن، فإنه كلما قطع علائقه في سفر الحج يوشك أن يتيسر عليه السفر إلى الآخرة، وأن تقطع هذه العلائق فيصل إلى الله تعالى سالما في حجه أو في سفره إلى الله تعالى، متجردا إلى ربه سبحانه وتعالى، قد تخففت أثقاله وهمومه وما وراءه من معاص وذنوب وتعلقات بأهل ومال وشهوات وملذات، حينئذ يتيسر عليه سفر الآخرة.

---

(٦٢) أخرجه أحمد (٤١٢/٥ ، رقم ٢٣٥٤) ، وابن ماجه (١٣٩٦/٢ ، رقم ٤١٧١) والطبراني (١٥٤/٤ ، رقم ٣٩٨٧) ، وأبو نعيم فى الحلية (٣٦٢/١) . والبيهقي في الزهد الكبير (٨٧/٢ ، رقم ١٠٢) ، وقال المناوي: إسناده حسن. ولفظه (إذا قمتَ فى صلاتِك فصلِّ صلاةَ مودعٍ ولا تكلم بكلام تعتذر منه غدًا، واجمع الإياس مما فى أيدى الناس).

وهي حالةٌ ينبغي أن يكون المؤمنون عليها في كل أحوالهم، وهي أن يعتقدوا أنهم مسافرون إلى الله في كل يوم، فلا يتوجه إليه وقلبه متعلق بغيره أو يرجوا غيره.

مشهد الإحرام

فإن وصل إلى الميقات، سواء كان حاجا أو معتمرا ، فإذا به يحرم ويلبس هذه الملابس، فهل على قلبه مشهد خروجه إلى الله تعالى من الدنيا على هذا الحال، على هذا المنظر، على هذه الهيئة، على ذلك اللباس؛ ليكون دافعا له لينظر كيف يود أن يخرج إلى الله تعالى حينئذ؟ يهل على قلبه هذا الحال إذن: حال الموت، حال الذهاب إلى الله تعالى، **فملابس الإحرام تنبئه عن كفنه الذي يخرج به من الدنيا**، مما يجعله خائفا وجلا، يحسن أعماله، ويقبل على ربه ويحسن زاده وتقواه إلى الله تعالى، الذي يأخذ به إلى تلك المعاني الحسنة، التي يود أن يلقى الله تعالى عليها، قد أعطاه هذه الفرصة في حج بيته؛ ليتهيأ إذا ما لبس تلك الملابس ليذهب إلى الله أن يكون على حال حسن يقابل ربه به سبحانه وتعالى؛ لتكون هذه الحالة الحسنة هي الحال التي تصاحبه لو ذهب إلى الله تعالى حين يذهب؛ إذ هو ذاهب إلى الله تعالى أقرب مما يتصور ، فإن كان في سفر الآخرة يلبس الكفن، ففي سفر الحج يلبس ذلك اللباس الذي يُنبئه عن تلك الأكفان، ويسافر إلى ربه على نفس الحال تقريبا.

والمشهد المهم كذلك أن ملابس الإحرام تدل على تواضعه لربه، وخروجه من زينة الدنيا، وذلك يعطيه إشارةً إلى أنَّه سيخرج من الدنيا متجردًا، فيكون ذلك عونًا له على أن يكون خروجه خروج الأبرار، المحبين، المشتاقين إلى الله تعالى.

مشهد التلبية

والتلبية لها مشهدها المهم الذي ينبغي أن ننظر فيه، فقول: (لبيك اللهم لبيك) معناه: الإجابة، أي أجيبك مرة بعد مرة. أي أنا مجيب لك يا رب، استجبت لك فأتيت إليك، أجيبك إجابة بعد إجابة.

وهو مشهد شديد الخطر؛ لأنه إمَّا أن يقال له: (**لبيك وسعديك**)، وإمَّا أن يقال له (**لا لبيك ولا سعديك**)، فإما أن يعود مطرودًا وإما أن يسير مقبولاً، إما أن يستقبل رحلته لطلب

الرحمة، وطلب المغفرة، وأن يصل إلى الله تعالى وافدًا إليه جلّ وعلا، يستقبله ربه استقبال المحبين، الطائعين، ويُظِلُّه برحمته، ويكتنفه بكنفه، وإلا من البداية قد أخذ صكَّ الحرمان، والطرد والإبعاد، وصار به ليس إلى الله وإنَّما إلى نفسه وشهواته، في غير طريق الآخرة، يرجع مأزورًا غير مبرور.

وذلك من المعاني المخوفة كما يقول العلماء، فهو بداية الأمر ومحل الخطر؛ لذلك كان السلف يخافون خوفا شديد عندما يقولون: لبيك اللهم لبيك، فهم خائفون فعلا من أن يقال لهم: لا لبيك ولا سعديك ، فكانوا لا يستطيعون التلبية، بل يغشى عليهم، يقول: أخشى أن يقال لي: (لا لبيك ولا سعديك) فيبكي ويقع عن راحلته ويغشى عليه، ومنهم من يصفر ويخضر، ولا يستطيع أن يكمل التلبية! إلا هؤلاء الثابتون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وإن كانوا يبكون عند ذلك.

قد خِفت إذن على نفسك، ذلك الخوف الشديد، وتتضرع إلى الله تعالى بعد كل ذلك ألا تُرد، وأن يتجاوز عنك في زوار بيته، وأن تدخل عليه في أدنى درجات التواضع.

ولا يزال المشتاقون إلى البيت إذن، يُلَبُّون لربهم طوال رحلتهم، ويؤكدون على البيعة له وعلى الاستجابة له جلَّ وعلا، يصاحبهم الخوف ألا يُقبلوا أو أن يُردوا، ويحملهم ذلك كله على تحمل كل شيء في سبيل وصولهم إلى البيت، وهو حال المشتاقين المحبين، لأنهم لما علموا خطر ما هم مقدمين عليه، علموا أنهم ينبغي أن يبذلوا له البذل العظيم، البذل الذي يوازي تلك المحبة، ويكافئ ذلك الشوق والحنين الذي حملهم إلى ربهم جلَّ وعلا، فتحملوا بذلك المشاق والمتاعب والآلام، ويرون أنَّ كل هذا يهون في سبيل وصولهم لربهم سبحانه وتعالى وأنَّ ذلك شيء قليل في سبيل دخولهم على الله وبقائهم في كنفه سبحانه وتعالى، وأن يُظلهم برعايته وبرحمته، وأن تكون محبته لهم هي الدافع الذي يحرك هذه القلوب وتلك الأفئدة طوال هذه الرحلة العظيمة مستجيبةً لله تعالى.

والمعنى التالي في التلبية كما قال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ...﴾ [الحج : ٢٧ - ٢٨] أي أن الله تعالى قد أمر إبراهيم بعد أن بني البيت أن يقول: يا أيها الناس إن ربكم قد بنى لكم بيتا فحجوه، قال: وما يبلغ صوتي؟ قال: أذِّن وعلينا البلاغ، سبحانه وتعالى.

فيذكره هذا المشهد بتلبية الله تعالى الناس عند النفخ في الصور والقيام لرب العالمين، للحشر والوقوف بين يديه، يذكره ذلك أن يقوم الناس لله تعالى في الآخرة، دعاهم فلبوا، وجاءوه وقاموا شعثا غبرا غرلا –غير مختونين- كما ولدتهم أمهاتهم، متحيرين قلقين، مترددين بين أن يكونوا مقربين أو ممقوتين، مقبولين أو مطرودين، يذكره بذلك هذا الحال، ويذكر نفسه وما يود أن يكون ليه عند الله تعالى إذا قام الناس لرب العالمين؛ ليكون حجه سببا في أن يكون له ذلك الحال عند الله تعالى.

ويستشعر أيضًا عند قوله (**لبيك اللهم لبيك**) معنى تلبية الخلائق يوم يدعوا الربِّ جلَّ وعلا الناس للقيام لرب العالمين، كما قال: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾ [الإسراء : ٥٢]، فيستشعر أنَّه يوشك أن يدعوه ربه سبحانه وتعالى، فيقوم له: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ [المطففين : ٦].

فإن علم أنَّ تلبيته في الدنيا إن قبلت، قبلت تلبيته في الآخرة، وأنه إن قام في الدنيا القيام الحسن، كان ذلك دليل القيام على النحو الحسن في الآخرة لربِّ العالمين أيضًا، أصلح ذلك من هيئته ومن نيته، ومن قلبه وجعله أكثر تضرعًا وبكاءً وإقبالاً، يرجوا الله تعالى أن يقبله وأن يكون في زمرة الداخلين عليه ليس المطرودين عنه سبحانه وتعالى، أن يكون في زمرة المغفور لهم، ليس في زمرة المردودين المحرومين.

وكما ذكرنا فمعنى (**لبيك اللهم لبيك**): نجيبك إجابةً بعد إجابة، فبشوقهم وحنينهم، ومحبتهم، وتجردهم من هوى النفس والعقل، ما كان منهم بعدها إلا أن قالوا: (**لبيك اللهم لبيك**)، **ما أن سمعوا النداء: يا أيها الناس إن الله قد بنى بيتًا فحجوه، قالوا: (لبيك اللهم لبيك)، قد استجابوا لربهم سبحانه وتعالى وعاهدوه على أن يجيبوه في كل شيء، وألا يترددوا في هذه الاستجابة.**

وكذلك في قوله: (**لبيك اللهم لبيك**) معنى ألا يعصوه في شيء، وألا يخالفوه في أمر، وإنَّما بمجرد أن قالوا: لبيك اللهم لبيك، فقد عاهدوا الله تعالى ، على الطاعة، والامتثال لأمر الله تعالى، والتجرد له سبحانه وتعالى، عاهدوا ربهم على ترك الغفلة، وترك البعد عنه، عاهدوا ربهم على السير

فيما يحبه ويرضاه، وترك ما يسخطه ويغضبه عليه سبحانه وتعالى، جردوا أنفسهم من كل زينة الدنيا، وجردوا قلبوهم من كل ما يتعلق بغير الله تعالى، مخلصين له فقالوا: (**لبيك اللهم لبيك**).

لذلك يوشك أن يكون كاذبًا هذا الذي يقول: (**لبيك اللهم لبيك**) وهو على المعصية مُصِرّ، وهو على الذنوب مُصِرّ، أو وهو على ترك أوامر الله تعالى وعدم الانكسار لها مُصِرّ، أو على عدم الاستجابة لها، أو على عدم الإتمام لها، أو على عدم المنافسة والمسارعة فيها، كل ذلك يوشك أن يكون كاذبًا عندما يقول: (**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك**)، أين ذلك؟!

وقوله: (**لا شريك لك**) إقرار بتوحيده وعدم الإشراك به، تعلقًا به، وإقبالاً عليه، وخوفًا منه، ورجاءً فيه، وانابةً إليه، وخشوعًا له، وتواضعًا له، وامتثالاً له. وكذلك يوشك أن يكون كاذبًا، هذا الذي يقول: (**لا شريك لك**) وقد أشرك معه الهوى وحُبَّ الدنيا، وطاعة النفس، وطاعة الشيطان، فإن أمرك بشيء وتنازع مع الدنيا قدمتها، وإن أمرك بشيء وتنازع مع راحتك قدمتها، وإن أمرك بشيء وتنازع مع مالك وولدك قدمته.

(**إنَّ الحمد، والنعمة لك والملك**) فالحمد له، والنعمة له، والملك له، فعلم المرء هذه الأشياء الثلاثة بعد الاستجابة له، والتوكل عليه، والمحبة له، والمسارعة إلى أمره، والتخلي عن كل ما يغضبه، ويسخطه جلَّ وعلا؛ فإذا به يقول: (**إنَّ الحمد، والنعمة لك والملك**) فمَيَّزت نفسك بنعمه، وميَّزت نفسك بالحمد له سبحانه وتعالى، ورأيت نفسك شخصًا آخر عاهد الله تعالى على أن يسير إليه على الشوقِ والحنين، والطاعة والانكسار، مؤكدًا أنَّ ما أنت فيه من نعمة فمن الله، وأن ما أنت فيه من نعمة لا يستحق الحمد عليها إلا الله ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ** ﴾ [النحل:٥٣].

ولا يكون بعد ذلك ملكٌ إلا له سبحانه وتعالى، لا شريك فيه لأحدٍ ، لا مخلوق في الدنيا له ملك معه، فبعثك ذلك على قوة اليقين فيه، وعلى حسن التوكل عليه سبحانه وتعالى، وعلى التقوي به، وعلى طلب المدد منه سبحانه وتعالى، وعلى الخوف منه لا من غيره، وعلى خشيته وحده، لا سواه، علمت أنه الملك جلَّ وعلا وملوك الدنيا في يده ﴿ **قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**

﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران : ٢٦ – ٢٧]

والتلبية الصادقة إنما تكون بالقلب واللسان، فكما ذكرنا أن معنى:(**لبيك اللهم لبيك**): نجيبك إجابة بعد إجابة، نجيبك إجابة بعد إجابة، وإجابتهم لله تعالى لا تكون صادقةً إلا أن تكون قلوبهم موافقة لأعمالهم، فيستجيبوا لربهم فيما أمرهم به، في ظاهرهم وباطنهم، ويستجيبوا لسُنَّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويعاهدوا الله تعالى على ترك المعاصي والسيئات والذنوب وأن يقبلوا عليه سبحانه وتعالى، مستعدين للسير في طريقه، مستمسكين به، مستقيمين عليه.

و(**لبيك اللهم لبيك**) يعني: لبيك بكل ذرات قلوبهم، وأفئدتهم، وأبدانهم، لبُّوا الله تبارك على الطاعة، وعلى الاستمساك بأمره، وعلى القيام بشرعه، وعلى الوفاء له بذلك سبحانه وتعالى تُراهم وهم مقصرون مفرطون، تُراهم وهم لا شوق لهم ولا حنين إلى البيت، قد خرجت منهم: (**لبيك اللهم لبيك**) على الصدق والإخلاص لله تعالى؟

تراهم وهم متكاسلون متوانون، مبتعدون عن طريق الله تعالى مترددون في هذا الطريق، يسيرون طويلاً ويرجعون كثيرًا ، تُراهم قد حققوا معنى (**لبيك اللهم لبيك**) ؟ إنهم لما قالوا (**لبيك اللهم لبيك**) بدأوا في إحياء طريق الآخرة وهو: طريق التجرد في الحركات والسكنات في الظاهر والباطن لله تعالى، قد تجردوا في كل أمرهم، كما قال: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾[الأنعام:١٦٢]، ولم يمنعهم من التجرد لله تعالى مانع؛ فحجبوا له الشهوات، وتركوا له الملذات، واقتصروا فيه على الضرورات حتى يعينهم ذلك على سرعة السلوك إلى الله تعالى والمسابقة إليه، والمسارعة إلى تنفيذ أوامره، لا يعوقهم عن ذلك عائق من دنيا ولا مال ولا ولد.

(**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**)، عاهدت الله تعالى إذن أن تتحقق بما علمت من معاني وأنت تلبي بلسانك وقلبك، وسرت إليه سبحانه وتعالى يحملك إليه شوقك وحنينك، ودَيْدَنُك الحمدُ له، والشكر له، والتجرد له والاستكانة له، جل وعلا.

إن لم يأخذ المؤمنون المتقون هذه العهود مع الله تعالى في بداية سيرهم إليه، فإنه يوشك أن يعودوا من حجهم كما ذهبوا، لذلك ينبغي أن يجاهدوا أنفسهم على تلك المعاني، ليرجعوا الى بيوتهم من حجهم وقد غفرت ذنوبهم، ليرجعوا كيوم ولدتهم أمهاتهم، لا ذنب لهم.

مشهد الوصول لحد الحرم

المشهد التالي بعد التلبية من الميقات: الوصول إلى الحرم ، يعني الوصول لحد الحرم نفسه وليس البيت. ودخول الحرم ما أن يدخل المرء حرم الله تعالى آمنا إلا ويغلب على قلبه الدعاء لله تعالى أن يؤمنه يوم الفزع.

والثانية أن يغلب على قلبه الخشية، ألا يكون أهلا للمجيء إلى الحرم، وأن يعود مردودا مطرودًا كما بينا. فما أن يدخل الحرم حتى يشكر الله تعالى أن بلغه الحرم آمنا، ويدعو الله تعالى أن يؤمنه، بينه وبين ربه يغلب على قلبه هذا الحال أن يؤمنه الله تعالى يوم القيامة من عقابه سبحانه وتعالى.

لا يدخل المرء الحرم هكذا، دخل الحرم وهو يلبي وانتهينا، لا، قد فهم معنى التلبية، ومعنى الإقبال على الله تعالى، ومعنى قطع العلائق، فهم كل ذلك، ودخل الحرم يرجو الله تعالى أن يحرم جسده على النار، أن يؤمنه من العقاب، وكذلك يكون من الغالب على نفسه خشية ألا يكون أهلا لإتيانه إلى حرم الله تعالى الآمن.

وكل أعمال الحج العلماء ذكروا فيها هذه المسألة، وهي غلبة الرجاء على القلب، أي مع كل هذه الأمور التي تراها وتخيفك من التعظيم والخوف والرجاء والهيبة والخشية والتضرع والابتهال وقطع العلائق - كل ذلك ولكن يغلب على قلب المرء الرجاء في الله تعالى.

يغلب على قلبه هذا الرجاء في الله، أنه طالما قد بلغه حرمه سبحانه وتعالى يغلب على قلبه حينئذ الرجاء أن يتم الله له حجه، وأن يقبله الله تعالى، في أن يغفر الله تعالى له ذنبه، في أن لا يرده مردودا غير مقبول، أن يغلب ذلك على قلبه، خاصة وأنه كما يقال: فإن الرب رحيم، وخيره عميم، وكرمه واسع سبحانه وتعالى ، وبيت الله المعظم هو مكان الرحمة، ومكان الكرم والجود، وأنَّهم وفد الله تعالى وجيرته، الذين أوصلهم لبيته ، والله تعالى يرعى جيرة الضيف الذي وصل إليه ولا يحْرمه ولا

يخيبه، ولا يرده صفرا، بل يعطيه سبحانه وتعالى، فحق الزائر مرعي من الله تعالى، فيغلب على قلبه هذا الحال من الرجاء في الله تعالى أن يتم نسكه، وأن يتقبله، وألا يرده.

فيرجون بعد أن وصلوا إلى حرم الله الآمن:﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٧]، **أن يأمَنُوا يوم الفزع عند الربِّ سبحانه وتعالى، وأن يحرم سبحانه وتعالى أجسادهم على النار** ، وصلوا إلى حرمه فإذا بهم يقولون: (ها قد وصلنا إلى حرم الله نرجوك يا مولانا؛ أن تُحرِّم أجسادنا على النار، وأن تؤمننا يوم الفزع)، فخَيَّمَ عليهم هذا الرجاء في الله تعالى، وسيطر على قلوبهم الحنين إلى أن يفتح الله عليهم، وأن يكرمهم، وأن يرحمهم، وأن يؤمنهم من الفزع، وأن يحرم أجسادهم على النار.

وهذا الرجاء وهذا الأمل ينبغي أن يكون من أخلاق المؤمنين في تعاملهم مع الله تعالى، أنهم بعد ما بذلوا ولَبُّوا، وعاهدوا الله تعالى، وتركوا أموالهم، وأوطانهم إذا بهم يغلب عليهم الرجاء في أن يغفر لهم، في أن يحرمهم على النار، وفي أن يعطيهم سؤلهم، وألا يردهم خائبين سبحانه وتعالى وذلك **لأن هذا الرجاء إنَّما هو رجاء الساعين**، الباذلين، المضَّحين، ليس رجاء المتكاسلين القاعدين الذين لا شوق لهم ولا حنين لهم، ولا بذل لهم، ولا تضحية لهم، وإنَّما هم مُسَوِّفون لأعمالهم: غدًا سنفعل، إن شاء الله بعد غدٍ سنفعل !

والمسألة التالية التي طالما مرت على ذهني المسكين هي أن أولئك هم وفد الله تعالى وضيف الله تعالى قد دعاهم سبحانه وتعالى فأجابوه وسألوه فأعطاهم، كيف يكون وفد الله تعالى هذا الخليط العجيب من الناس؟ كيف دعا هؤلاء العصاة وهؤلاء المبتدعة والشيعة والتكفيرية وغيرهم ممن ساء حاله؟ كيف قد دعاهم لبيته سبحانه وتعالى؟ وهي النقطة التي طالما وقفت عليها، وكنت أستمطر رحمة الله في فهم شيء منها.

فلنتخيل أن وفد الله تعالى هم المؤمنون فقط، انظر ماذا يكون هذا الحال؟ هذ لا يكون حالاً صحيحًا لأهل الإيمان. لماذا؟

فالمؤمنون المتقون قليل ما هم، كما قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡ ﴾ [ص: ٢٤]، فإذا لم يكن رواد وضيف بيت الله تعالى إلا القليل فإنهم سيظنون بأنفسهم أنهم الصالحون وأنهم ضيف الله المختار وأنهم وفد الله المعظمون، وحينئذ ستفسد

معاملاتهم مع الله ويصيبهم الكبر والعجب وعدم التفتيش على ذنوبهم وسيئاتهم وسيأمنون الخاتمة المغيبة التي لا يعلمها أحد، ويظنون حينئذ أنهم أهل الجنة، وهذا معارض لناموس الإسلام ولناموس الشرع.

لذلك كان ينبغي أن يجتمع ذلك الخليط، حتى يخاف المؤمنون على ما هم فيه ويزدادوا اجتهادًا وتفتيشًا على عيوبهم ونقصهم وسيئاتهم، وأنهم لابد أن تصيبهم الغفلة والشهوة والغضب وأن يقعوا في مخالفة، فإنهم إذا ما أمنوا العقاب فلا شك أنهم لن يهمهم بعد ذلك أن يقعوا في المعصية والذنب والغفلة فكانت رحمة الله تعالى أن ابتلاهم جميعًا وأحضرهم جميعًا حتى يفيق المؤمنون وحتى يكونوا على حذر وحتى يفتشوا عن أنفسهم وحتى يسارعوا في الخير والعمل الصالح، إذا علموا أنهم هم الصالحون أين سيكون موقع : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ؟

لذلك جمعهم ربهم سبحانه وتعالى حتى لا يتمايز هؤلاء من أولئك وحتى يكون باب المسارعة والتنافس والتوبة مفتوحًا، لأن الخاتمة مغيبة.

الأمر الثاني هو أن **يفتح الله تعالى بيته ليتوب التائبون**. فالكثير ممن يفكر في التوبة يقول: عندما أعتمر أو أحج سأعود وأعمل الصالحات وأنتهي عن المعاصي والآثام، فهذه رحمة الله تعالى وكرمه وجوده أن فتح بيته لأولئك، ليكون مفتاح الخير لهم أن يعودوا تائبين قد انتهوا عن تلك المعاصي التي عاهدوا الله تعالى إن هم جاءوا بيته أن ينتهوا عنها، وأن يتخلصوا منها، وأن يندموا ويتوبوا إلى الله تعالى.

وكم رأينا من التائبين الواقفين المتعلقين بأستار الكعبة ليتوبوا ويتخففوا من ذنوبهم ويرجعوا عما كانوا عليه من السوء والبعد عن الله تعالى.

والأمر التالي هو أن الله جل وعلا لا يرضى بالمعصية ولا بالتقصير ولا بالبدع، وهو ما نسميه الدفع والتدافع، فإن الله يدفع أولئك بأولئك، فإن الله يغار أن يعصى في بيته ويغار –سبحانه وتعالى- أو أن يقوم بعض ضيوفه بمخالفته ويغار كذلك ألا يقوم الباقي بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

والسؤال الآن: كيف ينبغي أن تكون علاقة ضيوف الرحمن حينئذ بعضهم ببعض؟ إن علاقتك بأولئك إنما هي غضب لله تعالى أن يعصى في بيته أو أن يخالف أمره في بيته وأنت تنظر إليه سبحانه وتعالى وهؤلاء يعصون ربهم، ويخالفون أوامره، ويقعون فيما لا يحب ويرضى، إما جهلا، وإما معصية أو غير ذلك مما يحدث للمرء، ولكونك تحب ربك وأنت ضيفه وأنت مطلع على أنه لا يرضى بذلك ولا ينتظر منك أن ترى في بيته ذلك لزمك حينئذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر، بالرفق واللين.

لا ينبغي لك أن ترى هذه الحوادث في بيت ربك، والله مطلع عليك وأنت جالس لا يهمك غضبه، ولا يضيرك أن يراك سبحانه وتعالى هكذا لا تقيم له أمرًا ولا تنهى له عن منكر؟! قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١] لذلك كان لزامًا على المؤمنين أن يرشد جاهلهم وأن يعلمه أن يرشد ضالهم وأن يأمرهم بالمعروف وأن ينهاهم عن المنكر، كل ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لأنك في بيت الملك لا يجوز لك أن تخرج عن حدود الأدب المعتد به في الشرع، **أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر بالرفق واللين**، وألا تخرج عن الحدود في تلك المعاملات وفي نفس الوقت لا ينبغي لك أن تقصر عما يجب عليك أن تؤديه في مسألة التدافع.

الأمر التالي لذلك هو أن تشكر ربك –سبحانه وتعالى- أن أخذك إلى بيته طائعًا مقبلاً عليه تعرف حدودك وتأتمر بالأوامر وتنتهي عن النواهي قدر استطاعتك، وأن الله تعالى قد ستر عليك الباقي من معاصيك ومن تقصيرك وتفريطك. لا شك أن تحمد الله وأن تشكره على أن رأيت المبتدعين وأنت لست منهم، وأن رأيت المقصرين والمفرطين، وأنت معافى، وإن كنت ترجو للجميع الرحمة ما ترجو لنفسك ولا تأمن على نفسك بل تخاف على نفسك لا تأمن أبدًا، لأن السوط الذي ضرب الله تعالى به هؤلاء العباد فصاروا إلى المعصية في يد الله يمكن أن يقلب القلوب كيف يشاء، تخاف على قلبك ونفسك وخاتمتك؛ لذلك تحمد الله تعالى أن نجاك مما ابتلى به غيرك فقد رأيت ذلك في بيته هو، فذلك أدعى إلى الشكر وأدعى إلى الحمد وأدعى إلى مواصلة الشكر ليلاً ونهارًا على أن حفظ قلبك وأخذك إلى بيته سليماً معافى على قدر ما أنت فيه من العفو والمعافاة.

مشهد رؤية البيت

ها قد وصل هؤلاء المشتاقون إلى البيت، ووقفوا على بابه، وما أن يرى المرء البيت المحرم، البيت المكرم، وتقع عينه عليه، يغلب على قلبه حينئذ **أنه يدعو الله تعالى كما أكرمه سبحانه وتعالى برؤية بيته أن يكرمه برؤية رب البيت سبحانه وتعالى**، وأن يشكر الله تعالى أن جعله في زمرة الوافدين عليه، الداخلين إلى بيته، أن يشكر الله تعالى شكرًا عظيمًا ، ويأخذ في الدعاء عند هذا الحال، فكما يقولون: عند رؤية البيت دعوة مستجابة، ما إن دخلت بيت الله تعالى إلا وأن تدعوه، وأن تتقرب إليه، وأن تبتهل إليه، وأن تدعوه سبحانه وتعالى بعد أن شكرته على أن متعك برؤية بيته؛ انتظارا لرؤيته سبحانه وتعالى، وتذكر بهذا المشهد العظيم كذلك منصرف الناس في الآخرة، كلهم يود أن ينجو، فإذا بهم ينقسمون إلى فريقين، فريق مأذون له بدخول الجنة، هذا الجمع العظيم ليس كله مقبولا، بل يؤذن لهؤلاء المقبولين، ويحرم هؤلاء المطرودين ، فريق في الجنة وفريق في السعير، فعندما وصلوا إمَّا أن يسمح لهم بدخول الباب، وإمَّا أن يغلق في وجوههم فهم المحرمون الذاهبون إلى جهنم ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وحينئذ تستشعر قلوبهم هذا المعنى من معاني الهيبة والإجلال والخطر

فإذا وصل البيت، وانقطعت التلبية وقف أمام بيت ربِّه سبحانه وتعالى، فشكر له هذه النعمة، نعمة الوصول إلى البيت، وهي النعمةُ العظيمة التي لا يشعر بها كثير من المؤمنين، وكذلك استشعر في قلبه عَظَمَة البيت، وعظمة ربِّ البيت سبحانه وتعالى وامتلئ قلبه هيبةً وإجلالاً وخوفًا ورجاءً، فدفعه ذلك إلى الانكسار وطلب الدعاء من الله تعالى واللجوء إليه جلَّ وعلا، بأن يقْبله وأن يأخذ بيده، وأن يدخل به عليه سبحانه وتعالى، فإذا به تزرف دموعه، فهنا تسكب العبرات، وتقال العسرات، وتقبل الدعوات ، وكما قال:

هذه دارهم وأنت محبٌ   فما بقاء الدموع في الأماقي

يعني: هذا بيتهم وأنت محب، فلماذا لا تنزل الدموع! ، ويقول: اللهم زد هذا البيت تعظيمًا وتشريفًا وتكريمًا ومهابة، وزد من شرَّفه وعظَّمه ممن حج أو اعتمر تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا وبرًّا، ويضيف: اللهم أنت السلام ومنك السلام، فحينا ربنا بالسلام، ويدعو بما أحب من مهمات الدنيا والآخرة، وأهم ذلك: سؤال المغفرة.

ثم يبدأ في استلام الحجر، ويبدأ المناسك، التي تُنير له طريقه إلى الآخرة، إلى أن يضع المَلَك يده بين منكبيه قائلاً: اعمل فيما يستقبل فقد غفر لك ما قد مضى.

مشهد استلام الحجر

والمشهد التالي هو مشهد استلام الحجر الأسود ، والعلماء يؤخرونه عن مشهد الطواف، إنما مشهد الاستلام هو الأول. واستلام الحجر الأسود عند الطواف بالبيت، ليس فقط أن يشير ويقول: (بسم الله، الله أكبر) ، وإنما استلام الحجر – كما ذكر كثير من السلف - تجديد للبيعة مع الله تعالى على ألا يعصيه، وأن يخشى كل الخشية أن لا يوفي لله تعالى بهذه البيعة التي بايع الله تعالى، والحجر يمين الله تعالى في الأرض - كما يقولون - يصافح بها من يشاء من عباده، وهذه المصافحة هي تجديد البيعة لله تعالى على طاعته، وعلى عدم مخالفته، وليحذر حينئذ أن لا يوفي لله تعالى، أو أن يغدر بعهده فيكون محروما مطرودا، كما ذكر الله تعالى: ﴿ ... **فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح : ١٠] ومن وفّى لله تعالى وفى الله له.

فبداية الحال أن تعاهد الله تعالى قبل أن تبدأ طوافك بالبيت، أن تبايع ربك سبحانه وتعالى، **وأن تعلن تلك البيعة لله تعالى، أن يكون هذا الاستلام بداية لزوم الطاعة، وبداية اجتناب المعصية لله تعالى،** وأن يأخذ على نفسه العهود والمواثيق أن يوفي لله تعالى بتلك البيعة، ليس فقط: (بسم الله الله أكبر)، ولكن يخشى حينئذ عدم الوفاء ، ولينظر إلى حاله بعد ذلك وهو في مكة، يأكل ويشرب ويتكلم ويضحك، وكأن رحلة الحج صارت رحلة ترفيهية يستكمل فيها المرء حظوظ النفس وشهواتها، كلا، هذا بداية العهد مع الله تعالى.

مشهد الطواف

والطواف بالبيت صلاة، والصلاة هذه أعظم معالم دين الإسلام بعد التوحيد، وهي التي تحتوي على الخضوع والخشوع والتدبر والتعظيم لله تعالى، والهيبة له جل وعلا، والخوف والرجاء، كل هذه المعاني ذكرت في الصلاة، بمعنى أنه يغلب على قلبه حينئذ تعظيم الله تعالى، وتعظيم بيته

جل وعلا، والخوف من أن يرد، والرجاء في أن يقبل، وأن يلقى في قلبه الهيبة لله تعالى، الذي هو طائف ببيته، ويعلم أن هذا الطواف هو بداية حاله التي ذكرنا، فإما أن يكون هو مقبولا في بيته، وإما أن يكون منصرفا متكاسلا، قلبه مع غير ربه سبحانه وتعالى في بيته جل وعلا، حينئذ لا يقبل الله تعالى منه، أو لا يقبل الله تعالى عليه.

أنت في بيته، إذًا أنت مشغول به سبحانه وتعالى، **أنت مشغول بربك هيبة وتعظيما وإجلالا وخوفا ورجاء، مع حضور القلب، والتدبر والابتهال والدعاء والذكر ؛ تشبها ببيت الله تعالى المعمور في السماء السابعة الذي تطوف به الملائكة**، ويرجى لمن كان على هذا الحال أن يترق إلى هذا الحال من التشبه بملائكة الله تعالى فيما هم مقبلون عليه من طاعة ربهم، وعدم عصيانه، وفي أن تترق نفوسهم، وأن تصفو أرواحهم، وأن يكونوا على هذا الحال من القرب من الله تعالى، فأنت في الطواف تكون أقرب إلى الله تعالى، لأنك في فناء بيته سبحانه وتعالى.

مشهد الالتزام

والالتزام أن يمس المرء بجسده الكعبة بين الحجر وباب الكعبة، وهذه لا يحرص عليها كثير من الناس، بأن يلتزم البيت، ويتعلق بأستار الكعبة، فإذا ما دخل المرء في هذا المشهد والتزم الكعبة يرجو بذلك التقرب إلى الله تعالى، ويرجو بذلك التحصن من النار لكل أجزاء بدنه، ويرجو التبرك بمماسة بيته سبحانه وتعالى،

ثم الأعلى في ذلك هو التعلق - كما يقال - بأذيال صاحب الذنب عليك، بمعنى أنك لو أذنبت في حق أحد **فإنك تتعلق بأذياله؛ طلبا لكرمه وعفوه ومسامحته، ولا تترك ذيله إلا وقد سامحك وغفر لك ذنبك، وأمنك في المستقبل أن تعود إلى مثل هذا**. فليغلب على حالك هذا الحال، أن تقترب من بيت الله تعالى، وأن تتعلق بأستاره ترجو عفو رب البيت، وترجو رحمته، ترجو ومغفرته، وأنك لن تترك ذلك إلا وقد عفى عنك، وأمنك فيما يأتي من الزمان، ترجو من الله تعالى العفو والمغفرة والمسامحة عما كان.

مشهد السعي بين الصفا والمروة

وفيه معانٍ كثيرة، نقتصر على بعضها:

الأول: هو الخلوص في الخدمة، أي الإخلاص في خدمة الرب- كما يقول العلماء - فالمرء يسعى ذهابا وإيابا في هذا المكان، تحت نظر الرب سبحانه وتعالى، فبعد أن كنت في بيته سبحانه وتعالى، وكنت تطوف وتدعو وتبتهل إلى الله جل وعلا، فإذا بك قد خرجت إلى فناء البيت، تنتظر: ماذا قضى في حقك رب البيت؟ بمعنى أنك دخلت بيته سبحانه وتعالى وخرجت فلم تعلم بماذا قُضى في حقك، قضى في حقك بمغفرته ورحمته ومحبته ، أم قضى بإبعادك وطردك؟ فأنت متردد بين هذين الحالين، فتذهب هكذا وهكذا كأنك واقف في فناء البيت تنتظر النتيجة أن تظهر، فتسعى مترددا بين الصفا والمروة ترجو في المرة الأولى إذا لم تكن قد قبلت أن تقبل في المرة الثانية، أو أن يغفر لك في الثالثة، أن يغفر لك في الرابعة، وهكذا تجعل ترددك هذا في فناء بيته سبحانه وتعالى تردد الخائف من نتيجته الذي ينتظر أن يغفر له، فأنت تكثر من الدعاء عند الصفا والمروة، وقراءة القرآن، والابتهال، إلى غيرها من المعاني التي يرجى بها أن تكون في محل رحمة الله تعالى، بأن ينظر إليك فيرحمك.

متذكرا بذلك هاجر أم إسماعيل عليها السلام لما كانت في تلك المشقة الشاقة التي لا يستطيعها أحد، فإن وجدت نفسك في هذا الحال وقد ازدادت عليك المشقة، وازداد عليك التعب والعنت تذكرت هذه المسكينة وهي تسعى بين الصفا والمروة تنتظر أن يتولاها الله تبارك وتعالى برحمته، وأن يجود عليها سبحانه وتعالى برفع ما نزل بها وبابنها، وقد تركت ابنها وذهبت إلى جبل الصفا حتى لا تراه وهو في النزع، وأخذت تجري في هذا المكان الطويل تنتظر من يغيثها إلى أن أغاثها الله تعالى.

علمت حالك حينئذ، وعلمت ساعة وقوفك على الصفا ودعائك، وساعة وقوفك على المروة ودعائك، وترددك وذهابك ومجيئك - أنك تنتظر النتيجة، أتدخل في زمرة المقبولين أو تلحق بالمبعدين المطردين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المشهد الثاني: وهو مشهد من مشاهد الآخرة، وهو تردد الناس في القيامة، بين أن يأخذ صحيفته بيمينه أو بشماله، وبين أن يثقل ميزانه أو لا يثقل، فهو من معاني التردد التي ينتظرها

الناس فيه فرج الله تعالى ورحمته، وأن يتعطف عليهم سبحانه وتعالى، فيغفر لهم، فيتذكر هذا الحال يوم القيامة، فيشتد اجتهاده في هذه الحالة، حتى إن كان من المقبولين فيها يُرجى أن يكون من المقبولين يوم القيامة.

مشهد عرفات

وصلنا إلى عرفات وهو الموقف العظيم، الذي ينزل الله تعالى فيه إلى السماء الدنيا، ويقول: "**جاءوني شعثا غبرا أشهدكم أني قد غفرت لهم**"[٦٣]، هذه المغفرة العميمة من الله تعالى تنبئ الناس في اجتماع هؤلاء الخلق، وارتفاع الأصوات، واختلاف اللغات، واختلاف الدعوات إلى الله تعالى، والابتهالات والتضرعات، ومشي الناس خلف أئمتهم ومرشديهم؛ ليدلوهم يذكرهم ذلك بعرصات يوم القيامة، واجتماع الناس حول أنبيائهم، يطمعون في شفاعتهم إلى الله تعالى، حينئذ تجمع قلبك على التضرع والابتهال وكأنك واقف في تلك العرصة من عرصات يوم القيامة تنتظر كما تنتظر في عرفات أن يقال: "**أفيضوا عبادي مغفورا لكم**" فيكثر ابتهالك حينئذ، وتضرعك، ودعاؤك إلى الله تعالى أن يكون هذا القول من الله تعالى لك يوم القيامة وهو: "**أفيضوا مغفورا لكم**"[٦٤] يذهبون إلى جنة الله تعالى، إلى رضوانه، إلى ستره جل وعلا، إلى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

تذكرت هذا الموقف، ونظرت في نفسك، واشتد قلقك، واشتد خوفك، فزادت ابتهالاتك ودعواتك إلى الله تعالى.

---

(٦٣) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢/٢٨ رقم ١١٢٨) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٤٦٠ ، رقم ٤٠٦٨) ، وابن عساكر (٤٥/٣١٦) وصححه ابن خزيمة (٤/٢٦٣ ، بعد رقم ٢٨٣٩)، وابن حبان (٩/ ١٤٦، رقم ٣٨٥٣). ولفظه (إذا كان يومُ عرفةَ نزل الربُّ إلى سماءِ الدُّنيا ليباهيَ بهم الملائكةَ، فيقولُ انظروا إلى عبادي أتوني شُعْثا غُبْرا ضاحين من كل فجٍّ عميقٍ، أشهدُكم أني قد غفرتُ لهم فتقولُ الملائكةُ: إنَّ فيهم فلانا مرهقًا وفلانًا، فيقولُ اللهُ: قد غفرتُ لهم فما من يومٍ أكثر عِتْقا من النارِ من يومِ عرفةَ). ومن من غريب الحديث : "شعثا" : غير مرجلين لشعورهم . "غبرا" : أصابهم الغبار من جهد السفر ، وأداء المناسك . "ضاحين" : بارزين للشمس لا يظلهم شيء .

(٦٤) سبق تخريجه .

وكما يقول العلماء **فهذا المشهد العظيم يشهده الصالحون وأصحاب القلوب السديدة وا لمجتهدون من عباد الله تعالى، وقد اجتمعت هممهم على الله تعالى، وتجردت ابتهالاتهم وضراعتهم لله تعالى، ورفعوا أكفهم وأيديهم إلى الله تعالى، وشخصت أبصارهم إلى السماء ويتضرعون إلى الله ليدعون مجتمعين، فلا تظنن أن يخيب الله تعالى آمالهم.**

هؤلاء لما اجتمع بقلوبهم وفيهم هؤلاء الصالحون وأرباب القلوب هذا هو ما تستدر به رحمة الله تعالى، إنما تستدر رحمة الله تعالى باجتماع الصالحين في مكان واحد، وصعيد واحد، ووقت واحد، يرفعون دعواتهم وابتهالاتهم إلى الله تعالى، يرجى أن تتنزل الرحمة؛ إذ متى تتنزل الرحمة إلا بوجود هؤلاء الصالحين في مكان واحد وفي صعيد واحد وعلى دعاء واحد في ذلك الحال؟ يرجى بذلك أن تتنزل الرحمة. فاجتماعك مع هؤلاء في ذلك الصعيد يرجى به ألا يخيب الله تعالى ظنهم، وأن يغمرهم برحمة منه، يفيضون بها مغفورا لهم سبحانه وتعالى، لذلك ، فهو أقرب المشاهد لتنزل الرحمة والمغفرة.

وفي هذا الموقف قد يوهب المسيء للمحسن ، فقد روي أن الله تعالى يقول عشية عرفة : «**قد وهبت مسيئكم لمحسنكم**» (٦٥).

وحج بعض المتقدمين فنام ليلة ، فرأى ملكين نزلا من السماء ، فقال أحدهما للآخر : كم حج العام ؟ قال : ستمائة ألف . فقال له : كم قبل منهم ؟ قال : ستة . قال : فاستيقظ الرجل وهو قلق مما رأى ، لم يقبل منهم إلا ستة نفر ، فرأى في الليلة الثانية كأنهما نزلا وأعادا القول ، يعني سأله الأول كم حج ؟ فقال : ستمائة ألف ، قال : من قبل ؟ قال : ستة ، وقال أحدهما : إن الله تعالى وهب هؤلاء الحجيج لهؤلاء الستة .

لذلك كان يقول بعض السلف في دعائه : اللهم إن لم تقبلني ، فهبني لمن شئت من خلقك ، يعني : هبني لمن قبلته من خلقك ، فقد يعوض ما يعوض المصاب فيرحم بذلك.

---

(٦٥) قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في القول المسدد (٤٧/١) : رجاله ثقات أثبات معروفون إلا الواسطة الذي بين معمر وقتادة .

وقال بعض السلف في دعائه بعرفة: اللهم ارحمني فإن رحمتك قريب من المحسنين ، فإن لم أكن محسنا فقد قلت: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٣] فإن لم أكن كذلك فأنا شيء وأنت قلت : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] فإن لم أكن شيئا ، فأنا مصاب برد عملي ، وتعبي ونصبي ، فلا تحرمني مما وعدت المصاب من الرحمة، وإن المصاب يعده سبحانه وتعالى أن يرحمه على مصيبته .

وهذه هي المعاني ينبغي أن يناجي بها المرء ربه ، وأن يستعطفه بها سبحانه وتعالى ، وأن يتحنن إليه بها ، يوشك أن يغفر الله له وأن يرحمه سبحانه وتعالى .

مشهد سمع الله تعالى

ومن المشاهد العظيمة التي ينبغي أن يشاهدها المرء في عرفات وغيره من المناسك مشهد سمع الله تعالى. ومشهد سمع الله تعالى يتجلى شيء منه حين نرى هذه الآلاف المؤلفة أو الملايين التي تأتلف قلوبها وألسنتها على دعاء الله تعالى.

كل هؤلاء يدعون الله تعالى بأصوات مختلفة وبعبارات مختلفة وبارتفاع في الصوت أو انخفاض فيه وبمطالب مختلفة. وانظر إلى هذا الأمر: الله تبارك وتعالى يسمع كل هؤلاء بمختلف لغاتهم ومختلف مطالبهم، يستمع إليهم - سبحانه وتعالى - لا يشغله صوت عن صوت ولا سمع عن سمع، ولا يشوش عليه ارتفاع صوت على صوت ولا كثرة الكلام ولا كثرة الطالبين وكثرة المطالب التي يدعون بها، وهو مشهد من أعظم المشاهد التي تُطلع المرء على سمع الله تعالى.

كلهم يدعو ويسبح ويكبر ويهلل وهو سبحانه وتعالى لا يغلطه تسبيح عن تسبيح ولا تسبيح زائد ولا تسبيح مرتفع، ولا لغة عن لغة، ولا قول عن قول، لا يغلطه ذلك في شيء ، الكل مسموع عنده سبحانه وتعالى، يدعوه كل الأجناس والألوان، بكل التسابيح والأدعية، وكل المطالب التي يطلب بها الناس ربهم وهو سبحانه وتعالى يسمعهم ! يسمعهم بكل اللغات، وهذه من آياته سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢] اللسان الإنجليزي والفرنسي والعربي والصيني والماليزي وغيرها ومع ذلك لا يغلطه معنى عن معنى، ولا اسم عن اسم،

ولا دعاء عن دعاء، ولا مرتفع عن منخفض ولا شيء من ذلك سبحانه وتعالى، كله عنده مسموع وكله عنده معلوم وكله عنده إن كان مجابًا فهو مجاب، وإلا فله عند الله حكمة سبحانه وتعالى.

وأجمل من هذا، **أن كل واحد من هذه الآلاف والملايين يظن أنه مختص بالله تعالى وأن ربه سبحانه وتعالى يسمعه هو وحده**، إنما هو - سبحانه وتعالى - يستمع إليهم ويسمع دعاءهم وذكرهم وتسبيحهم وتهليلهم وتلبيتهم يسمع ذلك كله وحده جل وعلا، كل أحد يظن أن الله تعالى يسمعه منفردًا مختصًّا به، وإذا به - سبحانه وتعالى - يسمع هذه الجموع الغفيرة من أن خلقهم إلى يوم القيامة، وأشد من ذلك: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤] الملائكة والجن والإنس، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ ﴾ [الإسراء: ٤٤]: كل شيء خلقه الله تعالى يسبح ربه جل وعلا.

تقول السيدة عائشة – رضي الله عنها – حينما جاءت المرأة تشتكي زوجها إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد أنزل الله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١] ، تقول السيدة عائشة: أنا في جانب الغرفة –- وغرفة النبي صلى الله عليه وسلم تكن غرفة متسعة - أسمع بعض الكلام ويخفى علي بعضه تبارك سمع الله تعالى سمع كلامها وسمع شكواها وسمع تحاور النبي – صلى الله عليه وسلم – ونزل في نفس الوقت هذا القول من الله) [٦٦] أي لم تقم المرأة إلا وقد نزل القرآن الكريم بسمع الله تعالى لهما، وبما قالت، وبشكواها، وبإجابة الشكوى، وحلها من الله تعالى.

---

(٦٦) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به (٦/ ٢٦٨٩) ووصله النسائي (٦/ ١٦٨ ، رقم ٣٤٦٠) ، وصححه ابن حجر في التغليق (٥/٣٣٩). ولفظه (عَنْ عائشة – رضي الله عنها – : قالت : الحمد لله الذي وسعَ سَمْعُهُ الأصواتَ ، لقد جاءَتِ المجادِلَةُ : خَوْلَةُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلَّمته في جانِبِ البيتِ،وما أسْمعُ ما تقول ، فأنزل الله عز وجل { قد سمع الله قولَ التي تجادِلُكَ في زوجها ، وتشتكي إلى اللهِ...} إلى آخر الآية. [المجادلة : ١]).

علمت ذلك وعلمت أنك منفرد بكلام الله وأنه سامع إليك جل وعلا يسمع ذكرك وتسبيحك، يسمع ظاهرك وباطنك، وما تحدث به نفسك، وما تجهر به، وما تخفيه وما تعلنه يسمع ذلك ويعلمه علم اليقين سبحانه وتعالى.

تخيل: ملايين المسائل في نفس الوقت، وملايين الإجابات التي أجابها منذ خلق الدنيا كلها، أو كما روي: "**لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد وسأل كل منكم مسألته فأعطاه الله تبارك وتعالى مسألته ما نقص ذلك من ملك الله شيئًا**"[٦٧].

اطلعت على شيء من كماله وجلاله سبحانه وتعالى ، وعلمت إحاطة سمعه بجميع المسموعات، وأن أي شيء تتفوه به أو تسره أو تكلم به نفسك قد علمت أن الله يسمعه ، فيُفتح عليه هذا الباب من معرفة الرب سبحانه وتعالى فيخرج المرء من ذلك بأمرين، **الأمر الأول: أن تُسمع الله تعالى كل شيء يحب أن يسمعه منك**. فلا يسمع الرب جل وعلا منك شيئًا يكرهه فيعود المرء إلى وطنه وقد علم أن الله تعالى يسمعه، وأنه لا ينطق ولا يسكت ولا يجهر ولا يصمت ولا يكلم نفسه إلا وذلك تحت سمع الله تبارك وتعالى، فقررت ألا تُسمع الله تعالى إلا ما يحب من ذكر وصلاة وانتهيت إلى أن سمع الله يراقبك فانتهيت عمّا لا ينبغي أبدًا أن يَسمعه الرب جل وعلا منك لا ظاهرًا ولا باطنًا.

---

(٦٧) أخرجه مسلم (١٩٩٤/٤ ، رقم ٢٥٧٧)، ولفظه (عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، عن الله تَبارك وتَعالى قال : (يا عِبادِي إِني قَد حَرمتُ الظُلمَ عَلى نَفسِي وجَعلتُهُ مُحرماً بَينَكُم فَلا تَظالَمُوا ، يَا عِبادِي إِنّكُم الذينَ تُخطِئُون بِالليلِ والنَّهارِ وأَنا أَغفرُ الذُنُوبَ ولا أُبَالِي ، فَاستَغفِروُنِي أَغفِر لَكُم . يَا عِبادِي كُلكُم جَائِعٌ إِلا مَن أَطعمتُه فَاستَطعِمُونِي أُطعِمكُم ، كُلكُم عَارٍ إِلا مَن كَسوتُه فَاستَكسُونِي أَكسِكُم ، يَا عِبادي لَو أَنَّ أَولَكُم وآخِرَكُم وإِنسَكُم وجِنَّكُم كَانُوا عَلى قَلب أَتقَى عَبدٍ مِنكُم لَم يَزد ذَلك فِي مُلكِي شَيئاً ، ولَو كَانُوا عَلى أَفجَر قَلبِ رَجُلٍ لَم يَنقُص ذَلكَ مِن مُلكِي شَيئاً ، ولَو اجتَمَعُوا فِي صَعيدٍ واحدٍ فَسأَلُونِي فَأَعطيتُ كُلَّ إِنسانٍ مِنهُم مَا سَأَلَ لَم يَنقُص ذَلك مِن مُلكِي شَيئاً إِلا كَما يَنقُصُ البَحرُ أَنْ يَغمِس فِيه المِخيطُ غمسةً واحدةً ، يا عِبادِي إِنَّما هِي أَعمالُكُم أَجعَلُها عليكُم فَمنْ وجَد خَيراً فَليحمَدِ الله ، ومَن وَجدَ غَيرَ ذَلك فَلا يَلُومُ إِلا نَفسهُ) .

الأمر الثاني: وهو: كيف ينفرد المرء بربه ويعتكف بقلبه على الله تعالى. وهي مسألة عالية ولكن لابد أن يجاهد الناس أنفسهم عليها، كيف يأتنس المرء بالله تعالى ويعلم أن ربه مقبل عليه يسمعه ويسمع كلامه ودعاءه وتسبيحه فإذا هو مقبل على ذلك الرب سبحانه وتعالى الذي قد توجه إليك سمعه سبحانه وتعالى ، أنت تقول: يا رب. وهو يسمع، وينتظر سؤلك سبحانه وتعالى !

قد دعوته حينئذ بهذه الأدعية التي تريد أن تدعو الله تعالى بها، وبهذه الأسئلة التي تسأله سبحانه وتعالى إياها، وبهذه المطالب التي تطلب منه سبحانه وتعالى إجابتها فإذا بك متضرع إليه تعلم أنه يسمع كل هذه الأدعية، وقد علمت أنه مجيب لهذه الأدعية.

كل أحد يدعو الله تعالى بمفرده ويدعوه سبحانه وتعالى بمطالب كثيرة، وهو يظن ويعتقد أكيدًا أن الله تعالى قادر على إجابة هذه الأدعية وأن الله تعالى لا يعجزه من ذلك شيء، وأن الله – سبحانه وتعالى – يجيب كل هؤلاء الناس إذا ما دعوه بمختلف الأدعية وبمختلف اللغات وبمختلف الحوائج كل يرفع إليه أدعية يريد أن يحققها له وهم متيقنون جميعًا سواء كانوا متقين أو عصاة، وهم متيقنون جميعًا أن الله جل وعلا قادر على أن يعطيهم سؤلهم وأن يستجيب دعاءهم وأن يرفع كربهم وأن يخفف عنهم وأن يشفي مرضاهم وأن يوسع أرزاقهم وأن يزوج أولادهم وفي النهاية أن يتوب عليهم وأن يغفر لهم وأن يهديهم وأن يحفظهم وأن يكونوا في دنياهم على خير حال على ما يحب الله تعالى ويرضى، علمت اختصاص الله تعالى بذلك فأكثرت حينئذ من دعاء ربك، وأن تفرد ربك سبحانه وتعالى بالدعاء .

في قصة موسى عليه السلام، حين قال الله تعالى له: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٢٤] انظر إلى سيدنا موسى –على نبينا وعليه الصلاة والسلام- يقول: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [طه: ٢٥-٣٣]

وقف - عليه السلام – يدعو هذه الأدعية الطويلة والله تعالى ينصت إليه ويستمع له سبحانه وتعالى هذا الدعاء وهذا الأنس والحال الحسن الذي يظن ويعتقد يقينًا أن الله جل وعلا سيسمعه

وأنه سيجيبه ويرد عليه سبحانه وتعالى بما طلب، قال الله تعالى له: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦]!

فهذا مما ينبغي أن يكون من حظوظ المؤمنين اليوم كيف يفرد وقته ويأتنس به ويترك كل شيء وكل مشاغله حتى لو كانت هذه المشاغل تشغله فإنه يأخذها ويتوجه بها إلى الله تعالى ويقبل عليه بها يدعوه وينفرد به ويعلم أن الله سامع له – سبحانه وتعالى – منصت إليه جل وعلا، ولكن حينئذ ينبغي أن يعلم المرء أن الله جل وعلا في استجابة الدعاء قد يجيب – سبحانه وتعالى – دعاءه بغيره على مقتضى حكمته، قد يؤخر له إجابة الدعاء إلى حكمته، قد يؤخر له إجابة الدعاء إلى الآخرة أو غير ذلك، ولكن يقينًا هو يدعوه ويأتنس به ويرفع له دعاءه ولكن على مقتضى الأدب وعلى مقتضى الإقبال الحسن وعلى مقتضى إجابة الدعاء، وكذلك في نفس الوقت يسمع تسبيحه وتهليله فيأتنس به ويقبل عليه ويذكره، ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

حظك الأول من هذا المشهد حسن المراقبة لله تعالى ؛ بأن يكون كل تصرفك من قول تقوله تحدث به نفسك أن تعلم أن الله تعالى سميع لك سبحانه وتعالى، لأن السمع له جزء من المراقبة التي هي من الدرجات العالية في الإحسان، "الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه"[٦٨] هذه الرؤية ينظر إليك وهذا السمع يسمع لك سبحانه وتعالى.

وكان الحظ الثاني هو المجاهدة، أنك لا تنطق شيئًا أو تسكت عنه إلا علمت أن الله يسمعه ويطلع عليه وقد أخذت نفسك وعاهدتها على أن تجاهد نفسك على ألا يسمع منك – سبحانه وتعالى – بعد ذلك إلا ما يحب ويرضى فسلكت هذا السبيل وهو سلوك المجاهدة على ألا تنطق إلا بما يحب كما قال – سبحانه وتعالى -: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨] "عتيد" : أي حاضر، لا كما يظن البعض أن معنى عتيد أنه قديم، ولكن معنى عتيد أي حاضر عنده ساعة لفظه.

---

(٦٨) أخرجه البخاري (١/٢٧ ، رقم ٥٠) ، ومسلم (١/٣٩ ، رقم ٩) ولفظه (فأخبرني عن الإحسان ، قال : «أن تعبدَ الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تَراه ، فإنه يَراكَ»).

واستفدت الحظ الثالث وهو أن تحاول على أن تأخذ بشيء من حظك من الائتناس بالله تعالى. اجلس إلى ربك سبحانه وتعالى وبثه شكواك ودعاءك وثناءك وتسبيحك وتهليلك خذ بنفسك إليه هو وحده سبحانه وتعالى واعلم أنه سبحانه وتعالى سامع لك منصت لكلامك، ائتنس به سبحانه وتعالى وقل له ما شئت وتضرع إليه حينئذ وأنت تقول وتتأدب معه وأنت تقبل عليه وتحسن أقوالك التي تريد أن تبثها له سبحانه وتعالى وقل له ما شئت، هو سامعك سبحانه وتعالى.

مشهد قُدرة الله تعالى

المشهد التالي الذي نريد أن نقتطف شيئًا منه حال انشغالنا بالمجيء والذهاب والطواف والتسبيح والصلاة وكذا وكذا هو: عظم قدرة الله تعالى.

وقف كل أولئك يدعون ربهم وقد تقرر عندهم أن الله تعالى قادر على أن يعطي كل هؤلاء ما طلبوا، ولن يُعكر أحد على أحد فيقول أحدهم مثلاً : أنا أطلب مسرعًا قبل أن ينتهي ما عند الله تعالى، أو أطلب منه مالاً قبل أن يأخذه هؤلاء، أو أطلب منه كذا قبل أن ينتهي ما عنده من كذا ، لم يفكر أحد أبدًا أن ما عنده ينفد سبحانه وتعالى من جميع هذه المطلوبات، أو يسابق ليأخذ حظه قبل أن تنفد هذه الخزائن. لا، بل كما قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦]

وعنده سبحانه وتعالى خزائن السماوات والأرض وملك السماوات والأرض لا يغيض من ذلك شيء، لو سأله الجن والإنس كلهم في الدنيا وما قبلها وبعدها لم ينقص ذلك من ملكه شيئًا !

علمت أن الله تعالى إذًا قادر سبحانه وتعالى على أن يعطيك أنت ما تريد، وقد علمت أن ما تريد يساوي صفرًا فيما يريد كل الناس فعلمت أنك أنت وكل الناس في قدرة الله تعالى على تنفيذ مطلوباتهم لا تساوون شيئًا وعلمت أنك لا شيء، وأن طلباتك كلها لا تساوي شيئًا، فكيف تستكثر على الله تعالى مطلوباتك! هي ومطلوبات الخلق جميعًا لا تساوي شيئًا في قدرة الله تعالى الذي يقول للشيء سبحانه وتعالى: كن فيكون. فلمَ تتوجه إلى غيره سبحانه وتعالى بالسؤال والطلب؟ ولمَ تطلب من غيره؟ ولِم تظن أن غيره قادر على أن يعطيك أو يمنعك أو أن ينفعك أو أن يضرك أو أن يتوصل إليك بشيء أو أن يقوم لك بشيء أو أن يحقق لك شيئًا؟

توكل على الحي الذي لا يموت، وأفرده إذن بتوحيد طلبك، لا تطلب إلا منه ولا تستعين إلا به، قد علمت أن مطلوباتك في جملة مطلوبات أهل الحرم فقط لا شيء، ماذا تساوي مطلوباتك في مطلوبات هذه الآلاف؟ وماذا تساوي في مطلوبات الآلاف منذ أن خلق الله الكون؟ ماذا تساوي في مطلوبات أهل الدنيا كلهم وأهل الآخرة؟ لا تساوي شيئًا. فكيف تستكثر شيئًا على الله تعالى الله أكثر، والله أكبر، والله أجل، والله أقوى، والله أقدر سبحانه وتعالى.

علمت ذلك وانشرح صدرك **بأن تطلب من الله تعالى كل شيء ولا تستكثر عليه شيئًا**، ولا تظن أن شيئًا لا يمكن أن يقع أو أن يتحقق أو أن السماء كما يقولون: لا تمطر ذهبًا ولا فضة .. ومن أين ومن أين ؟! لا، من عند خزائنه التي لا تنفد ومن قدرته التي قال عنها – سبحانه وتعالى -: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، سبحانه وتعالى كل شيء تظنه لا شك أن الله قادر عليه، كيف تقول إذن: كيف يتحقق هذا الأمر؟ لأن هذا الأمر - مهما عظم - لا يساوي شيئًا في ملكوت الله - عز وجل- في قدرة الله تعالى، نعم لا يساوي شيئًا فالدنيا كلها تقول يا رب يا رب. وهو قادر على أن يعطيهم كلهم جل وعلا، وأن يعطي غيرهم وغيرهم وغيرهم في علم الله الذي لا ينتهي، وتلك قدرته إذن التي تتطلع إلى الطلب منها، وإلى الأخذ منها، وأن تكون حينئذ قادرًا بالله تعالى، عندما علمت أنك شيء ضئيل في كون الله صفرًا في كون الله تعالى، فكيف تظن أن لك قدرة، إذ أن القدرة لله جميعًا كما أن القوة لله جميعًا.

قد علمت أنك عندما ترتكن إلى قدرة الله تعالى فإنه يعطيك من قدرته التي لا يحدها شيء، فصرت قادرًا بالله تعالى مستطيعًا بالله تعالى، تجردت في توحيدك له لا بقدرة نفسك أبدًا ولا بقوتك ولا بمالك ولا بجاهك ولا بسلطانك ولا بشيء من ذلك، كل ذلك مضمحل في جنابه، وإنما ارتكنت إلى قدرته سبحانه وتعالى وحده جل وعلا، وعلمت أنه يحقق لك كل شيء، ما تتخيله وما لا تتخيله، وما تظن أنه لا يمكن أن يقع أو لا يمكن أن يتحقق، كلا إن الله كان على كل شيء قديرًا سبحانه وتعالى، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٧] ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥].

توجهنا إذن بهذين الأمرين إلى الله، وكأننا صفر لا يساوي شيئًا لا قدرة لنا ولا شيء، تجردنا من كل قدرة إلى قدرته، ثم اتكلنا واستقوينا بقدرته هو وحده -سبحانه وتعالى-. وطلبنا من قدرته ليحقق بقدرته لنا كل ما يمكن أن يتحقق في نظر البشر وما لا يتحقق!

مشهد رمي الجمرات

إن كنت قد بدأت مشهدك مع الله تعالى في استلام الحجر بتلك المبايعة لله جل وعلا على أن توفي لله سبحانه وتعالى بالطاعة، وأن توفي له بعدم المعصية والخروج عن أمره - فإنك عندما ترمي هذه الجمرات إنما تتشبه بإبراهيم عليه السلام في رميه الشيطان عندما آتاه ليفتنه، أو ليبعده عن طاعة الله، أو ما أمره به، فقد جاءه الشيطان عندما أخذ ابنه ليذبحه لله تعالى، وقال له: تذبح ابنك؟ فرماه بسبع حصيات، كما ذكر ابن عباس: الشيطان ترجمون، وملة أبيكم إبراهيم تتبعون.

إذن مشهد رمي الجمرات - ليس فقط رميا للحجارة ، وإنما يغلب على قلبك حينئذ هذا الحال الحسن، وهو **رمي إبراهيم عليه السلام الشيطان عندما اعترضه لئلا يتبع أمر الله تعالى**، أو أن يخالف أمر الله جل وعلا.

والمعنى الثاني الذي يهل على قلبك **أنك قد عاهدت الله تعالى على أنه كلما عرض لك الشيطان تذكرت حينئذ أن تقذفه بتلك الحصيات في وجهه، أي بأن ترده مدحورا مرغوما أنفه، لا تطيعه**، بل قد علمت طريقك إلى مراغمة الشيطان وإلى دفعه، وإلى دفع وسوسته، وأنك قد أخذت ذلك العهد مع الله تعالى ألا تطيعه في شيء، وألا تأتمر له بأمر، أو أن تقع فيما يريد أن تقع من مخالفة الله تعالى.

قد عاهدت على ذلك، وأخذت حظك من هذا الحال الحسن، فكلما رميت الشيطان تذكرت أنك لا تطيعه بعد ذلك أبدا، وأن تراغمه، وأن تخالفه، وأنه مهما جاءك الشيطان قذفت في وجهه بالاستعاذة وبالقرآن وبالصلاة وبالذكر وباتباع النبي صلى الله عليه وسلم وبكل ما تقدر عليه من دفعه حتى يندفع، فلا تطيعه، ولا تسمعه.

وهذا الحال هو الذي ينبغي أن تعود به من رحلتك إلى الحج، فختمت أعمالك بمراغمة الشيطان ووقفه وقذفه ورميه بكل ما تستطيع من مدافعة الله لك سبحانه وتعالى؛ حتى لا يتمكن منك هذا الشيطان.

مشهد ذكر الله تعالى

وهو ما نختم به الكلام عن المشاهد وهو المشهد المهم الذي ينبغي أن يخرج به المرء من رحلة الحج، وهذا المشهد يتبين به، أن الحج من أوله إلى آخره إنما هو مشهد ذكر الله تعالى.

وهذا يظهر لمن يلاحظ آيات الله تعالى في الحج، فهذه الآيات الكريمات التي تكلمت في الحج، عبرت أكثر ما عبرت عن ذكر الله تعالى، في كل حالات وأعمال الحج؛ فلا تقابل آية من آيات الحج إلا وفيها الأمر بذكر الله تبارك وتعالى.

يقول المولى سبحانه وتعالى:﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨]، وكأن هدف هذا الحج هو أن يأتي الناس من كل فج عميق؛ لماذا ؟ ﴿ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ أليس كذلك؟

وبعد أن تكلمت الآيات في سورة الحج عن البيت العتيق وشعائر الله والهدي والذبح، رجعت مرة أخرى إلى:﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥] .

وفي آيات سورة البقرة، يقول سبحانه وتعالى:﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ ﴾ [البقرة: ١٩٨-١٩٩] وبعد ذلك: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٠٣] .

وحتى بعد أن قضى المرء مناسكه قال تعالى:﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ، والسبب في أمرهم أن يكون الذكر كذكرهم آباءهم أو أشد ذكرًا، أن الناس في الجاهلية كانوا إذا حجوا وانتهت مناسكهم، ذهبوا إلى الأسواق المشهورة في مكة المكرمة، كذي المجاز وعكاظ بعد أداء المناسك ليتفاخروا بآبائهم ومآثرهم وغزواتهم وكرمهم وأخلاقهم وأنسابهم وأحسابهم طول الأيام التي بعد الحج. وكان لا شيء عندهم أعظم من أن يذكروا آباءهم، أشد الذكر والتكريم والتبجيل .

جاء القرآن ليقول: لتنتهي هذه العادة من عادات الجاهلية، وكما كانوا يذكرون آباءهم وأسلافهم ومآثرهم، ويقضون هذا الوقت الشديد والطويل في ذكر هذه المآثر ولا يملون من هذا المديح وهذا الثناء، أن يذكروا الله تعالى ذلك الذكر الشديد، وقال:﴿ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ لأنه لو أمرهم أن يذكروا الله تعالى مثلما يذكرون آباءهم، لكان معنى ذلك أن يستوي ذكر الله تعالى بذكر هؤلاء البشر، لذلك أتت ﴿ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ لأن المؤمنين يذكرون الله تعالى أكثر من ذكرهم آباءهم وأمهاتهم والخلق أجمعين.

وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في أيام منى: «**هذه أيام أكل وشرب وذكر لله تعالى**»[٦٩] فحتى في هذه الأيام من أيام أعياد المسلمين، التي يكون الناس فيها أضياف الله تعالى، وكان من كرمه أن يجعلهم يأكلون ويشربون، ولكنه أيضًا أمرهم فيها بذكر الله تعالى.

فكان المعنى العام: أن الله سبحانه وتعالى أمر بالذكر عند كل موقف من مواقف الحج: عند المشعر الحرام، في عرفات، عند الإفاضة من عرفات، في منى، في رمي الجمار، في النحر، ثم بعد قضاء المناسك، كل ذلك أمر فيه بذكر الله تعالى.

ويستفيد المرء من ذلك، أن قضية الذكر هي القضية التي يخرج بها من رحلة الحج، ليتحقق بهذا القول من كلام الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ

---

(٦٩) أخرجه أحمد (٥/٧٥ ، رقم ٢٠٧٤١) ، ومسلم (٢/٨٠٠ ، رقم ١١٤١).

أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ، فهذا هو المطلوب وهو الأهم وهو الأشد للمؤمنين المتقين؛ فلا يهملوا في هذا الذكر، ولا يقصروا فيه، ولا يتقاعسوا أو يتكاسلوا عنه، وليبدأوا عهدًا جديدا مع الله تعالى بعد عودتهم من رحلة الحج، عهدٌ قد ارتفع فيه ذكرهم، وتحسنت أحوالهم، واشتدت الصلة بينهم وبين ربهم سبحانه وتعالى، وتقدموا في سيرهم إلى الله جل وعلا.

والأمر الأول الذي يحمل المرء على المحافظة على هذا الذكر، أن الذكر في مثل هذه الحالة هو أقوى الأدلة التي تبين أن هؤلاء الحجيج قد أدوا هذه المناسك على رجاء القبول من الله تعالى؛ فظهر أثر هذا القبول في ذكرهم لله تعالى؛ فكأن ذكر الله تعالى هو التوفيق الذي يوفق الله تعالى به عباده إذا ما قبل أعمالهم جل وعلا.

أما أن يكون المرء مقبلاً على الطاعة، ملبيًا، ذاكرا، حال مناسكه، فيكون أثر هذه الطاعة هو الغفلة وقلة الذكر! فإن ذلك يدل أول ما يدل على عدم تأثير هذه الطاعات، فلم يكن لها قيمة في قلب المرء؛ لأن أول قيمة تضعها الطاعة في قلب المرء، أن يظهر ذكره لربه سبحانه وتعالى، وإدمان هذا الذكر، وشدته والإقبال عليه.

والأمر التالي في الذكر، **أن يكون هذا الذكر على معنى شكر الله تعالى**: وهذه تظهر كذلك الآيات في آيات الحج، التي قد أمر المولى سبحانه وتعالى فيها بالشكر، في قوله:﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج:٣٦-٣٧] فكانت كثرة الذكر دليل الشكر.

وهذا المعنى معلوم في تعاملات المرء ؛ فعندما يسدي أحدٌ للمرء معروفا أو مجاملة أو إحسان تجده يكثر من ذكره، فيقول: (فلان رجل طيب، فقد فعل لي كذا وكذا)، ولله المثل الأعلى؛ فكثرة الذكر مطلوبة من المرء؛ ليدل بها على شكره لله تعالى، وكلما أكثر ذكر الله تعالى؛ فإنه قد استشعر كثرة النعم، وعظم هذه النعم التي أنعمها عليه؛ إذ كيف يعطيه هذه النعم كلها سبحانه

وتعالى، ويسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة في بدنه وفي نفسه وفي أعماله وفي طاعاته، ثم بعد ذلك يكون شكر هذه النعم، الغفلة عن المنعم سبحانه وتعالى !

وهذه مسألة مهمة أنك إنما تشكر الله تعالى على هذه النعم الذي أعطاك، بمثل ما أعطاك سبحانه وتعالى، فيكون شكر نعمة الذكر، هو دوام هذا الذكر وشدة هذا الذكر.

ثم الأمر المهم بعد ذلك في الذكر وهو: أنه إذا خرجت من العبادة بذكر الله تعالى، وشدة الذكر التي أمر الله تعالى بها، يوشك أن يلين قلبك لله تعالى، فتأخذك كثرة الذكر باللسان إلى ذكر القلب، فيتواطؤ ذكر القلب مع ذكر اللسان، إلى أن يكون قلب المرء بعد ذلك موصولا بالله تعالى على الدوام، متعلقا به؛ فيتحقق بذلك سعادة المرء في الدنيا والآخرة.

إذا وصلت إلى هذه المرحلة، التي يذكر المرء فيها ربه على كل حال، كما قال: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]

ترتب على ذلك فوزك بالمغفرة، فلو خرجت من الطاعة بذكر الله تعالى، فاعلم أنك قد فزت فوزًا عظيمًا، لأن ذلك طريق المغفرة، طريق المحبة، طريق التعلق بالله تعالى، طريق الوصول إلى الله تعالى، لأن الباب الأعظم للدخول على الله سبحانه وتعالى هو الذكر.

وذلك لأن المرء إذا خرج فاتر النفس، ضعيف الذكر لله تعالى، فأنى يصفو قلبه؟ وأنى يقبل به على الله تعالى؟ وأنى يقوى هذا القلب على الطاعة؟ وأنى يمتلئ القلب بمحبة الله تعالى، ويمتلئ بتوحيده وبالتعلق به؟ متى يصل إلى الله تعالى على الغفلة؟ هل وصل الواصلون إلى الله تعالى بالغفلة؟ هل دخلوا عليه بالغفلة؟ هل غفر لهم بالغفلة؟ هل ملأ قلبهم إيمانا وتوحيدا ونورا ومحبة وذكرا وخوفا ورجاء وغير ذلك من حقائق الإيمان بالغفلة؟

المحصلة إذن، **أن الحج وما فيه من أعمال، عودت المرء على الذكر، ودوام الذكر، وشدة الذكر، حتى أصبح حاله بعد ذلك على دوام الذكر وتواطئ القلب مع اللسان فيه**، فكان ذلك سببًا للفوز بالمغفرة، فأصبح حاله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:« **رجع من حجه كيوم ولدته أمه**»[(٧٠)] رجع لا ذنب

---

(٧٠) رواه أحمد (٢/٢٤٨ ، رقم ٧٣٧٥) ، والبخاري (٢/٥٥٣ ، رقم ١٤٤٩) ، والنسائي (٥/١١٤ ، رقم ٢٦٢٧) ، وابن ماجه (٢/٩٦٤ ، رقم ٢٨٨٩) ، وابن حبان (٩/٧ ، رقم ٣٦٩٤).

له، رجع وقد تواطأ قلبه مع لسانه على الذكر ، رجع على طريق الوصول إلى الله تعالى، ودوام الوقوف ببابه جل وعلا.

والنقطة المرتبطة بذلك بعد نهاية الحج، أنه ينبغي لهؤلاء الحجيج بعد الحج أن يغلب على قلوبهم الحزن والهم والخوف ألا يكونوا في زمرة المقبولين عند الله تبارك وتعالى، وأن يعلموا أن لقبول الحج علامات؛ لينظروا في أنفسهم هل تحققت تلك العلامات أو لا.

وإن أول هذه العلامات هو التجافي عن دار الغرور، والإقبال على دار الأنس بالله تعالى وحده جل وعلا، وأن تتزن أعمال المرء بميزان الشرع الشريف، وأن يبدأ في تجهيز جهازه للقاء الله تعالى، والرحيل من الدنيا - إذا ظهر عليك ذلك ، ثق إن شاء الله تعالى بفضله وكرمه أن تكون من المقبولين. ويكون رجوعك حينئذ كما ذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم: " **أن يضع الملك يده بين منكبيه ويقول: اعمل فيما يستقبل فقد غفر لك ما قد مضى**".(٧١)

وإذا كنت على غير هذا الحال فحاول أن يغلب عليك الاستغفار والرجوع إلى الله تعالى في هذه الزمرة؛ لأن تلك المشاهد والآداب الباطنة في أعمال الحج إذا لم تتحقق لم يكن حظه من هذا الحج إلا العناء والتعب، والرجوع بغير شيء، وقد رأينا ذلك في كثير من الحجيج، رجعوا بتلك الأحوال التي لا توصف بالقبول. ينبغي أن تكون هذه الأحوال في بال المؤمنين؛ ليكون ذلك طريقهم إلى الرجوع إلى طريق الآخرة.

زيارة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم

ننتقل إلى زيارة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، وفيها بعض المشاهد؛ فما أن تقع عين المرء على حوائط مدينة النبي صلى الله عليه وسلم إلا ويقع في قلبه أن تلك البلدة التي اختارها الله تعالى لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم، وفيها نزلت الشرائع، وفرضت الفرائض، وكذلك فيها جاهد النبي صلى الله عليه وسلم أعداء الله تعالى، ورفع رايته سبحانه وتعالى، وفيها تربته صلى الله عليه وسلم.

---

(٧١) سب تخريجه.

حينئذ يغلب على قلبك أنه **ما من موقع يمكن أن تمشي فيه إلا ويمكن أن يكون الموقع الذي كان يسير فيه النبي صلى الله عليه وسلم في سكك المدينة** ، حينئذ تمشي على السكينة والتعظيم والوقار والخشية أن تكون موضع أقدامك هي موضع أقدام النبي صلى الله عليه وسلم العزيزة، وما أودع الله تعالى في قلبه من معرفته ومحبته جل وعلا، ورفع ذكره مع ذكر الله جل وعلا، وإحباط عمل من يمس حرمته صلى الله عليه وسلم ولو برفع صوته على صوت النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه كثيرا منا يغيب عنه تلك الأحوال من أحوال القلب في تلك الزيارة.

ثم يتذكر أصحابه صلى الله عليه وسلم الذين اتبعوه وآمنوا به، وليعظم في قلبه الأسف على أنه لم يكن من أصحابه، ولم يستمتع بمشاهدته وسماع كلامه صلى الله عليه وسلم، ويدعو الله حينئذ أنه إن كان لم يره في الدنيا ألا يحرم رؤيته في الآخرة.

وليعلم كذلك أنه إن فرط في شريعته في شيء يوشك أن يحرم هذه الرؤية يوم القيامة، العلماء يقولون: إن فرط في شريعته في شيء ولو في دقيقة من الدقائق يمكن أن يحرم رؤيته يوم القيامة يقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث صحيح: "**يرفع إلي أقوام فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فيقول: سحقا** "[(٧٢)] أي فليذهبوا إلى الجحيم هؤلاء الذين فرطوا في أمره.

ولكن - على أي حال - ليغلب على قلبك هذا الرجاء في الله تعالى أن يجمعك الله تعالى به، وألا يحرمك رؤيته، فقد رزقك الإيمان سبحانه وتعالى، وأشخصك من وطنك وفارقته وأهلك لرؤية آثاره صلى الله عليه وسلم لا لجاه ولا لدنيا ولا لتجارة، يوشك أن ينظر الله تعالى إليك فيرحمك.

فإذا ما أتيت بعد ذلك مسجده علمت أن هذا المسجد الذي هيأه الله تعالى لنبيه ولأفضل الناس في الدنيا ولأول المسلمين وأفضلهم، هم أفضل الناس بعد الأنبياء، وهو الذي هيأ هذا المكان المسجد

---

(٧٢) أخرجه أحمد (١/٣٨٤ ، رقم ٣٦٣٩) ، والبخاري (٥/٢٤٠٤ ، رقم ٦٢٠٥) ، ومسلم (٤/١٧٩٦ ، رقم ٢٢٩٧) . ولفظه: (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ وَلَيُرْفَعَنَّ مَعِي رِجَالٌ مِنْكُمْ ثُمَّ لَيُخْتَلَجُنَّ دُونِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ).

لإقامة شعائره سبحانه وتعالى، تدخل حينئذ ذلك المسجد خاشعا معظما لله تعالى، فما أجدر هذا المكان بأن ينتزع الخشوع من قلوب المؤمنين!

ثم تأتي لزيارته صلى الله عليه وسلم وأنت تزوره ميتا كما كنت تزوره حيا، تقف بعيدا منه، معظما له، ممتثلا، واقفا بين يديه، تسلم عليه، وتعلم أنه يعلم سلامك ويعرف أنك تسلم عليه وتصلي عليه كما ذكر في "**إن لله ملائكة سياحين يبلغوني سلام مَن سلم علي من أمتي**"(٧٣)، صلى الله عليه وسلم، فكيف بك وأنت لا تسلم عليه بلسانك فقط بل قد حضرت إلى قبره صلى الله عليه وسلم ببدنك تسلم عليه وتصلي عليه؟! فإذا كان من صلى عليه صلى الله عليه وسلم مرة بلسانه صلى الله عليه عشرا فما بالك وقد أتيت بنفسك وبدنك لتسلم عليه وتصلي عليه؟! فانظر إلى عظيم هذا الأجر من الله تعالى.

---

(٧٣) أخرجه عبد الرزاق (٢/٢١٥ ، رقم ٣١١٦) ، وأحمد (١/٤٤١ ، رقم ٤٢١٠) ، والنسائي (٣/٤٣ ، رقم ١٢٨٢) ، وصححه ابن حبان (٣/١٩٥ ، رقم ٩١٤) ، والحاكم (٢/٤٥٦ ، رقم ٣٥٧٦) وقال : صحيح الإسناد . ولفظه (عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – : قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : «إِنَّ لِله تعالى مَلائِكة سَيَّاحِينَ في الأرضِ يُبَلِّغُونِي من أُمَّتِي السلامَ»).

الفصل الرابع

وصف الرحلة

نختم الكلام عن رحلة الحج، بوصف الرحلة وما فيها من المناسك والآداب؛ وذلك حتى يستفيد الحجيج ويحفظ الناس هذه المناسك، ويتأدبوا بهذه الآداب التي يرجون بها رحمة الله تعالى، سواء حجوا أو لم يحجوا. وعمدتنا في هذا الشرح كتاب الإيضاح في مناسك الحج والعمرة، للعالم الرباني، الإمام النووي رحمه الله فهو من أجمع وأوجز ما كتب في ذلك.

آداب السفر إلى الحج

أول ما يبدأ طالب السفر إلى الحج، ما يسميه العلماء آداب السفر، وهذا الفصل من الفصول المهمة لطالب السفر للحج أو العمرة مطلقا حتى تأتي مناسكه على النهج السليم والخلق القويم؛ رجاء القبول وبداية لتوبة نصوح يرجع بعدها بفضل الله تعالى مغفور الذنب، مقبولا عند الله تعالى، مؤثرًا للباقي على الفاني، مقلعًا عن الذنوب والمعاصي.

نشير إلى هذه الآداب؛ حتى يعلمها من أراد الحج ولا يضيع منها شيئا؛ حتى يبر حجه، ولا ينسى المرء طوال رحلته أن يتذكر مشهد السفر إلى الله تعالى الذي شرحناه في مشاهد الرحلة.

الأدب الأول: يستحب أن يشاور من يثق في دينه وخبرته وعلمه في الحج، عن مناسبة هذا الوقت للحج، هل يستطيع الحج أو العمرة هذا العام؟ فإن نصحه بذلك أخذ بالنصيحة؛ فهو يشاور في الوقت المناسب للحج أو العمرة، لا يشاور في أعمال الحج والمناسك لأن هذا ليس فيه مشاورة، وبعدها: الاستخارة؛ فيصلي ركعتين من غير الفريضة ويدعو بدعاء الاستخارة المعلوم، وليمض بعد ذلك إلى ما ينشرح إليه صدره، وتكون كما أشرنا في الوقت ليس في المناسك نفسها؛ فلا استخارة في أن يفعل أو لا يفعل العمرة أو الحج، وإنما الاستخارة والمشورة في هذه الأعمال على توقيتها فقط: هل هذا الوقت مناسب أو لا؟

الثاني: إذا استقر عزمه على السفر بدأ بالتوبة من جميع المعاصي والمكروهات، والخروج من مظالم الخلق، وهذا أمر مهم لكل أحد على الإطلاق، وخاصة من أراد الحج أو العمرة.

الثالث: أن يقضي ما أمكنه من ديونه، فإن كان عليه ديون، ينبغي أن يقضي ما يتمكن من هذه الديون؛ حتى يذهب إلى الله تعالى ليس عليه شيء، وكذلك يستحل من كان بينه وبينه معاملة في شيء من الأشياء، فلا تدخل على الله تعالى بالمعاصي والذنوب، أو بالديون والمعاملات السيئة بينك وبين الخلق، وبعد ذلك وأن يكتب وصيته، وذلك لتحقيق معنى قطع العلائق بينه وبين من وراءه من الأهل والولد، وليكون تعلقه بالله تعالى، وليكون قلبه مفردا لله جل وعلا تعلقا به حتى تتم مناسكه على الوجه الصحيح، لا على وجه أنه يود أن يرجع مرة أخرى.

وهو المعنى المماثل لمعنى الخشوع في الصلاة، في قوله صلى الله عليه وسلم: « **صل صلاة مودع**»[1] حتى يأتي بصلاته على أفضل ما يمكن، وكذلك يكتب وصيته قبل الحج، حتى يأتي بحجه على أفضل ما يمكن، وأن يوكل من يقضي عنه دينه، إذا لم يتمكن من قضاء دينه، وعليه كذلك أن يترك لأهله نفقتهم ذهابًا وإيابًا، يعني: في وقت سفره ذاهبًا وراجعًا ما يتمكنون به من معيشتهم كما لو كان هو موجودًا.

الرابع: أن يجتهد في إرضاء والديه، أو من يتوجب عليه برهم وطاعتهم، وإن كانت زوجة استرضت زوجها وأقاربها كذلك.

الخامس: أن يحرص على أن تكون نفقته حلالاً خالصة من الشبهة، كما ذكرنا في بر الحج.

السادس: وهي مسألة مهمة من مسائل إخراج الشح والبخل، يستحب أن يستكثر من الزاد والنفقة؛ ليعاون منها إخوانه، ويكون طيب النفس لما ينفق؛ ليكون أقرب إلى القبول، فيستكثر من النفقة، ولا ينتظر النفقة من أحد، بل عليه هو أن يزيد نفقته حتى إذا احتاج إخوانه لشيء، واساهم مما معه من نفقة، أو ليتوسع في بر الحج من: إطعام الطعام، والصدقة على أهل البيت الحرام، أو من حرم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وليكن هذا الزاد زادا طيبا كما قال تعالى:﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، فكل ذلك يزيد به بر حجه، ويرجى له أن يكون مقبولا.

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٣٩) وقال : رجاله ثقات.

السابع: يستحب ترك المماحكة والخصومة والمشاحنة والمشاحة فيما يشتريه لأسباب حجه، وكذلك في كل شيء يتقرب به إلى الله تعالى، فلا يقول لك: هذا بعشرة فتقول له: لا هذا بأربعة! لأن كل ما تدفعه لن يضيع عند الله تبارك وتعالى؛ فكل ما تتقرب به إلى الله تعالى لا تحاول أن تسترخص فيه، ولا تحاول أن تنزل يعني في سعره وتبخس في قيمته، لا، لا تماحك ولا تشاح ، إذا لم يعجبك هذا اذهب إلى غيره من غير مشاحة، ولا مساومة؛ فأنت ترجو بزيادة إنفاقك زيادة ثوابك عند الله تعالى، والنفقة في الحج بسبعمائة ضعف.

وقد ذكرنا أن عمر رضي الله عنه اشترى نجيبًا بثلاثمائة دينار، وقال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: يبعه بثلاثمائة ويشتري به بدنًا كثيرة، يعني: يشتري به عدة نوق فيكونوا أكثر لحما قال: النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا؛ لذلك قال المولى سبحانه وتعالى:﴿ **لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ** ﴾ [الحج: ٣٧] ثم قال:﴿ **وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ** ﴾ [الحج: ٣٦] يعني: لا بد وأن يستعظمها وأن يستحسنها وأن يستكبرها، فتكون الكبيرة الثمينة الغالية المستحسنة هي التي يقدمها إلى الله تعالى، فلا يذهب وينتقي الرخيصة الجعفاء التي لا تساوي شيئا، ويستقل ذلك على نفسه، ويبخل به على ربه ولكن يتعلم المرء أن يخرج من كل هذه الأخلاق السيئة في معاملاته مع الله تعالى.

الثامن: وهي مسألة مهمة وإن كانت على الاستحباب والجواز كذلك يقول: يستحب ألا يشاركه غيره في الزاد والراحلة والنفقة، وهي مسألة ينبغي فهم معناها.

يقول الإمام النووي: إن ترك المشاركة أسلم له؛ لأنه يمتنع بسببها من التصرف في وجوه الخير، فالمعنى أنه يستحب له أن يختص بنفسه في نفقته وزاده حتى لا يكون سببًا في ترك أفعال الخير وأفعال البر والمعروف.

وهو على عكس ما يفعل الناس اليوم، أن كل أحد يختص بنفقته وطعامه وشرابه؛ لكي يأكل هو "ويتحرق الباقي" ! فلا ينظر إلى أحد ولا يفكر في أحد، وإنما يفكر في أن طعامه على قدر حجه وماله على قدر حجه، وهداياه وكذا وكذا، ولا يفكر في أن يواسي أحدا، ولا أن يعطي أحدًا، ولا أن يتفضل على أحد، ولا أن يكرم أحدًا !

الإمام النووي مقصوده عكس ذلك، أنه لا يستحب أن يشاركه أحد في ذلك حتى لا يكون سببًا في ترك أفعال البر؛ لأنك لو شاركت أحدا في زادك ونفقتك وراحلتك وطعامك وشرابك لم تتمكن من الإنفاق؛ لأنه سيكون رقيبا عليك، ويقول لك: لا تنفق، يكفي هذا ، أما أن تكون منفردًا ، فأنت تستطيع أن تستكثر من الصدقة ومن إطعام الطعام ومن إكرام الإخوان، وغير ذلك من أعمال البر في الحج.

ولأنه كما يقول: فإنه يمتنع بسبب ذلك من التصرف في وجوه الخير والبر والصدقة، ولو أذن له شريكه لم يوثق باستمرار رضاه؛ حتى لو كان معه شريك وأذن له في أن يتصدق وأن يبر يمكن بعد ذلك يقول لك: ذهب الأكل ، وذهب المال، فأنت تنفق يمينا وشمالا، ألم نكن نحن أولى بذلك ! ولكن على أية حال إن شاركه أحد جاز، ولا شيء فيها.

ويقول: ويستحب أن يقتصر على أقل من حقه؛ لأنه إذا اشترك الناس مع بعضهم في النفقة ستجد من يريد أن يأكل أكثر ومن يأخذ أكثر، وإذا أعطوه أقل، يحزن ويقول: لماذا لم آخذ مثل هذا، وأنتم لا توزعون بالعدل، وينظر إلى طعام إخوانه، والعديد من الأخلاق الرديئة التي تظهر في السفر؛ فينبغي إذا شارك المرء إخوانه أن يقتصر على أقل من حقه في الطعام والشراب؛ حتى يكون الباقي لإخوانه ليكون ثواب ذلك زخرا له عند ربه.

وأما الاجتماع -اجتماع الرفقة- على الطعام، يوما فيوم فحسن، لا بأس بأن يأكل بعضهم أكثر من بعض إذا علم برضا إخوانه، وأن يكون هذا على سلامة الصدر وعلى عدم شح النفس، وعلى عدم الحزن والضيق أن يأكل أكثر منهم، والأحاديث في ذلك كثيرة، وإلا فالمستحب أن يقتصر على أقل من حقه الذي شاركهم فيه.

التاسع: أنه إذا أراد الحج أو العمرة ينبغي أن يتعلم كيفيتهما، وهذا فرض عين عليه؛ إذ لا تصح العبادة ممن لا يعرفها، ويستحب أن يستصحب معه كتابًا واضحًا في مناسك الحج جامعا لمقاصدها يديم مطالعته ويكررها، ومن أخلَّ بذلك أخل بتعلم فرض الحج؛ وخفنا عليه أن يرجع بغير حج أو عمرة؛ لأنه قد يخل بركن من الأركان أو شرط من شروط الحج، وربما قلد بعض العوام من عوام مكة وتوهم أنهم يعرفون المناسك؛ فاغتر بهم، وهذا خطأ فاحش. وهذا كثير ما يحدث فالكل يفعل مثل بعض، ثم يقول: نحن رأيناهم يفعلون ذلك!

العاشر: ينبغي على المسافر لحج أو عمرة أن يطلب رفيقًا موافقًا راغبًا في الخير كارهًا للشر، وهذا من الآداب المهمة، أن يطلب رفيقًا موافق له ليس مشاغبًا، يقول له: شمال، فيقول له: لا يمين، نمشي من هنا؛ يقول له: لا من هنا أحسن! طيب نركب، يقول له: لا نمشي، المشي أقرب! يقول له: ندخل من باب الملك فهد يقول له: لا ندخل من باب الملك عبد العزيز أقرب للكعبة! فيقول ندخل من باب الصفا يقول له: كله جائز، تعالى ندخل من هنا وخلاص! ثم يغضبوا من بعض في النهاية !

لذلك ينبغي أن يكون هذا الرفيق لينًا مع إخوانه، موافقا لهم، رفيقا بهم، حانيا عليهم، إذا طلب منه إخوانه شيء ليس فيه خطأ شرعي ولا فيه منكر ولا خروج عن أمر الشرع، ولا عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم. أما إن أمره بالخروج عن السنة يقول له: لا، سنة النبي صلى الله عليه وسلم أن نفعل كذا وكذا.

وينبغي له أن يطلب رفيقًا راغبًا في الخير كارهًا للشر: إن نسي ذكر الله تعالى ذكره به، وإن ذكر أعانه على هذا الذكر، وإن تيسر أن يكون هذا الرفيق من العلماء فليستمسك به؛ فإنه يعينه على مبار الحج ومكارم الأخلاق، ويمنعه بعلمه وعمله من سوء ما يطرأ على المسافر من مساوئ الأخلاق، ويحرص كل الحرص على رضا رفيقه في جميع الطريق، ويحتمل كل واحد منهما صاحبه، ويرى لصاحبه عليه فضلاً وحرمة، ولا يرى ذلك لنفسه.

فترى أن صاحبك هو الذي له الفضل، وله الحرمة عليك، وأنت لا ترى لنفسك ذلك أنت أقل من ذلك، وتشهد له حقه، أن الله تعالى قد أكرمك به، وأن الله تبارك وتعالى يسر لك من يعينك على الذكر، وييسر لك أمور الحج، ويتحمل عنك.

وكذلك أن يصبر على ما وقع منه من الجفاء في بعض الأحيان؛ فإن دخل الشيطان بينهما، وحصل بينهما خصام دائم -وكثيرًا ما يقع- وتنكدت حالتهما؛ فلا بد حينئذ من أن يتعجل كل منهما ليترك صاحبه، لأنهما لن يحجا؛ فالأولى أن يتعجلا في فرقة كل منهما ليتم لهما الحج بدلا من هذا الخصام المستمر في مثل هذه الأيام التي يرجى بها الرحمة، ويرجى بها المغفرة.

الحادي عشر: يستحب أن تكون يده فارغة من مال التجارة ذاهبًا وراجعًا؛ فإن ذلك يشغل القلب، فإن اتَّجر لا يؤثر ذلك في صحة حجه أو عمرته، بل يجب عليه تصحيح الإخلاص في الحج

والعمرة، وأن يريد بذلك وجه الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ **[البينة: ٥]** فأصحاب حج الآخرة أو عمرة الآخرة، يفرغوا قلبهم ويدهم لله تعالى، ولا يقولوا كمن قال: لقد دفعت في هذه الحجة عشرة آلاف، أقوم ببعض "البيزنس" لكي أعوض ما دفعت!! أهل الآخرة يعلمون قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما افتقر حاج قط**»[(١)]. والحج والعمرة «**ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة**».[(٢)]

إن فعل ذلك جاز، ولكن أهل الآخرة في حجهم، كما ذكرنا، إنما يتجرون مع الله تبارك وتعالى، فيتزودون من حسناتهم، ويمحون سيئاتهم؛ يرجون بذلك الدرجات من الله تعالى، والرزق من الله جل وعلا.

الثاني عشر: يستحب له – وهي التي ينساها كثير في زحمة الخروج والتوديع والسلامات- يستحب له إذا أراد الخروج من منزله أن يصلي ركعتين: يقرأ في الأولى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١]، وفي الثانية:﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١]، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما خلف أحد عند أهله أفضل من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد السفر**»[(٣)].

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٥/٢٤٥ ، رقم ٥٢١٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٤٨٣ رقم ٤١٣٤) وابن عساكر (١٦/٤٤٥) والديلمي (٤/١٠٦ ، رقم ٦٣٣٦) . قال الهيثمي (٣/٢٠٨) رواه الطبراني في الأوسط والبزار ، ورجاله رجال الصحيح . ولفظه (ما أمعر حاج قط).أي افتقر. وقال المنذري (٢/١١٣) رواه الطبراني في الأوسط والبزار ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه أحمد (١/٣٨٧ ، رقم ٣٦٦٩) ، والترمذي (٣/١٧٥ ، رقم ٨١٠) وقال : حسن صحيح غريب . والنسائي في الكبرى (٢/٣٢٢ ، رقم ٣٦١٠) ، وصححه ابن حبان (٩/٦ ، رقم ٣٦٩٣) ، وابن خزيمة (٤/١٣٠ ، رقم ٢٥١٢) . ولفظه (تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١/٤٢٤ ، رقم ٤٨٧٩) . وأخرجه أيضًا : الخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/٤٦٦) .

ثم يدعو بحضور قلب وإخلاص بما تيسر له من أمور الدنيا والآخرة، ويسأل الله تعالى الإعانة والتوفيق في سفره وغيره من أموره، فإذا نهض من جلوسه قال ما روي من حديث أنس رضي الله عنه: «**اللهم إليك توجهت، وبك اعتصمت، اللهم اكفني ما أهمني وما لم أهتم به، اللهم زودني التقوى، واغفر لي ذنبي**»[1].

الثالث عشر: يستحب أن يودع أهله وجيرانه وأصدقاءه، وأن يودعوا بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول كل واحد منهم لصاحبه: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك، زودك الله التقوى، وغفر ذنبك، ويسر لك الخير حيث كنت.

وقد أصبحت الأحوال في هذه الأيام، أن يذهب الناس إلى الحج أو العمرة ثم يرجعون وبعد ذلك يقولون لك: السلام عليكم، أنا كنت أعتمر أو أحج !! فلا ودع إخوانه ولا أهله ولا جيرانه، وكأن السنة أن يقول لهم ذلك بعدما يأتي . فلا ينسى هذه الآداب ؛ لأن كل ذلك يزيد حسناته، ويجعله أقرب إلى الله تبارك وتعالى، ويجعله متذكرا في كل لحظة من لحظاته أن سفره إلى الحج، يذكره بسفره إلى الآخرة.

الرابع عشر: يستحب إذا أراد الخروج من بيته أن يقول ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي»[2]، وقال كذلك من حديث أنس: «إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله يقال له: هديت وكفيت ووقيت»[3] ويستحب أن يتصدق بشيء عند خروجه، وكذا يستحب أن يتصدق بشيء عند كل حاجة يريد قضاءها من الله تعالى.

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١٥٧/٥ ، رقم ٢٧٧٠) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٤/١٠) : رواه أبو يعلى وفيه عمر بن مساور وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/٢٤ ، رقم ١١) ، وفى الأوسط (٣٤/٣ ، رقم ٢٣٨٣)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٩١/٣ رقم ١٠٩١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٢٥/٤ ، رقم ٥٠٩٥) ، والترمذي (٤٩٠/٥ ، رقم ٣٤٢٦) وقال : حسن صحيح غريب، والنسائي في الكبرى (٢٦/٦ ، رقم ٩٩١٧) ، وصححه ابن حبان (١٠٤/٣ ، رقم ٨٢٢) .

وهذه الآداب معظمها منسيٌ لأهل العلم ولأهل الإيمان في سفرهم وحجهم وعمرتهم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الخامس عشر: إذا خرج وأراد الركوب يستحب له أن يقول: بسم الله، وإذا استوى على دابته، يعني ما يركب من سيارة أو سفينة أو طائرة، قال: «**الحمد لله، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون**»[1]، ويستحب له أن يضم إلى هذا الدعاء قوله: «**اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في المال والأهل والولد**»[2] ليكون مرتبط بالله تعالى في ركوبه وخروجه، وفي سلامه وتوديعه، وهذا حال أهل الإيمان فيما يرجون به رحمة الله تعالى.

السادس عشر: أن يتجنب الشِّبَع المفرط والزينة والترفه والتبسط في ألوان الأطعمة، وهذه على عكس اليوم يعني: اليوم كل الذاهب الذاهبون إلى هذه الرحلة الترفيهية التي يأكلون فيها ويتبسطون فيها، إنما الأصل كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم الأصل: أن يترك الترفه؛ فإن الحاج كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم: «**أشعث أغبر**»[3]، وقد ذكرنا أنه صلى الله عليه وسلم «**حج على رحل رث وقطيفة لا تساوي أربعة دراهم وقال: اللهم اجعلها حجة مبرورة لا رياء فيها ولا سمعة**»[4] دل بذلك على أن الحاج إنما قد ترك التبسط في ألوان الطعام والشراب؛ لأن حجه

---

(١) أخرجه أحمد (١/٩٧ ، رقم ٧٥٣) ، وأبو داود (٣/٣٤ ، رقم ٢٦٠٢) ، والترمذي (٥/٥٠١ ، رقم ٣٤٤٦) ، والنسائي (٥/٢٤٧ ، رقم ٨٧٩٩) ، وصححه ابن حبان (٦/٤١٥ ، رقم ٢٦٩٨) ، والحاكم (٢/١٠٨، رقم ٢٤٨٢).

(٢) رواه مسلم (٤/١٠٤ رقم ٣٣٣٩).

(٣) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢/٢٨ رقم ١١٢٨) ، وابن خزيمة (٤/٢٦٣ ، بعد رقم ٢٨٣٩) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٤٦٠ ، رقم ٤٠٦٨) ، وابن عساكر (٤٥/٣١٦) .

(٤) أخرجه هناد (٢/٤١٩ ، رقم ٨٢١) ، وابن ماجه (٢/٩٦٥ ، رقم ٢٨٩٠) قال البوصيري (٣/١٨٢) : إسناده ضعيف . وأخرجه أيضًا : ابن أبي شيبة (٣/٤٤٢ ، رقم ١٥٨٠٥) .

هذا يدل على سيره إلى الآخرة وعلى رحلته التي يفارق فيها أهله إلى الله تعالى، الرحلة التي لا عودة بعدها؛ وعليه يكون متزهدا في الدنيا، مقبلاً على الآخرة؛ يترك هذا الترفه والتبسط في ألوان الأطعمة والثياب والمركب كل ذلك ليتحقق بقول النبي: «**إنما الحاج أشعث أغبر**»[1] أو «**إنما الحاج الشعث التفل**»[2].

وينبغي كذلك أن يستعمل الرفق وحسن الخلق مع الغلام والرفيق والتائه وغيرهم، وأن يتجنب المخاصمة والمخاشنة ومزاحمة الناس في الطريق، وموارد الماء ما أمكنه ذلك، وهذه كثيرا ما يقع فيها الناس فمن يذهب للعمرة أو الحج تجده إن زاحمه أحد يقول له: أنت كذا وأنت كذا ولولا أني محرم، لكنت فعلت كذا وكذا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والمخاشنة كذلك، فإن دفعه أحد ليتحرك، تجده "تربس" ولا يندفع معه؛ ثم يدفعه كما دفعه، هل هذه أخلاق؟ ولكن إن دفعك أن تندفع معه؛ لأن الحاج والمعتمر ينبغي أن يكون على ترك المخاصمة والمخاشنة، وكذلك إن زاحمه الناس، لا يزاحمهم وكذلك يصون لسانه من الشتم والغيبة والألفاظ القبيحة، ويرفق بالسائل والضعيف، ولا ينهر أحدًا منهم ولا يوبخه، بل أن يواسيه بشيء مما يتيسر له، إن كان فقيرًا على الحقيقة، أو سائلاً على الحقيقة، ، فإن لم يفعل رده ردًا جميلاً، ودعا له بالمعونة إن كان فقيرًا.

السابع عشر: السنة إذا علا شرفا من الأرض يعني: مكانًا مرتفعا من الأرض، كبَّر الله تعالى، وإذا هبط واديا ونحوه سبح لله جل وعلا، وكذلك إذا أشرف على قرية أو منزل يقول: «**اللهم إني أسألك خيرها وخير أهلها وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها**»[3]، وكذلك إذا نزل منزلاً أن يقول ما رواه مسلم في صحيحه عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها سمعت النبي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦/٤٢٥ ، رقم ٢٧٠٩) .

صلى الله عليه وسلم يقول: «**من نزل منزلا ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك**»[1].

وإذا جن عليه الليل في سفره فيقول ما ورد في سنن أبي داود عن ابن عمر رضي الله عنهما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال: «**يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما خلق فيك وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود، والحية والعقرب ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد**»[2].

وكذلك أن يستكثر من دعاء الكرب لعل الله تعالى أن يكشف ماه فيه من كرب، وهو ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم**»[3]. فكأنه مطلوب منه في كل أحواله أن يكون متعلقًا بالله تعالى.

الثامن عشر: يستحب الإكثار من الدعاء في جميع سفره، لنفسه ولوالديه ولأحبائه وسائر المسلمين بمهمات الدنيا والآخرة، للحديث الصحيح في سنن أبي داود والترمذي وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده**»[4].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٣٧٨ ، رقم ٢٧١٦٩) ، ومسلم (٤/٢٠٨٠ ، رقم ٢٧٠٨) ، والترمذي (٥/٤٩٦ رقم ٣٤٣٧) وقال : حسن صحيح .

(٢) أخرجه أبو داود (٣/٣٤ ، رقم ٢٦٠٣) ، والنسائي في الكبرى (٤/٤٤٣ ، رقم ٧٨٦٢) ، وابن خزيمة (٤/١٥٢ ، رقم ٢٥٧٢) ، والحاكم (١/٦١٥ ، رقم ١٦٣٧) ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه البخاري (٥/٢٣٣٦ ، رقم ٥٩٨٥) ، ومسلم (٨/٨٥ ، رقم ٧٠٩٧) .

(٤) أخرجه أحمد (٢/٥١٧ ، رقم ١٠٧١٩) ، وأبو داود (٢/٨٩ ، رقم ١٥٣٦) ، والترمذي (٥/٥٠٢ ، رقم ٣٤٤٨) وقال : حسن . وابن حبان (٦/٤١٦ ، رقم ٢٦٩٩).

لذلك ينبغي ألا ينسى المسافر ذكر الله تعالى، وكذلك يتذكر أن دعوته مستجابة طالما كان في سفره إلى الله تعالى؛ فيستغل هذا السفر لاستجابة الدعاء؛ فيدعو لنفسه وأهله وأحبابه والمسلمين بما يرفع الله تبارك وتعالى عنهم، وبما يحقق مرادهم ومقصودهم في الدنيا والآخرة.

ومما يتأكد استحبابه للمسافر المداومة على الطهارة سواء كان مستيقظًا أو نائمًا، ومن المتأكد كذلك المحافظة على الصلاة في أوقاتها ولو أن يقصر الصلاة وأن يجمع كما هو معلوم.

وهذه مسألة من أهم مسائل الحج خاصة للحجاج المتطوعين أو المعتمرين المتطوعين؛ فإنهم يفرطون في صلاة الجماعة مع أنها أهم مما هم فيه من حج التطوع أو عمرة التطوع؛ فهذا مما ينبغي على طلاب الآخرة أن يهتموا به اهتماما زائدا، ألا يفرط أبدا في صلاة الجماعة، إذا أذَّن عليه المؤذن نزل وكبر، وإن كان في حافلة ولم يتوقفوا للصلاة، يقوم ويكلم المسئول؛ لكي يتزلوا ويصلوا ولا يضيعوا الصلاة في وقتها.

المواقيت والإحرام

الحج أو العمرة لهما ميقاتان: ميقات زماني وميقات مكاني، فالميقات الزمني للعمرة كل أيام السنة، فهي تستحب في كل أيام السنة، والميقات الزماني للحج، هو الأشهر الثلاث: شوال وذو القعدة وذو الحجة، يعني يجوز الإحرام للحج في هذه الثلاثة.

أما الميقات المكاني: فهو المكان الذي لا يجوز للمرء إذا أراد الحج أو العمرة أن يجاوزه إلا وهو محرم، قد بدَّل ملابسه إلى ملابس الحج، وكذلك نوى التلبس بالحج، وابتدأ التلبية.

من كان ليس بمكة، فله أحد هذه المواقيت، وهي لأهلها ولكل من مر بها من غير أهلها:

الأول: ذو الحليفة، وهو ميقات من توجه من المدينة المنورة ومن حاذاها، وهي المسماة اليوم بأبيار عليّ.

والثاني: الجحفة، وهو ميقات المتوجهين من الشام على طريق تبوك وكذلك المتوجهين من مصر والمغرب، وهؤلاء يحرمون الآن من مكان يسمى رابغ، والجحفة بعد رابغ بمسافة قليلة.

والثالث: قرن المنازل أو الثعالب وهذا منزل المتوجهين من نجد الحجاز، ويسمى اليوم السيل.

والرابع: يلملم، وهو للمتوجهين من نجد اليمن.

والخامس: ذات عرق، وهو للمتوجهين من المشرق كخراسان والعراق.

وهناك مسألة بالنسبة للحجيج الذين يصلون إلى جدة مباشرة فيجوز لهم الإحرام قبل وصول الميقات، فيحرم من بيته، وإن كان الأفضل أن يحرم من الميقات؛ اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم.

ذكرنا الميقات المكاني لمن ليس بمكة، أما من كان بمكة، فإن أراد الحج فإن ميقاته مكانه الذي هو فيه من مكة نفسها، سواء كان مكيا أو غريبا، وإن أراد العمرة، فعليه أن يخرج إلى أدنى الحل، ويحرم منه ثم يدخل مكة ملبيا.

وأفضل جهات الحل للإحرام بالعمرة لمن كان بمكة: أن يحرم من الجعرَّانة، ثم التنعيم، ثم الحديبية، وهذه الثلاثة أحرم منها النبي صلى الله عليه وسلم.

فمن كان بمكة وأراد أن يقوم بالعمرة، لنفسه مرة أخرى، على جواز تكريرها على مذهب الشافعية ، أو لأبيه أو لأمه : فإن أفضل مكان يخرج إليه الجعرانة، ثم التنعيم، ثم الحديبية، إن لم يستطع الذهاب للجعرانة خرج إلى التنعيم، أو حتى إلى عرفات ويرجع؛ فالخروج إلى هذه الأماكن بالتحديد ليس شرطا، وإنما المقصد أن يخرج إلى أدنى الحل، وإنما ذكرت هذه الأماكن لأن النبي صلى الله عليه وسلم أحرم منها.

مسألة: من جاوز الميقات غير محرم

الأصل في المسألة: إن جاوز الميقات غير محرم عصى ولزمه أن يعود إليه، ويحرم منه، إن لم يكن له عذر: كخوف الطريق أو الانقطاع عن الرفقة، أو ضيق الوقت.

فمن قال: أنا لم استطع لبس ملابس الإحرام من الميقات ولكني نويت الإحرام؛ فهنا قد جاوز الميقات وقد نوى الإحرام وامتنع عن كل محرمات الإحرام ولكن لبس المخيط، فإما أن يذبح شاة أو أن يصوم ثلاثة أيام في أيام الحج فيحرم يوم السادس ويصوم السادس والسابع والثامن، أو أن يطعم ستة مساكين من مساكين الحرم ثلاثة آصُع ، يعني لكل مسكين نصف صاع .

أما إن يخاف الانقطاع عن الرفقة، أو كان لا يمكنه مواصلة الرحلة بمفرده، أو ضاق الوقت، بمعنى: أن ذلك كان في يوم عرفة ولو عاد للميقات ثانية سيصل صباح يوم العيد ويضيع

عليه الوقوف بعرفة، ففي هذه الحالة يلزمه أن يحرم وعليه ذبح شاة، أما إن تمكن من الرجوع إلى الميقات قبل الإحرام فلا يلزمه الذبح.

وإن تلبس بالطواف، وأراد أن يرجع لمكان الإحرام ثانيا فهل يرجع؟ قال: لا، سقط عنه ويلزمه دم؛ لأنه أتى بجزء من أعمال الحج أو العمرة وهو غير محرم.

صفة الإحرام

أنواع الإحرام أربعة، الإفراد والتمتع والقران والإطلاق.

فالإفراد، أن ينوي الحج ويحرم من ميقات بلده، فيأتي بمناسك الحج، **والقران**، أن يجمع بين الحج والعمرة، بحيث تندرج أعمال العمرة في أعمال الحج، فيجزي عنهما طواف واحد وسعي واحد وحلق واحد، **والتمتع** أن يحرم ويأتي بالعمرة في أشهر الحج، وهي شوال وذو القعدة والعشر الأوائل من ذي الحجة، ثم يتحلل تحللًا تاما، يجوز له فيه كل محرمات الإحرام، ثم يحرم بالحج يوم التروية، اليوم الثامن من ذي الحجة، أما **الإطلاق**، فهو أن ينوي الإحرام فقط؛ وهو جائز بلا خلاف، فإن كان إحرامه في أشهر الحج، صرفه إلى ما شاء من عمرة أو حج ، سواء كان تمتع أو قران أو إفراد، ويكون الصرف والتعيين بالنية.

ويجب على المتمتع الهدي، لقوله تعالى: ﴿ **فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ** ﴾ [البقرة: ١٩٦] ، فإن لم يجد لزمه صوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله والقارن ينبغي أن يسق معه الهدي، ويجوز القران دون سوق الهدي، ويلزمه هدي كهدي التمتع، فإن لم يتمكن صام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع لأهله.

ولم يجز ذبح الهدي قبل الحج للمتمتع إلا الشافعية، فأجازوا للمتمتع ذبح الهدي بعد العمرة وقبل الدخول في أعمال الحج في اليوم الثامن.

واعلم أن الأوجه الأربعة جائزة باتفاق العلماء، أما الأفضل، ففيه خلاف ، فهل حج النبي صلى الله عليه وسلم قارنًا أو متمتعًا أو مفردًا ؟ الشافعية ذهبوا إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مفردا في حجه، ورجح ابن القيم وغيره من أهل العلم أنه صلى الله عليه وسلم حج قارنًا، والنبي صلى الله عليه وسلم استحب لأصحابه التمتع، قال: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لتمتعت**

»[1] فاستحب التمتع وأمر من كان معه من المهاجرين والأنصار وغيرهم أن يتمتعوا؛ فهو أمره صلى الله عليه وسلم لكل أحد حينئذ، لذلك نقول: التمتع أفضل.

مسألة: العمرة للحاج المفرد

مذهب الشافعية أن الإفراد في الحج هو الأفضل بشرط أن يأتي بعمرة في أشهر الحج وإلا فالتمتع أفضل ، فمن نوى الإفراد ولا يستطيع العمرة ، فالتمتع له أفضل ، وهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة ، وعزمه صلى الله عليه وسلم أن يستقبل من أمره ما استدبر، ويستطيع يأتي بعمرة التمتع بعد أن يؤدي المناسك، فيخرج إلى التنعيم ويأتي بعمرة.

آداب الإحرام

الأدب الأول: السنة أن يغتسل قبل الإحرام غسلاً ينوي به غسل الإحرام، وهو غسل مستحب لكل من يصح منه الإحرام حتى الحائض والنفساء والصبي، ويستوي في استحباب ذلك الرجل والمرأة.

مسألة: الإحرام للحائض والنفساء

فإن كانت المرأة حائض، أو نفساء وأرادت الحج، وينتظر أن تطهر في مكة، فيلزمها أن تغتسل غسل الإحرام، لأن كل من يصح منه الإحرام يلزمه غسل الإحرام.

والحيض والنفاس لا يمنعان من الإحرام، وإنما يمنعان من الطواف فقط، فإن ذهبت امرأة وطهرت قبل الطواف، طافت ولا شيء عليها، وإلا أخرت الطواف ومضت في بقية المناسك إلى أن تتمكن من الطواف، وإن أمكن الحائض المقام بالميقات حتى تطهر وتغتسل ثم تحرم فهو أفضل، ويصح من الحائض والنفساء جميع أعمال الحج إلا الطواف، وركعتين بعده.

مسألة: التيمم لمن لم يستطع الاغتسال

وهي مسألة تصادف المرء كثيرًا في أعمال الحج، أنه يريد الاغتسال للوقوف بعرفة ، أو الاغتسال ليرمي الجمار ، أو الاغتسال لدخول مكة، فكل هذه الأغسال مستحبة في الحج والعمرة، ولا يحرص على هذه الأعمال إلا النادر جدا.

---

(١) رواه البخاري (٢/٥٩٤ ، رقم ١٥٦٨) .

فإن عجزت عن الحصول على الماء لهذه الأغسال، تيمم، ومثال ذلك: إن أردت الغسل لدخول مكة، وكنت تركب السيارة وتحركت بك للعمرة، ولم تستطع الوقوف الاغتسال، تيمم، ليدل ذلك على أنك متذكر لهذه الأعمال المستحبة، التي تود أن يكون حجك بها مبرورا.

الأدب الثاني: يستحب أن يستكمل التنظيف بحلق العانة ونتف الإبط وقص الشارب وتقليم الأظفار ونحوها.

الأدب الثالث: أن يتجرد عن الملبوس الذي لا يجوز للمحرم أن يلبسه، يعني: ملابسه العادية يتجرد عنها، وهذا للرجال، ويلبس رداء وإزارا، والرداء هو القطعة العلوية والإزار هو القطعة السفلية، والأفضل أن يكونا أبيضين جديدين، أو نظيفين، وأن يلبس نعلين، ثم يتطيب، والأولى أن يقتصر الطيب على بدنه.

وكأنه يقول: لا يطيب ملابس الإحرام؛ لأنه بعد أن يدخل في المناسك لا يجوز له أن يتطيب لا في بدنه ولا في ثوبه؛ فقد يبقى الطيب في ثيابه، فإذا بدَّله وغسله وبقي الطيب لزمه الفدية، كما سنذكر.

وهناك مسألة ننبه عليها، وهي أن النساء غالبا ما يأتين بملابس بيضاء ويحرمن بها، و ذلك لا يلزمهن؛ فالمرأة تحرم في ملابسها العادية التي تلبسها، غير أنها لا تنتقب ولا تلبس القفازين كما سيأتي توضيحه، وليس عليها لا أبيضين جديدين ولا غير ذلك.

الرابع: أن يصلي ركعتين ينوي بهما سنة الإحرام، ويرى بعض أهل العلم أن الإحرام ليس له سنة، فإن صلى الظهر أو العصر وأحرم جاز، وينوي بقلبه الدخول في الحج والعمرة بعد أن يصلي هاتين الركعتين أو الظهر أو العصر، ثم يبدأ في التلبية.

وإن قال: لبيك اللهم بعمرة، أو لبيك اللهم بحج، جاز، لكن الأصل أن ينوي ذلك بقلبه، وإن كان يحج عن غيره ينوي كذلك بقلبه، فإن قال: أحرمت عن فلان، فلا شيء في ذلك.

ويستحب أن يقتصر على تلبية النبي صلى الله عليه وسلم وهي: « لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

وننبه على كيفية التلفظ بالتلبية، فالبعض يقولون: (إن الحمد)،ثم (والنعمة)،ثم (لك والملك)،ثم (لا شريك لك)، فيقفون بين الجمل، وقول ذلك يكون بدون وقف: (إن الحمد والنعمة لك والملك) ثم (لا شريك لك).

ويستحب أن يرفع صوته بالتلبية، وأن يجأر بها جؤارًا، ثم يصلي على النبي بعدها سرا، فإذا لبى ثلاث مرات مثلاً، أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم في صوت أخفض من صوت التلبية، ويسأل الله تعالى رضوانه والجنة، ويستعيذ به من النار، ثم يدعو بما أحب لنفسه ولمن أحب.

ويستحب الإكثار من التلبية قائمًا وقاعدًا وراكبًا وماشيًا ومضطجعًا وجنبًا وحائضًا، ويتأكد استحبابها عند تغير الأحوال والأماكن والأزمان، ويستحب في كل صعود وهبوط وحدوث أمر، من ركوب أو نزول، أو اجتماع أو فراق، أو قيام أو قعود، وعند السحر وعند إقبال الليل، وعند إقبال النهار، وعند الفراغ من الصلاة ، وعند النوم، وهذه مسألة يغفل عنها الكثير.

وإن لبى بغير تلبية النبي صلى الله عليه وسلم جاز، مثل تلبية الصحابة وهي: «**لبيك حقا حقا، تعبدا ورقا، لبيك إله الحق لبيك، لبيك وسعديك والخير في يديك، والرغباء إليك والعمل**» وهي تلبية جميلة، ومن أرادها فلا بأس، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع الملبين بذلك ولا ينكر عليهم.

وتقف التلبية عند رؤية الكعبة المشرفة، فما أن يصل إلى الكعبة المشرفة فلذلك أذكار جديدة في استقبال الكعبة والدعاء والطواف، كما سنذكر إن شاء الله.

ويستحب للرجل رفع صوته بالتلبية، **وأما المرأة فلا ترفع صوتها بالتلبية**، بل تقتصر على إسماع نفسها. وإن سلم عليه أحد وهو يلبي، فيجب عليه رد السلام.

فصل في مُحرمات الإحرام

النوع الأول: اللباس، والمحرم من أنواع اللباس ضربان: ضرب يتعلق بالرجل، وضرب يتعلق بالمرأة، أما الرجل فيحرم عليه ستر جميع رأسه، أو بعضه بكل ما يعد ساترًا سواء كان مخيطًا أو غيره، معتادًا أو غيره؛ فلا يجوز ان يضع على رأسه قلنسوة – وهي الطاقية- ولا عمامة ولا خرقة.

فبعض الحجيج في شدة الحر قد يبلل بالماء البارد منديلاً أو شيئًا ويضعه على رأسه وهو محرم، هذا من محرمات الإحرام؛ لأنه لا يجوز له أن يستر رأسه، لا بشيء معتاد أو غير معتاد، ولا يعصبه بعصابة ، أما أن يستظل بمحمل - وهو ما كان يوضع على الجمل أو الناقة-أو مثله فلا بأس.

ويحرم على الرجل الملبوس المعمول على قدر البدن بحيث يحيط به، إما بخياطة أو بغير خياطة؛ لأن معظم الناس يظن أن المقصود أن المخيط يعني: ما كان به خياطة، المقصود بالمخيط هو: **المحيط بالجسم المفصل على قدره، سواء كان مخيطًا أو غير مخيط** كما سيذكر؛ كالقميص والسراويل وغيرها، فلو لبس سروالاً ليس مخيطًا، أو جزءًا من سروال كذلك يأخذ نفس الحكم، وكذلك يحرم لبس الجورب والحذاء، بخلاف النعل؛ فإن النعل ليس فيه شيء من ذلك.

فإن فعل ذلك لزمه الفدية، يعني: إن لبس قلنسوة أو قميص – يعني جلابية- أو لبس سروالا، أو غطى رأسه بشيء فإن كل ذلك يلزمه فيه الفدية، كما سنبينها في نهاية الكلام إن شاء الله تعالى.

ويجوز للمحرم أن يلبس الحزام والمنطَقة، وهي موضع النقود، مثل المحفظة اليوم، ويجوز لبس الخاتم والساعة، وله أن يعقد الإزار وأن يشد عليه خيطًا، وله أن يغرز طرف ردائه فيه. يعني يجوز أن يلبس الإزار وأن يربط طرفيه، وله كذلك أن يغرز الرداء فيه، ولكن لا يجوز له أن يعقد الرداء، ولا أن يزره، ولا أن يخله بخلال، مثل الدبوس، ولا أن يربط خيطًا في طرفه ثم يربطه في طرفه الآخر.

مسألة: في ربط أو زرٍّ أو خياطة الرداء والإزار

وهي مسألة كثيرًا ما يتساهل فيها الحجيج، فتجد من يربط رداءه بدبوس عند صدره، أو من يكون في رداءه "كباسين" فيغلقها، وهذه لا ينبغي للمحرم أن يفعلها، لا أن يشبكه، ولا أن يزره بزر، ولا أن يربط طرف الرداء في الطرف الآخر، وإنما يضعه على عاتقيه هكذا بسيطًا.

والحكمة في جواز ذلك في الإزار وعدم جوازه في الرداء، أن الإزار يحفظ للمرء عورته فجاز له أن يشبكه بدبابيس أو أن يخيط فيه أجزاء، أو أن يضع فيه خلالاً يعني: يضع فيه ثلاث أو أربع دبابيس ، فإن لم يجد شيئا فربط طرفي الإزار في بعضهما جاز.

وقد يسأل سائل عن هذه الحفاضة التي يضعها بعض الحجيج اليوم، ليداري بها عورته إن نام أو جلس أو صعد سلمًا أو غير ذلك، وهي تخاط أو توضع في أسفل الإزار لتحفظ على المرء عورته من الظهور، فهي جائزة.

فصل: وأما المرأة فتستر رأسها وسائر بدنها سوى الوجه وجميع ذلك تستره بما كانت تستتر به قبل الإحرام، كانت تلبس قميصًا، أو تلبس سراويل، أو تلبس خفًّا، أو تلبس شيئًا من ذلك كل ذلك يجوز لها.

ولينتبه بعض النساء ممن يلبسن الملابس البيضاء، ولا يلبسن تحتها شيئًا؛ فتبدو أجسامهن من تحت هذه الملابس الرقيقة، فإن هذا مما لا ينبغي، وإنما كل ما هنالك أن إحرام المرأة، يكون في وجهها وكفيها؛ فلا تنتقب ولا تلبس القفازين فقط لا غير، وباقي ملابسها التي كانت تلبسها قبل إحرامها تلبسها بعد إحرامها من غير فرق.

<u>مسألة: ماذا تفعل المنتقبة حال الإحرام؟</u>

تضع يديها تحت خمارها حال طوافها، أو سعيها، أو حال رؤية الرجال لها، وكذلك تسدل على وجهها شيئًا بحيث لا يمس وجهها، وذلك مذهب الشافعية، فلا يجوز النقاب المفصل على حجم الوجه كما يفعل النساء اليوم، وإنما تسدل "طرحة" مثلاً ، من فوق رأسها على وجهها عند رؤية الرجال لها، وتحاول ألا تمس هذا الطرحة أو هذا الشيء النازل، وجهها، وذلك جائز.

فصل: ويحرم على الرجل والمرأة كذلك لبس القفازين، إلا لمرض يلزمه ذلك، وحكم ذلك الجواز مع الفدية.

والذي ذكرناه من تحريم اللبس والستر، هو فيمن ليس له عذر، وأما المعذور ففيه صور:

فلو احتاج الرجل لستر رأسه، أو لبس المخيط، لحر أو برد أو مداواة أو نحوها، أو احتاجت المرأة إلى ستر وجهها جاز ووجبت الفدية.

وهناك فارق بين المسألتين: بين أنه يحتاج إلى ذلك وهو معذور، أو أنه قد لبس ذلك متعمدا؛ فالمتعمد عليه الإثم وعليه الفدية، والمعذور عليه الفدية ولا يأثم لذلك.

النوع الثاني: الطيب، وهذه مسألة كذلك يقع فيها كثير من الحجيج والمعتمرون بغير قصد، ، فإنه إذا أحرم، حَرُم عليه التطيب في بدنه أو في ثوبه أو في فراشه بكل ما يعد طيبا، يعني بكل ما يطلق عليه "رائحة"؛ فلا يضعه في بدنه، ولا في ملابسه، ولا في فراشه.

وشرط تحريم الطيب أن يظهر فيه قصد التطيب، يعني: ألا يكون قصده منه المداواة، فلو أراد التداوى بشيء وهذا الشيء له رائحة، وهو لا يقصد بوضعه الرائحة ويقصد التداوي، جاز ذلك، فإن قصد بوضعه الرائحة يحرم.

وذلك لأن هناك أشياء كالمرهم أو القرنفل مثلا، لها رائحة جميلة ، فيضعه في فمه أو أسنانه لكي يخفف وجع الأسنان، وذلك جائز، ولكن يحرم أن يضعه لكي يتريح به أو ليذهب رائحة فمه، يقول: وكذلك ما لا يظهر فيه قصد الرائحة كالتفاح والأترج، وكذا العصفر والحناء، ويقصد بها تغيير منظر الوجه أو اليدين، كالخضاب ، ولا يحرم شيء من هذا ولا فدية فيه.

النوع الثالث: دهن شعر الرأس واللحية، وأما الأدهان فضربان:

دهن هو طيب، ويحرم استعماله في جميع البدن والثياب.

ودهن ليس بطيب، والمقصود به هو الزيوت الثقيلة، وليس الروائح الخفيفة التي تطير، وإنما الزيوت الثقيلة أو الدهانات التي تضعها على جسمك وتبقى فترة طويلة؛ فلا يحرم الادهان في غير الرأس واللحية.

فلو معك زيتًا عاديًا، ليس طيبًا ، فلا تضعه في رأسك ولا تدهن به لحيتك؛ فليأخذ المرء باله من هذه المسألة، فهذا ليس طيبا ولا شيء، ولكن ليس له أنه يضعها في رأسه ولا لحيته، وإن جاز له أن يدهن بها جسمه.

يقول: فلا يحرم الادِّهان في غير الرأس واللحية، ويحرم عليه دهنهما أي: الرأس واللحية بكل دهن سواء كان مطيبا أو غير مطيب؛ فإن ادَّهن بذلك عصى ولزمه الفدية.

وإن كان في رأسه شجة -جرح- يحتاج إلى مثل هذه الزيوت، كالأدوية مثلاً؟ قال: إن كان في رأسه شجة فجعل هذا الدهن في باطنها فلا فدية.

وكذلك يحرم استعمال الكحل الذي فيه طيب، ودواء العرق الذي فيه طيب.

فيحرم استعمال الطيب في البدن والثوب والفراش وتجب فيه الفدية إذا كان الاستخدام عن قصد؛ فإن تطيب ناسيا لإحرامه أو جاهلا فلا إثم ولا فدية. والأَولى: إن تطيب ناسيا أو جاهلا أن يخرج الفدية، يرتفع عنه الإثم.

ويلاحظ في مسألة الادهان كذلك أن كثيرًا من إخواننا لا ينتبه للصابون الذي يستخدمه، فيستخدم الصابون الذي إذا غسل به يديه أو وجهه، ظهرت رائحته في وجهه أو يديه؛ فلا يجوز استخدامها، ولا أن يغسل بها ثيابه ؛ فيأخذ حذره لذلك.

النوع الرابع: حلق الشعر وقلم الظفر: فيحرم إزالة الشعر بحلق أو تقصير أو نتف أو غير ذلك في جميع شعر الجسم، وكذلك إزالة الظفر؛ فيحرم أن يقلم أظفاره، ولا أن يكسرها بيده أو بقصافة، ولا أن يقطع جزءا منها؛ فإن فعل شيئا من ذلك عصى ولزمته الفدية.

النوع الخامس: عقد النكاح؛ فيحرم على المحرم أن يُزوج أو أن يتزوج، وكل نكاح كان الولي فيه محرمًا أو الزوج أو الزوجة؛ فهو باطل، ويجوز أن يكون المحرم شاهدًا في نكاح الحلالين على الأصح.

فالقاعدة: كل نكاح إن كان الولي فيه محرما أو الزوج أو الزوجة فهو باطل، فلا يجوز لمحرم أن يكون وليًا في النكاح، بأن يزوج ابنته أو أخته مثلاً، أو أن يتوكل عن أحد فيها، ولا أن يكون كذلك زوجًا، ولا أن تكون المرأة المحرمة زوجة ، وإن وقع شيء من ذلك فنكاحهم باطل جميعًا.

فهل يجوز للمحرم أن يكون شاهدًا؟ قال: يجوز أن يكون شاهدًا في الأصح في نكاح الحلالين، فلا يجوز أن يكون المحرم شاهدًا في نكاح المحرمين؛ لأن المحرمين نكاحهم باطل؛ فلا يجوز له أن يشهد على هذا الباطل، وإنما جاز للمحرم أن يكون شاهدا في نكاح الحلالين.

فلو أراد رجل وامرأة ليسا محرمين بحج ولا عمرة الزواج، أو كانا محرمين بالعمرة وتحللا وهو لم يتحلل بعد وكان محرمًا، وأحبا أن يعقدا عقد النكاح في مكة المكرمة بين العمرة والحج جاز له أن يشهد على ذلك العقد.

النوع السادس: الجماع ومقدماته، وهذه قد يتساهل البعض فيها؛ فمن يتشدد في الجماع قد يتساهل في مقدماته، إن كانت معه زوجته في الحج أو العمرة. يقول: فيحرم على المحرم الوطء،

وكذلك المباشرة فيما دون الفرج بشهوة كالمفاخذة والقبلة واللمسة، وهذا التحريم مستمر حتى يتحلل من عمرته، أو أن يتحلل التحلل الثاني من الحج.

ولو أحرم أحد بالحج، ووطئ امرأته، قبل التحلل الأول، فسد حجه، ولكن يجب عليه أن يمضي في الحج الفاسد، يعني يكمل المناسك حتى نهايتها، وأن يهدي بدنة، يعني: ناقة أو جملا، فإن لم يجد فبقرة، فإن لم يجد فسبع شياه وعليه أن يحج من قابل، يعني يقضي الحج في العام التالي، سواء كان متطوعا أو كان يحج حج الفريضة .

وهذا الحكم حتى التحلل الأول، فإن تحلل التحلل الأول وجامع امرأته، فهل يفسد حجه؟ الأصح أنه لا يفسد ، ولكن عليه دم شاة. ومن باشر زوجته فيما دون الفرج عامدا عالما لزمه الفدية، ولا يفسد نسكه.

أما إن جامع ناسيا أو جاهلا، أو جُومعت المرأة مكرهة، لم يفسد الحج على الأصح، ولا تلزم الفدية على الأصح.

النوع السابع: إتلاف الصيد: فيحرم إتلاف كل حيوان بري مأكول، أو في أصله مأكول، وسواء كان مستأنسا أو غيره، وسواء كان مملوكا أو غيره.

وهذه المسألة كانت موجودة في الزمن الماضي عندما كان الناس يحصلون طعامهم من الصيد والخروج له؛ ولذلك حرم الله تعالى عليهم ذلك كله؛ فإن أتلفه فعليه فدية ما يعادل هذا الصيد، لحق الله تعالى ، وإن كان له مالك، لزمه القيمة للمالك، ثم يلزمه الجزاء لحق الله تعالى.

وكما يحرم إتلاف الصيد يحرم إتلاف أجزائه، ويحرم على المحرم الاصطياد والاستيلاء، كما يحرم على المحرم كذلك الإعانة على قتل الصيد بدلالة، كأن يقول : ها هو الصيد هناك فاضرب عليه، أو بإعارة آلة، أو بصياح، ونحو ذلك.

آداب دخول مكة - زادها الله تعالى شرفًا وتعظيمًا

ينبغي للمرء بعد إحرامه بالحج أو العمرة التوجه إلى مكة، ومنها يكون خروجه إلى بقية المناسك: إلى منى وعرفات ومزدلفة.

الأدب الأول: إذا بلغ الحاج أو المعتمر حرم الله تعالى الآمن، استحب له أن يقول، كما ذكر بعض العلماء: اللهم إن هذا حرمك وأمنك فحرمني على النار، وأمني من عذابك يوم تبعث عبادك،

واجعلني من أوليائك وأهل طاعتك، ويستحضر من الخشوع والخضوع والتواضع والتذلل، في قلبه وجسده ما أمكنه؛ فلا يدخل على هيئة المتكبرين ولا على هيئة الغافلين، ولا على هيئة الذي لا يهمه ما هو فيه من النسك، وما هو فيه من تعظيم الله تعالى، وتعظيم البقعة وتشريفها، عسى أن يكون من المقبولين، وعسى أن يبلغه الله تبارك وتعالى بقية مناسكه، وأن يتقبل منه سبحانه وتعالى، وأن يغفر له، وأن يعود من حجه كيوم ولدته أمه.

الثاني: وهذا من المسائل المهمة التي ينساها الحجيج، أنه إذا بلغ مكة اغتسل بذي طوى وهي في أسفل مكة، في صوب مسجد عائشة - في التنعيم -، وإن دخل من طريق آخر غير طريق مسجد عائشة رضي الله عنها، استحب له أن يغتسل؛ لأنه سيدخل حرم الله تعالى، وعليه ينبغي أن يدخل على أكمل حال وأفضله، من تمام الطهارة ظاهرًا وباطنًا، والخشوع والخضوع .

وإن كان يستطيع أن يغتسل حين يصل إلى "الفندق" ويضع حقائبه؛ فينزل متطهرًا ليدخل بيت الله تعالى: فذلك حسن، ليعوض به ما لم يتمكن منه قبل دخول مكة، شرفها الله تعالى. وهذا الغسل مستحب لكل أحد حتى الحائض والنفساء والصبي.

إن لم يستطع أن يغتسل لدخول مكة عليه أن يتيمم، ولا ينسى المرء ذلك في زحمة الأحداث والجري والتلبية والمشاكل والنزول والصعود والسيارة، كما ذكرنا ذلك؛ يرجو بذلك أن يبر حجه بفضل الله تعالى.

الثالث: أن يدخل مكة من ثنية كداء وهي أعلى مكة، وإن لم تكن في طريقه، وقد كانت ثنية بين الجبلين عالية، بحيث يصل إلى رأس الركب فيرى الحرم مباشرة. وأن يخرج من كُدي من أسفل مكة. وقد انتهت هذه الأماكن من زمن طويل، وإنما نبين هذه المستحبات لمن استطاع ذلك فهو هدي النبي وسنته المشرفة صلوات الله وسلامه عليه.

الرابع: ينبغي أن يتحفظ في دخوله من إيذاء الناس، وأن يتلطف بمن يزاحمه، وأن يلحظ بقلبه جلال البقعة التي هو فيها.

فلا يدخل مكة ثم إذا دفعه شخص يدفعه! وإنما عليه إن زاحمه أحد أو ضربه أو فعل هذه الأفعال التي تخرج من الأخلاق السيئة في السفر، عليه أن يتلطف به، وأن يعفو عنه، وأن يلحظ بقلبه جلال البقعة التي هو فيها.

أنت في حرم الله تعالى الآن، فلا تتشاجر وتشتم وتدفع هذا وتشد هذا ويعلو صوتك ويرتفع في حرم الله تعالى. أنت تريد أن يؤمنك الله تعالى يوم الفزع، وأن يحرمك على النار، وأن يتقبل حجك، وإن كان يلزمك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا بد من أن تتكلم كلاما حسنا حتى يبرحج من تنصحه أيضًا؛ فتأخذ ثواب ذلك.

الخامس: ينبغي لمن يأتي من غير الحرم ألا يدخل مكة إلا محرمًا بحج أو عمرة إلا ممن يتكرر دخوله لغرض، أو كان خائفًا من ظالم، أو غريم أو غيره.

فمن تعظيم مكة ألا يداخلها إلا محرما بحج أو عمرة؛ فلا يدخل هكذا بلباسه لا معتمرًا ولا حاجًا، إلا ممن يتكرر دخوله لغرض مثل أن يكون عمله فيها، أو كان خائفًا من ظالم أو غريم أو غيره؛ فإنه يجوز أن يدخل بغير إحرام.

السادس: أن يدخل البيت من باب السلام، وهو باب بني شيبة اليوم، الموجود في الطريق بين الصفا والمروة.

فالحجيج تدخل كيفما اتفق، من باب الملك فهد من باب الملك عبد العزيز من باب العمرة، الباب الذي دخل منه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، هو باب السلام، باب بني شيبة اليوم، وهو يخرج بالحاج إلى الحجر الأسود مباشرة، ويستحب له أن يدخل برجله اليمنى وألا ينسى دعاء دخول المسجد؛ لأن الناس في هذه اللحظة تنسى آداب دخول المسجد؛ فليدخل برجله اليمنى ويقول: أعوذ بالله العظيم ووجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم، بسم الله، والحمد لله، اللهم صل على محمد صلى الله عليه وسلم، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك. وإذا خرج يقول الحديث المعلوم، حفظًا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما يعن لك من أعمال في رحلة الحج.

وقد جاء في الأثر أن الدعاء مستجاب عند رؤية الكعبة، وسواء صح ذلك أو لم يصح؛ فأهل العلم يأخذون بالمسألة، فعند رؤية الكعبة يرفع يديه، وهو مستحب بلا كلام، وأن يدعو بما شاء من مهمات الدنيا والآخرة، وأن تكثر عبراته يعني: دموعه.

واعلم أنه ينبغي أن يستحضر المرء عند رؤية الكعبة ما أمكنه من الخشوع والتذلل والخضوع؛ فهذه عادة الصالحين وعباد الله العارفين؛ لأن رؤية البيت تذكر وتشوق إلى رؤية رب البيت سبحانه وتعالى.

فما أن ترى بيت ربك، إلا وسالت عبراتك على فواجعك وبوائقك وجرائمك وجناياتك، ترجو أن يغفرها الله لك ، ولا زلت بهذا الخشوع والخضوع تستقبل الحجر، وتتم مناسكك، لا أن تكون على هذه الحالة من الشجار والتدافع التي نراها.

ونذكر هنا قصة امرأة ذهبت لتحج بيت ربها سبحانه وتعالى حتى إذا اقتربت قالت: أروني بيت الله تعالى، أروني بيت ربي؛ فأشاروا إلى الكعبة، فدخلت فلصقت جسمها ببيت الله، وما رفعت إلا ميتة؛ شوقًا إلى الله تعالى، وتعظيمًا ومحبة له جل وعلا.

السابع: وهذه المسألة كذلك مما لا يعملها إلا من رحم الله سبحانه وتعالى، يقول: يستحب ألا يعرج أول دخوله على استئجار المنزل أو غيره ولا يعرج على شيء غير الطواف.

فأنت جئت إلى بين الله سبحانه وتعالى، واستحضرت في قلبك الخشوع والسكينة والتذلل والتواضع لله تعالى؛ فأول ما تفعله أن تدخل بيت الله تعالى لتطوف به، لا أن تضيع الخشوع والخضوع والاستكانة والدعاء، في الإيجار والغرفة والشقة والفصال، أو في تنزيل الشنط، والشجار على كذا والبحث عن كذا، يا إلهي!! أشياء كثيرة يُضيع بها المرء حجه.

لذلك يقول: ينتظر بعض الرفقة عند المتاع ويدخل الباقون؛ ليؤدوا طوافهم وعمرتهم، وإذا ما انتهوا رجع هؤلاء وذهب الفريق الآخر ليقوموا بعمرتهم، ثم يذهبون بعد أن تحللوا ليأخذوا حقائبهم وأمتعتهم، وليستأجروا المنزل.

أما النساء فيستحب لهن أن يؤخرن الطواف إلى الليل خشية الفتنة، أو ازدحامهن بالرجال، وهذه مأساة من المآسي الشديدة، التي تحدث هذه الأيام!

الثامن: إذا دخل المسجد ينبغي ألا يشتغل بصلاة تحية المسجد، بل يقصد إلى الحجر الأسود مباشرة، ثم يبدأ الطواف كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.

فلو سأل سائل ما تحية المسجد؟ نقول: من أتى للعمرة أو الحج، فلا يصلي ولكن يبدأ الطواف، وإن أقام في مكة بعد ذلك ودخل الكعبة، فلا مشكلة أن يصلي ركعتين ، وإن دخل وطاف أجزأه ذلك.

ولو دخل والصلاة مقامة، مثل صلاة الظهر، أو صلاة العصر، أو صلاة العشاء، دخل في الصلاة حتى إذا انتهى قام فاستقبل الحجر وابتدأ طوافه، وكذلك إن خشي أن يفوته الوتر مثلاً لو طاف ، ينبغي حينئذ أن يوتر ثم بعد ذلك يبدأ في الطواف. ومن دخل الحرم قبل الصلاة بوقت قليل لا يكفي للطواف، جاز أن يصلي ركعتين تحية المسجد.

الطواف

والطواف: أن يحاذي بجميع بدنه جميع الحجر الأسود، ثم يجعل يساره إلى البيت ويمينه إلى الخارج، ثم يمشي تلقاء وجهه طائفا حول البيت فيمر على الملتزم، وهو المكان الذي بين الحَجَر الأسود وباب الكعبة؛ لأن هناك من يعتقد أن الملتزم تحت باب الكعبة، وهذا خطأ، وسمي بذلك؛ لأن الناس يلتزمونه عند الدعاء.

والطواف هو بداية المناسك، فيستلم الحجر بيده ثم يقبل الحجر من غير صوت إن تمكن، فإن لم يتمكن أشار إليه وكبر: بسم الله، الله أكبر، ويستقبل الحجر بوجهه، ثم يبدأ بالطواف بحيث يكون جميع البيت على يساره.

ثم يمر إلى الركن الثاني بعد الأسود ويسمى الركن العراقي، وهو القريب من حِجْر إسماعيل ، ثم وراء الحِجْر وهو، أي: الحجر، في صوب الشام والمغرب، فيمشي حوله حتى ينتهي إلى الركن الثالث، ويقال لهذا الركن والذي قبله: الركنان الشاميان، ثم ينتهي إلى الركن الرابع وهو المسمى باليماني ، فإن استطاع أن يستلمه بيده جاز، ولكن لا يقبل يده، وإن لم يستطع أن يستلمه بيده أشار إليه وكبر، ثم انطلق إلى الحجر الأسود، ويقول بين الركن اليماني والحجر الأسود الدعاء الصحيح : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠١]».

حينما يصل إلى الحجر الأسود مرة أخرى ، فقد انتهى بذلك شوطًا، فإذا أتم سبعًا، تم له طواف القدوم، ويستحب له أن يستحضر في قلبه ما أمكنه من الخشوع والتذلل والتواضع حال

طوافه بيت ربه، والشوق إلى لقاء الله تعالى، وليستحضر ذنوبه ومعاصيه وهو يطوف بالبيت، وألا يرى نفسه أهلاً لهذا الطواف، وإنما قد أقدمه الله تبارك وتعالى لعله أن يتوب عليه سبحانه وتعالى، وأن يغفر ذنبه وجرائمه التي سلفت؛ فيكثر من الدعاء والبكاء والتضرع وقراءة القرآن وذكر الله تعالى، والتهليل والتكبير إلى أن ينتهي من أشواطه السبعة.

مسألة: موضع بداية للطواف

ونُنبه على هذه المسألة، لأن هناك خطأً يقع فيه الكثير، فيفسد به الطواف، وهو أنه يستلم الحجر بوجهه، ثم يتحرك قليلاً، قدر خطوة أو خطوتين؛ حتى يعتدل ليكون البيت على يساره، وعندها يكون قد بدأ الطواف بعد الحجر بمقدار هاتين الخطوتين، لأنه قد خطى هاتين الخطوتين والبيت ليس عن يساره، بل يكون البيت في وجهه فيهما، فلا يُحتسب هذا الشوط.

لذلك ينبغي أن يستلم الحجر، ثم يعتدل بحيث يكون البيت عن يساره، ويكون هو قبل بداية الحجر، ثم يبدأ في الطواف، فيكون الشوط مكتملا والطواف صحيحًا.

ويقع البعض في خطأ آخر في الطواف ، ففي بعض الأحيان يمسك المعتمرون أو الحجيج أيادي بعضهم بعضًا ويطوفون حول الكعبة ، ووجوههم جميعها للكعبة، فتكون الكعبة في وجههم وليست عن يسارهم ، وهذه كذلك من المنكرات التي تفسد الطواف .

وهناك أخطاء كثيرة ، كما ذكر الإمام النووي ، يعود بسببها الحجيج بغير حج ولا عمرة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وذلك لتساهل كثير من الناس في ذلك، أو في أن يسأل عوام أهل مكة، وهو يظن أن عندهم علم بذلك!

فصل: ويستحب أن يضطبع مع دخوله في الطواف، والاضباع: أن يخرج كتفه الأيمن من الرداء بأن يجعل وسط الرداء الأيمن تحت إبطه الأيمن ويرمي طرفه على كتفه الأيسر؛ فيظهر كتفه الأيمن ويده اليمنى.

شروط الطواف وواجباته

يقول: واعلم أن للطواف شروطًا وواجبات لا يصح بدونها، وله سننًا، وأن له سننًا كذلك:

الواجب الأول: ستر العورة، والطهارة عن الحدث وعن النجس في البدن والثوب والمكان الذي يطأه، فلو طاف بشيء من ذلك لم يصح طوافه.

وهذه المسألة المهمة الأولى، أن الطواف صلاة غير أنه قد شرع فيها الكلام؛ لذلك يشترط لها أن يكون المرء طاهرًا في ثوبه وبدنه ومكانه، وأن يكون طاهرًا عن الحدث الأصغر فضلا عن الأكبر.

ومن طافت من النساء مكشوفًا منها أي شيء غير الوجه واليدين لم يصح طوافها. بعض النساء تطوف وبعض الشعر يظهر من تحت الخمار ، أو ترفع الملابس قليلاً عن رسغها فيظهر جزء من يدها، أو لا ترتدي جوربًا فيظهر شيء من قدميها، وكل ذلك يبطل الطواف.

ومما عمت به البلوى ملامسة الرجال للنساء نتيجة للزحام؛ فينبغي للرجل أن يحتاط لدينه وعبادته وألا يزاحم النساء، خشية أن ينتقض وضوؤه بالملامسة؛ إذ هو الأرجح في مذهب الشافعية: أن لمس المرأة في مثل ذلك ينقض الوضوء، وتكون مشقة شديدة أن تخرج لتتوضأ وترجع ثانية ؛ لذلك يحتاط المرء لهذه المسألة وإن تجاوز فيها بعض أهل العلم؛ الذين قالوا أن اللمس طالما كان بلا شهوة فلا ينقض الوضوء.

الواجب الثاني: أن يكون الطواف في المسجد، ولا بأس بأن يكون هناك حائل بين الطائف وبين البيت، كالسواري والأعمدة وغيرها، ويجوز الطواف في نهايات المسجد وأروقته. فلو لم تستطع أن تطوف في صحن المسجد المحرم جاز أن تطوف في الأروقة، وهي الأماكن التي يُصلى فيها في الداخل، وكذلك عند بابه من داخله وكذلك على أسطحه، مثل الدور الثاني أو السطح فذلك جائز ، ولا خلاف في شيء من هذا، وإنما السنة: أن يقترب المرء من البيت حال الطواف، إلا إذا منعه مانع من زحام أو غيره.

الواجب الثالث: استكمال سبع طوفات، فلو شك لزمه الأخذ بالأقل، إلا إن شك بعد الفراغ منه، فلا يلزمه شيء.

الواجب الرابع: الترتيب، بأن يبتدئ من الحجر الأسود فيمر بجميع بدنه على جميعه، ولو ابتدأ بغير الحجر الأسود أو لم يمر عليه بجميع بدنه، لم يحسب له ذلك الشوط، وكذلك يجب أن يكون بجميع بدنه خارج البيت، فمن طاف على شاذروان الكعبة، وهو الجدار القصير الموجود بأسفل الكعبة وبه حلقات يربط بها كسوة الكعبة، فهذا طوافه باطل؛ لأنه يطوف في البيت نفسه،

وإنما يجب يطوف وبينه وبين البيت هواء، فيكون خارجًا عن البيت تمامًا، ويحاذي بجميع بدنه البيت من خارجه.

الواجب الخامس: نية الطواف، بأن ينوي بطوافه القدوم أو الإفاضة، فمن كان متمتعًا، نوى طواف القدوم، ومن وقف بعرفة ورمى جمرة العقبة الكبرى ونزل إلى مكة يوم العيد؛ نوى طواف الإفاضة؛ فتكون مستشعرًا ومتذكرًا لأعمال المناسك التي تأتيها.

سنن ومستحبات الطواف

أولها: الموالاة بين الطوفات، يعني: الأشواط، فيجوز أن نقول: طوفة بدل أن نقول شوطًا.

وهي من السنن، فلو طفت شوطين وتعبت ، فاسترحت قليلا، فلا مانع، ولكن لا بشرط ألا يطول الفصل.

الثاني: المشي والاضطباع والرَّمَل، وقد وضحنا الاضباع، أما الرَّمَل فهو: الإسراع مع تقارب الخطى، فتمشي مشيًا شديدًا تُظهر فيه قوتك في المشي، مثل ما يسمونه في الجيش "خطوة تنظيم" ولكن مع المشي. والرمل يكون في الأشواط الثلاثة الأولى، ثم يمشي بعد ذلك حتى نهاية الأشواط السبعة.

الثالث: استلام الحجر وتقبيله، وقد سبق بيانه، فإن لم يتمكن فيقتصر على الاستلام، فإن لم يتمكن، أشار إليه بيده، ولا يزاحم أحدًا، ولا يؤذي أحدًا؛ فيقع في حرام لفعل مستحب، ؛ فليتنبه.

والنساء يستحب لهن ذلك في الليل عند خلو المطاف، أما في غير ذلك فلا؛ حتى لا يزاحمن الرجال. وهذه من المصائب التي نراها؛ فتجد من الرجال من يأخذ زوجته ويدخل بها على الحجر الأسود، لتستلم الحجر وتقبله بأية طريقة!! فيعرضها للزحام، والدخول وسط الرجال، مما نرى من هذه الهيئات المستنكرة التي لا يجوز أن يفعلها أهل الإيمان البتة.

الرابع: الأذكار المستحبة في الطواف، فيستحب أن يقول هذا الدعاء عند استلام الحجر وإن لم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما ذكره ابن حجر الهيثمي عن علي وابن عمر من الصحابة، يقول: بسم الله، والله أكبر، اللهم إيمانًا بك، وتصديقًا بكتابك، ووفاءً بعهدك، واتباعًا لسنة نبيك صلى الله عليه وسلم. وثبت في الصحيحين أن أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في

الطواف:﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١] وهذا الدعاء يجمع خيري الدنيا والآخرة.

الخامس: أن يكون في طوافه خاضعًا متخشعًا حاضر القلب، فلا يغفل عن شرف البقعة، وعن رؤية ربه له سبحانه وتعالى، وعن تطلعه وشوقه إلى الله تعالى، وعن دعائه لذنوبه بالمغفرة.

وذلك لأن الطواف صلاة، ينبغي أن يتأدب بآدابها، وأن يستشعر بقلبه عظمة من يطوف ببيته سبحانه وتعالى؛ لذلك يكره له في الطواف أن يضع يده على فمه، أو أن يتثاءب، أو أن يأكل أو أن يشرب، أو غير ذلك مما لا ينبغي أو مما يخالف هيئة التواضع والاستكانة والإقبال على الله تعالى، وكذلك يستحب ألا يتكلم بغير الذكر إلا أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر، إن استطاع ذلك.

وكذلك يكره له أن يطوف وهو يدافع الأخبثين، فقد يخاف أنه إن خرج فلن يستطيع الوضوء، وسيتأخر وسيتزاحم، فيطوف وهو حاقن. لذلك ينبغي أن تتوكل على الله تعالى، وتتوضأ وتكون متهيئا لعبادة الله تبارك وتعالى، متفرغًا لها، خالي الذهن والانشغال عن مثل ذلك؛ ليكون حالك أقرب إلى الله تعالى، وليكون أكمل للتواضع والإقبال على الله جل وعلا، وليكون أفرغ للذهن والقلب حال دعائك لربك سبحانه وتعالى.

وكذلك أن يصون نظره عما لا يحل له النظر إليه. فأنت في بيت الله تعالى فإذا كنت تنظر أو تتكلم في غير البيت، فلا ينبغي ذلك أبدًا في بيت ربك سبحانه وتعالى، فلا تصرف بصرك لشيء من هذا، وخذ حذرك لمثل هذه الأمور التي قد أتيت بيت الله تعالى ليتوب عليك منها لا لتستكثر منها، وتأخذ الذنب والإثم فيها !

بعد الانتهاء من الطواف ومن واجباته وسننه، تصلي ركعتين في مقام إبراهيم، وتقرأ في الأولى:﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، وفي الثانية:﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وهاتان الركعتان سنة عند الشافعية وواجب عند بعض أهل العلم؛ لقوله تعالى:﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥]، فمن تمكن صلى في المقام فهو المستحب، فإن لم يستطع تأخر قليلاً، فإن لم يستطع تأخر وراء المقام، وإن لم يتمكن جاز أن يصليها في أي مكان في البيت.

وينبغي للمرء أن يرفع الاضطباع حال الصلاة، فيغطي منكبه الأيمن، وذلك حال الصلاة عمومًا بداية من الركعتين في مقام إبراهيم، لأنه يكره للمرء أن يضطبع، فيعيد الرداء مرة أخرى على منكبيه ويستحضر الخشوع ويتذكر جلال البقعة، وأن يتذكر إبراهيم عليه السلام وإسماعيل ومشاهد بناء البيت، ثم يستحضر في قلبه ما يتمكن من دعاء الله بالقبول والمغفرة.

انتهى من الطواف ومن ركعتين في مقام إبراهيم جاز له أن يذهب إلى زمزم ويشرب ويتضلع ، ويدعو بما شاء من مهمات الدنيا والآخرة، وأن يرجع فيلتزم البيت، ما بين الحجر وباب الكعبة، وأن يدعو وأن يتعلق بأستار الكعبة كتعلق الغريم بمن يطلب العفو منه، وألا يتحرك حتى يظن أنه قد عُفِي عنه، وغُفر ذنبه.

فإذا انتهى من ذلك استلم الحجر – وهذه ينساها كثير من الناس كذلك- أن يستلم الحجر ويذهب إلى الصفا، ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليبدأ سعيه بين الصفا والمروة.

السعي بين الصفا والمروة

وبدايته أن يصعد جبل الصفا، لأن منه بداية الشوط الذي يجب أن يكون تامًّا، فإن أناسًا كثيرين لا يذهبون إلى الجبل ويسعوا من أي مكان.

فيقف على الصفا حتى يرى البيت ويستقبل القبلة، ويمكنه رؤية البيت من بين أعمدة الحرم الآن، ثم يهلل ويكبر، فيقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا، الحمد لله على ما أولانا، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، ويدعو بما شاء، ويقول الآية كما ذكر الحديث: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨] ثم يدعو بما شاء، ويكرر ذلك ثلاث مرات.

فيكبر ويقرأ الآية ويدعو، ثم يكبر ويقرأ الآية ويدعو، ثم يكبر ويقرأ الآية ويدعو، ولا يكون ذلك عملا روتينيا، ولكن ينبغي أنت تستحضر في قلبك الخشوع والخضوع وتستحضر طلباتك من

الله تبارك وتعالى، وأن توالي الدعاء بقلب حاضر لله تعالى خاشع باكٍ أن يغفر لك سبحانه وتعالى، وأن تستحضر مشاهد الحج، ومشهد سعي أم إسماعيل وتوكلها وثقتها في الله وتضحيتها، حتى يشهد القلب هذه المشاهد لتكون هذه الأعمال والمناسك في محل القبول من الله تعالى.

وبعد أن يفرغ من الدعاء، ينزل بعد ذلك إلى المروة ويمشي على هيئته، حتى يصل إلى الميلين الأخضرين، ويوجد الآن مصابيح خضراء في هذه الأماكن، فإن وصل إلى الميل الأول يهرول، يجري بأشد ما يكون الجري إلى أن يصل إلى الميل الثاني، وبعد ذلك يمشي على هيئته.

وهو في كل ذلك، يدعو الله تعالى ويكبره ويهلله ويقرأ القرآن، ويستغفر ويسبح ويحمد ويدعو بما شاء حتى ينتهي إلى المرو ة؛ فيقف على المروة كما وقف على الصفا، على الصخرات كذلك، ويدعو كما دعا على الصفا، ويكون بذلك قد قضى شوطًا.

ثم من الصفا إلى المروة شوطا آخر، ثم من الصفا إلى المروة حتى يتم أشواطه السبعة عند المروة؛ وحينئذ يتحلل، فيحلق شعره أو يقصره، إن كان متمتعا أو كان يسعى سعي الحج بعد طواف الإفاضة.

شروط وواجبات السعي

أولها: أن يقطع المسافة جميعها من الصفا إلى المروة بحيث لا يتبقى منها شيء ولو قدر خطوة حتى ولو كان راكبا ؛ فاحفظه فإن كثيرا من الناس يتساهل فيه، وهذا أيام الإمام النووي!

ثانيًا: الترتيب، فلا يجوز أن تبدأ من المروة، وإنما تبدأ من الصفا كما ذكر الله تعالى.

الثالث: أن تكمل سبعة أشواط بين الصفا والمروة؛ فلا يجوز ستة مثلًا، وأن يكون السعي بعد طواف صحيح سواء كان القدوم أو الزيارة، فطواف الوداع مثلا ليس بعده سعي.

سنن السعي

وهي كثيرة: **أحدها:** الذكر والدعاء على الصفا والمروة، وأن يقول: ربي اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم، إنك أنت الأعز الأكرم، اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ولو قرأ القرآن كان أفضل، ويستحب أن يسعى طاهرًا ساترًا للعورة، وليس من شروط السعي الطهارة.

فلو بدأ أحد السعي وبعد ذلك خرج منه ريح أو فقد طهارته في السعي، فلا بأس، ولكن ليس معنى ذلك أن يكمل وهو غير طاهر، فلو تمكن من الوضوء كان أحسن، إنما لو استكمل شوطه واستكمل بقية الأشواط فهو صحيح، وهذا ليس كالطواف الذي يشترط له الطهارة.

ومن الأمور التي يقع فيها الناس في السعي، الاضطباع وإن كان الاضباع في السعي هو مذهب الشافعية، إنما الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن يضطبع، وإن اضطبع فلا شيء فيها.

والأفضل أن يتحرز من الخلوة لسعيه وطوافه، وإذا كثر الزحام فينبغي أن يتحفظ من إيذاء الناس، وأن يترك هيئة السعي أهون من إيذاء المسلم، أو من أن يعرض نفسه للأذى، وإذا عجز عن السعي الشديد بين الميلين الأخضرين تشبه في حركته بالساعي، يعني: لو كان الزحام إلى الدرجة التي لا يستطيع أن يهرول فيها، فعليه أن يتشبه بالهرولة.

فإذا أتم سعيه، وكان متمتعًا تحلل، فحلق أو قصر، والحلق أفضل كما ذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللهم اغفر للمحلقين، قالها ثلاثًا، ثم قال: وللمقصرين**»[1] ، أما إن كان في عمرة التمتع فيقصر، حتى يبقى له شعر يمكن أن يحلقه ؛ لأنه سيحلق يوم العيد الأكبر.

مسألة: الاعتمار بعد التحلل للمتمتع

بعد التحلل، بالحلق أو التقصير، يصير المرء حلالا، يعني: حل له كل ما كان محرما عليه بالإحرام، من الجماع وغيره، وقد ذكرنا محرمات الإحرام.

والحاج إن كان متمتعًا، أقام بمكة حلالاً، فإذا أراد أن يعتمر تطوعا كان له ذلك، ويستحب الإكثار من الاعتمار.

وهذه المسألة محل سؤال كثير من الناس، فيقول: أنا ذهبت إلى الحج، وحججت متمتعا وانتهيت من أعمال العمرة وتحللت، وأقمت بمكة، هل يجوز لي أن أقوم بعمرة أخرى؟ في مذهب الشافعية يستحب له أن يأتي بعمرات كثيرة إن استطاع وتمكن من ذلك؛ بعض الأئمة يخالفون في هذه المسألة، ونقول: هذا هو الصحيح في مذهب الشافعية، أنه يستحب الإكثار من الاعتمار.

---

(١) رواه البخاري (٢/٦١٧ ، رقم ١٦٤١) ، ومسلم (٤/٨١ ، رقم ٣٢٠٨) .

يوم التروية

فإذا كان يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة، أحرم الحاج المتمتع من مكة ونوى الحج، وكذا من أراد الحج من أهل مكة الكائنين فيها في ذلك الوقت، سواء المقيمون والغرباء.

وسُمي اليوم الثامن من ذي الحجة بيوم التروية؛ لأن الحجاج يتروون الماء معهم من مكة، فيأخذون الماء من زمزم، فيحملون أسقيتهم، من كان معه "جركن" أو شيء، يملأ ما معه من أسقية لتكون شرابه في منى وفي عرفات، ثم بعد ذلك في مزدلفة.

فإذا ما انتوى الحج في بدأ بالتلبية: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، (إن الحمد والنعمة لك والملك)، لا شريك لك.

وفي مذهب الشافعية، يستحب للإمام، الذي هو الخليفة، إذا لم يحضر الموسم بنفسه أن ينصب أميرا على الحجيج وأن يطيعوه فيما ينوبهم، وأن يخطب خطب الحج الأربع، على مذهب الشافعية، وفائدة هذه الخطب أن يخبرهم الإمام في كل خطبة بما بين أيديهم من المناسك.

فالحج له أربع خطب: إحداهن يوم السابع بمكة، قبل يوم التروية، والثانية يوم عرفة، والثالثة يوم النحر بمنى، والرابعة يوم النفر الأول بمنى.

وأما مذهب مالك وأبي حنيفة، فثلاث خطب فقط: يوم السابع والتاسع وهو يوم عرفة ويوم النفر الثاني، ولا خطبة عندهم يوم النحر.

وفي يوم التروية، يخرج إمام الحج بالحجيج إلى منى، ويكون خروجهم بعد صلاة الصبح بمكة؛ بحيث يصلون الظهر بمنى، وهذا هو المذهب الصحيح المشهور من نصوص الإمام الشافعي والأصحاب رحمهم الله، وفي قول: يصلون الظهر بمكة ثم يخرجون.

والسنة أن يصلوا بمنى الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وأن يبيتوا بها وأن يصلوا الصبح بها كذلك، كل ذلك مسنون وليس بنسك واجب، فلو لم يدخلوها أو يبيتوا بها فلا شيء عليهم، لكن فاتتهم سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

وهي من المسائل التي يتساهل فيها الناس اليوم، فيخرجون من مكة إلى عرفات مباشرة ولا يبيتون بمنى، من أراد تحصيل بر الحج، لا بد وأن يقتفي أثر النبي صلى الله عليه وسلم في كل أعماله؛ يرجو بذلك أن يكون حجه مبرورًا، إما أن يفرط في سنة من هنا، وسنة من هناك، وأجر من

هنا، وأجر من هناك، إذا به قد انتهى حجه ولم يحصل شيئًا من البر، فأين هو مما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**»[1].

ولو جاء يوم الثامن يوم جمعة، خرجوا قبل طلوع الفجر؛ لأنه لا ينبغي للمرء أن ينشئ سفرا يوم الجمعة بحيث لا يصلي الجمعة؛ لأنه حرام أو مكروه، ولا صلاة جمعة بمنى ولا بعرفات؛ لأن شرط الجمعة أن تكون بدار الإقامة.

والقول بصلاة الجمعة بمكة ثم الخروج لمنى، قولٌ ضعيف، لذلك في هذه الحالة، يُحرم المرء بالحج ويخرج إلى منى قبل الفجر.

يوم عرفة

وهو اليوم التاسع من ذي الحجة، فإذا طلعت شمس يوم التاسع، توجه الحجيج إلى عرفات بعد طلوع الشمس، وعرفات ليس من الحرم، وإنما هي كما يقال فناء البيت، واستحسن بعض العلماء أن يقول القائل في سيره: اللهم إليك توجهت، ولوجهك الكريم أردت؛ فاجعل ذنبي مغفورًا، وحجي مبرورًا، وارحمني ولا تخيبني إنك على كل شيء قدير.

ولا يفارق التلبية؛ فيلبي في كل وقت صاعدا ونازلا، مجتمعين ومتفرقين، قائمين ومضطجعين، دبر الصلوات، وهم نازلون من مراكبهم وصاعدون إليها، كل ذلك لا يتركون التلبية لله تعالى على النحو الذي ذكرنا، وعلى المشهد العظيم من مشاهد التلبية الذي أشرنا إليه في مشهد التلبية.

قال أقضى القضاة الماوردي رحمه الله: ويستحب أن يسير إلى عرفات على طريق ضبّ، وأن يعود على طريق المأزمين؛ اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، في أن يذهبوا إلى عرفات في طريق، وأن يأتوا من طريق آخر. وضب اسم الجبل الذي بأصل مسجد الخيف، فإذا أراد أن يتوجه إلى عرفات يأخذ في الجبل الذي بأصل مسجد الخيف إلى عرفات، وطريق المأزمين وهو الطريق بين الجبلين.

---

(١) رواه أحمد (٤٦٢/٢ ، رقم ٩٩٤٩) ، والبخاري (٦٢٩/٢ ، رقم ١٦٨٣) ، ومسلم (٩٨٣/٢ ، رقم ١٣٤٩).

فإذا وصلوا مسجد نمرة في عرفات، ضُربت فيه قبة الإمام، ومن كان له قبة أو خيمة ضربها اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يدخل عرفات إلا بعد الزوال، وبعد صلاة الظهر والعصر مجموعتين.

وأما ما يفعله الناس في هذه الأزمان من دخول أرض عرفات في اليوم الثامن -وهي أزمان الإمام النووي- فخطأ مخالف للسنة، وتفوتهم بسببه سنن كثيرة منها: الصلاة بمنى والمبيت بها والتوجه من منى إلى نمرة، والنزول بنمرة، وأن يحضر الخطبة والصلاة قبل دخول عرفات وغير ذلك.

فإذا زالت الشمس قام الإمام ليخطب قبل صلاة الظهر خطبتين، يبين لهم في الأولى الوقوف بعرفات وشرطه ومتى يدفع الناس من عرفة إلى مزدلفة وغير ذلك مما بين أيديهم، وأن يحرضهم على إكثار الدعاء والتهليل بالموقف، وأن يخفف هذه الخطبة لكن لا يبلغ تخفيفها تخفيف الخطبة الثانية، فإذا فرغ من الخطبة الأولى جلس قدر قراءة سورة الإخلاص، ثم يقوم إلى الخطبة الثانية ويأخذ المؤذن في الأذان ويخفف الخطبة بحيث يفرغ منها أي الإمام مع فراغ المؤذن من الأذان، وقيل: مع فراغه من الإقامة، ثم ينزل الإمام فيصلي بالناس الظهر والعصر جمعًا وقصرًا.

وقد سأل البعض، قال: صليت الظهر وحدها والعصر وحدها يوم عرفة ولم أكن أعرف بالجمع؟ نقول له: جاز، ولكنه خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولو وافق يوم عرفة يوم جمعة لم يصلِّ الإمام الجمعة؛ لأن من شروط الجمعة في مذهب الشافعية وغيرهم أن تكون في دار الإقامة.

فالسنة حينئذ أن يمكثوا بنمرة حتى تزول الشمس، وأن يغتسل بها للوقوف بعرفات، وهذا دليل تعظيم الشرع المشرف، ودليل حياة هذه القلوب، وخشوعها لله تعالى، واستحضارها لعظمة الرب جل وعلا والوقوف بين يديه، وكذلك لاستحضارها هذه المعاني الجميلة في يوم عرفات من أن يكون المرء واقفًا بين يدي الله تعالى طاهرًا متطهرًا، في ظاهره وباطنه ، يرجو المولى سبحانه وتعالى أن يفيض من عرفات وقد غفرت ذنوبه، كما ذكرنا في هذه الأحاديث: «أفيضوا عبادي

مغفورًا لكم»[1]. وإذا لم يتمكن من أن يغتسل لا بأس أن يتيمم كما ذكرنا، وكل ذلك ليشعر نفسه بأنه يكون على الخوف والوجل وعلى انتظار المغفرة، وعلى الانكسار والتواضع والتذلل لله سبحانه وتعالى عسى أن يحفظ الله تعالى عليه حجته.

فإذا فرغوا من صلاة الظهر والعصر مجموعتين قصرا، ساروا إلى الموقف في عرفات، وعرفات كلها موقف؛ ونوضح ذلك لأن العوام تتقاتل لكي تصعد على جبل الرحمة والذي عند نهايته شاهد، وإنما يظنون بذلك أن ذلك موقف النبي صلى الله عليه وسلم في عرفات والأمر ليس كذلك !

وفي أي موقف من عرفات وقف أجزأه، لكن أفضلها موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم – واسمع هذه المسألة؛ لأنه لا يعرفها كثير من الناس- وهو: عند الصخرات الكبار المفترشة في أسفل جبل الرحمة، وهو ما ينبغي أن يحرص عليه المرء إن استطاع ذلك دون مزاحمة، ليستن بكل سنة سنّها له النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المواقف.

مسألة: هل مسجد نمرة من عرفات؟

واعلم أنه ليس من عرفات وادي عرنة ولا نمرة ولا المسجد، وهذه الأيام أدخلوا جزءًا من مسجد نمرة في عرفات؛ فصار الجزء الأمامي من مسجد نمرة ليس من عرفات، وإنما من وادي عُرنة، والجزء الخلفي من المسجد في عرفات، وقد وضعوا إشارات تبين نهاية عرفات في المسجد بحيث لا يقف المرء خارج هذا الحد، فيقف في وادي عرنة وليس في عرفات.

لذلك لو جلس أحد في مسجد نمرة نفسه، فليحرص على الجلوس في الجزء الذي في عرفة وليس خارج عرفة؛ لأن البعض قد يجلس في مسجد نمرة بل قد يتشاجر لكي يصل إلى مكان وراء الإمام في مسجد نمرة، فيجد نفسه ليس في عرفات، فأضاع على نفسه الوقوف بعرفات بل أضاع على نفسه الحج من أوله إلى آخره !

---

(١) رواه ابن عساكر عن أنس، وأخرجه حمزة بن يوسف السهمي في تاريخ جرجان (١/٤٨٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/٦٠١): رواه البزار وفيه إسماعيل بن رافع وهو ضعيف.

واجبات الوقوف بعرفة

أحدهما: كونه في وقته المحدود وهو: من زوال الشمس يوم عرفة إلى طلوع الفجر ليلة العيد، فمن حصل بعرفة لحظة لطيفة من هذا الوقت صح وقوفه وأدرك الحج، ومن فاته ذلك فاته الحج.

فوقت الوقوف بعرفات يكون من زوال الشمس –وهو وقت الظهر- يوم عرفات إلى طلوع الفجر يوم العيد وهو يوم العاشر، من وقف في هذه المدة أجزأه، ولو وقف لحظة لطيفة، ونوضح ذلك لأن هناك أناس تعتقد أن الوقوف بعرفات يكون حتى غروب الشمس فقط، وتعتقد أن من تغرب عليه الشمس ولا يلحق عرفات، فقد ضاع عليه الحج؛ وهذا غير صحيح، الصحيح أنه إن دخل عرفات قبل فجر يوم العاشر، فقد أدرك الوقوف بعرفات .

وهنا مسألة مهمة مختلفٌ في كونها واجبًا أو مستحبًا، يعني: من تركها عليه الدم وجوبًا أو استحبابًا، وهي: أنه إذا أدرك عرفة بالنهار فلا بد أن يجمع بين النهار والليل في عرفة، بمعني: أن ينتظر بعرفات بعد الغروب بقليل حتى يجمع بين الليل والنهار في عرفات.

ثم بعد أن يدخل عليه الليل في عرفات، يدفع إلى مزدلفة، لأن الجمع بين الليل والنهار في عرفات على قول بعض أهل العلم فيه قولان، أنه واجب أو أنه مستحب.

فإن وصل في الليل فلا شيء عليه، وأجزأه. لأن البعض قد يقول: كنت في جدة، ولم أستطع الدخول إلى مكة، إلا يوم عرفات نفسه، ووصلت عرفات قبل الفجر بخمس دقائق، قد أوشك الفجر أن يؤذن فهل وقفت بعرفات ؟ نقول: نعم، الوقوف قبل طلوع الفجر يجزئ.

والواجب الثاني: كونه أهلاً للعبادة، سواء فيه الصبي والنائم وغيرهما، فالمغمى عليه والسكران لا يصح وقوفهما؛ لأنهما ليسا من أهل العبادة.

فإذا ذهب أحدٌ لعرفات وقبل الزوال أغمي عليه، وذهبوا به إلى المستشفى في عرفات، فلم يفق إلا يوم العيد؟ نقول: فاته الوقوف بعرفات وضاع عليه الحج.

ولو كان شخصًا نائما، ذهب عرفات وكان متعبا فنام، ولكنه قام فصلى، أو حصل جزء يسير من أجزاء عرفات بلحظة لطيفة من وقت الوقوف المذكور، صح وقوفه. وكذلك من وقف

بعرفات عمدا، أو مع الغفلة أو مع البيع والشراء أو مع التحدث واللهو، كل ذلك لو حصله وكان محرما فقد حصل الوقوف بعرفات.

مسألة: حكم من لم يستطع الوقوف بعرفات

في الحديث الصحيح أن «**الحج عرفة**»[1] كما قال النبي صلى الله عليه وسلم؛ فمن لم يقف بعرفة فلا حج له، ولزمه أن يتحلل بعمرة، وأن يهدي شاة وعليه الحج من قابل، يعني من العام الذي بعده.

سنن وآداب الوقوف بعرفة

وهي آداب التي ينبغي لطالب المغفرة، وطالب الرحمة من الله تعالى، أن يحرص عليها:

الأولى: أن يغتسل بنمرة للوقوف بعرفات.

والثاني: ألا يدخل عرفات إلا بعد الزوال والصلاتين. وهذه قليلاً ما يفعلها أهل الإيمان فضلا عن غيرهم، فيذهب إلى عرفات مبكرًا ويغتسل للدخول، وينتظر حتى الزوال، ثم بعد ذلك يصلي الظهر والعصر مجموعتين، ثم يدفع إلى عرفات للوقوف بها.

الثالث: أن يخطب الإمام خطبتين وأن يجمع الصلاة.

الرابع: تعجيل الوقوف عقب الصلاتين ما أن يسلم من الصلاة حتى يذهب إلى الوقوف، وطلب الرحمة والمغفرة والعتق من النار.

والخامس: أن يحرص على الوقوف بموقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصخرات، وأما ما اشتهر عند العوام من الاعتناء بالوقوف على جبل الرحمة الذي بوسط عرفات فخطأ مخالف للسنة، ولم يذكر أحد ممن يعتمد عليه من أهل العلم أو غيرهم أن في صعود هذا الجبل فضيلة.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠٩/٤ ، رقم ١٨٧٩٦) ، وأبو داود (١٩٦/٢ ، رقم ١٩٤٩) ، والترمذي (٢٣٧/٣ ، رقم ٨٨٩)، وقال: حسن صحيح، والنسائي (٢٦٤/٥ ، رقم ٣٠٤٤) ، وابن ماجه (١٠٠٣/٢ ، رقم ٣٠١٥) ، والحاكم (٣٠٥/٢ ، رقم ٣١٠٠) وقال الحاكم : صحيح ..

السادس: إذا كان يشق عليه الوقوف ماشيًا أو كان يضعف به عن الدعاء، أو كان ممن يقتدى به ويستفتى، فالسنة أن يقف راكبا وهو أفضل من الماشي، أقوال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

أصحها: راكبًا ؛ اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولأنه أعون على الدعاء وهو المهم، وهذا الكلام ليس موجودًا كثيرًا هذه الأيام ! **والقول الثاني**: أن ماشيًا أفضل، **والثالث:** هما سواء، وهذا حكم الرجل.

وأما المرأة، فالأفضل لها على أي حال أن تكون قاعدة، وهذا مما يغلط فيه كثير من الناس حتى المتدينون؛ والقعود أفضل لأنه أستر لها، وممن صرح به الماوردي قال: ويستحب لها أن تكون في حاشية الموقف لا عند الصخرات ولا عند الزحام.

السابع: أن يقف مستقبلًا القبلة، متطهرًا، ساترًا عورته، ولو وقف على غير ذلك صح وإنما فاتته الفضيلة. هل من أراد أن يغفر الله له، يقف على غير وضوء، أو يقف غير مستور العورة؟! أو يقف على الغفلة وبمظهر لا يدل على طلب الرحمة أو المغفرة! أو يقف في اللغو والكلام والشجار والأكل وغير ذلك مما نرى من الأحوال العجيبة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الثامن: أن يكون مفطرًا، فلا يصوم سواء كان يضعف به أم لا؛ لأن الفطر أعون له على الدعاء، وقد ثبت في الصحيح «**أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف مفطرًا في عرفات**»[1].

التاسع: أن يكون حاضر القلب فارغًا من الأمور الشاغلة عن الدعاء، وينبغي أن يقدم قضاء أشغاله قبل زواله، فقبل الزوال يقضي كل ما وراءه؛ حتى يفرغ قلبه وبدنه للوقوف بين يدي الله تعالى، وأن يتفرغ بظاهره وباطنه عن جميع العلائق، وينبغي ألا يقف في طريق القوافل وغيرهم؛ لئلا ينزعج بهم، فيختار موقفا يكون أقرب للخشوع وأحب إلى الله تعالى، ليدعو فيه بقلب حاضر لله جل وعلا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢/٧٠١، رقم ١٨٨٧) ، ومسلم (٣/١٤٥ ، رقم ٢٦٨٨). ولفظه (عَنْ أُمِّ الْفَضْلِ بِنْتِ الْحَارِثِ أَنَّ نَاسًا تَمَارَوْا عِنْدَهَا يَوْمَ عَرَفَةَ فِي صِيَامِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ بِصَائِمٍ. فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ بِقَدَحِ لَبَنٍ وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى بَعِيرِهِ بِعَرَفَةَ فَشَرِبَهُ).

العاشر: أن يكثر من الدعاء والتهليل وقراءة القرآن؛ فهذه وظيفة هذا اليوم المبارك، ووظيفة هذا الموضع المبارك، ولا يُقصر في ذلك، فهو معظم الحج ومخه ومطلوبه، وفي الحديث الصحيح: «**الحج عرفة**»[1] فالمحروم من قصر في الاهتمام بذلك واستفراغ الوسع فيه، وأن يكثر من الذكر والدعاء قائمًا وقاعدًا، وأن يرفع يديه في الدعاء، ولا يجاوز بهما رأسه، ولا يتكلف السجع في الدعاء، ولا بأس بالدعاء المسجوع إذا كان محفوظًا بغير تكلف، ويستحب أن يخفض صوته بالدعاء، ويكره الإفراط في رفع الصوت، وينبغي أن يكثر من التضرع فيه والخشوع، وإظهار الضعف والافتقار والذلة لله تعالى وأن يلح في الدعاء، وألا يستبطئ الإجابة، بل يكون قوي الرجاء بالإجابة، وأن يكرر كل دعاء ثلاثة، وأن يفتتح دعاءه بالتحميد والتمجيد لله تعالى، والتسبيح والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وأن يختمه بمثل ذلك، وليكن متطهرًا متباعدًا عن الحرام والشبهة في طعامه وشرابه وملبسه ومأكوله وغير ذلك مما معه.، فإن هذه من آداب جميع الدعوات، وليختم دعاءه بآمين، وليكثر من التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل.

وأفضل ذلك ما رواه الترمذي وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: « وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».[2]

وفي كتاب الترمذي عن علي رضي الله عنه قال: أكثر ما دعا به النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفة: « اللهم لك الحمد كالذي نقول وخيرًا مما نقول، اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي، وإليك مآبي، ولك ربي تراثي، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر، اللهم إني أعوذ بك من شر ما تجيء به الريح»[3] بغض النظر عن أسانيد هذا الحديث.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/٥٧٢ ، رقم ٣٥٨٥) ومالك (١/٢١٤ ، رقم ٥٠٠) ، والبيهقي (٥/١١٧ ، رقم ٩٢٥٦) وقال: هذا مرسل وقد روى عن مالك بإسناد آخر موصولا ووصله ضعيف .

(٣) أخرجه الترمذي (٥/٥٣٧ ، رقم٣٥٢٠) ، وابن خزيمة (٤/٢٦٤ ، رقم ٢٨٤١) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٤٦٢ ، رقم ٤٠٧٣) .

ويستحب أن يكثر من التلبية كذلك، فلا يزال ملبيًا حتى يرمي جمرة العقبة يوم العيد، فيكثر من التلبية رافعا بها صوته، ومن الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينبغي أن يأتي بهذه الأنواع كلها: فتارة يدعو، وتارة يهلل، وتارة يكبر، وتارة يلبي، وتارة يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، وتارة يستغفر، وتارة يدعو منفردًا ومع جماعة، وليدع لنفسه ووالديه وأقاربه وشيوخه وأصحابه وأحبابه وأصدقائه، وسائر من أحسن إليه وسائر المسلمين فلا ينس ذلك كله.

وليحذر كل الحذر من التقصير في ذلك اليوم؛ فإنه إن فاته هذا موقف فاته الخير، وهذا اليوم لا يمكن تداركه بخلاف غيره.

ويستحب الإكثار من الاستغفار والتلفظ بالتوبة من جميع المخالفات مع الاعتقاد بالقلب، وأن يكثر من البكاء مع الذكر والدعاء؛ فهناك تسكب العبرات، وتقال العثرات، وترجى الطلبات، وإنه لمجمع عظيم، وموقف جسيم يجتمع فيه خيار عباد الله المخلصين، وخواصه المقربين وهو أعظم مجامع الدنيا.

ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ما من يوم أكثر من أن يعتق الله تعالى فيه عبدًا من النار من يوم عرفة، وأنه يباهي بهم الملائكة يقول: ماذا أراد هؤلاء؟**»[1].

وروينا عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« **ما رئي الشيطان أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا أن الرحمة تنزل فيه؛ فيتجاوز عن الذنوب العظام** »[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٢/٩٨٢ ، رقم ١٣٤٨) ، ولفظه (عَنْ عَائِشَةَ قالت: قال رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–: (مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِى بِهِمُ الْمَلاَئِكَةَ فَيَقُولُ مَا أَرَادَ هَؤُلاَءِ).

(٢) أخرجه مالك (١/٤٢٢ ، رقم ٩٤٤) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٤٦١ ، رقم ٤٠٦٩).

وعن الفضيل بن عياض رضي الله عنه أنه نظر إلى بكاء الناس يوم عرفة فقال: أرأيتم لو أن هؤلاء ساروا إلى رجل واحد فسألوه دانقًا -مليمًا يعني- أكان يردهم؟ قيل: لا. قال: والله للمغفرة عند الله عز وجل أهون من إجابة رجل بدانق، المغفرة عند الله أهون من ذلك بكثير.

وعن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، أنه رأى سائلا يسأل الناس يوم عرفة؛ فقال: يا عاجز، أفي هذا اليوم تسأل غير الله تعالى!

ومن الأدعية المختارة في هذا اليوم:

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت؛ فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم.

اللهم اغفر لي مغفرة من عندك تصلح بها شأني في الدارين، وارحمني رحمة منك أسعد بها في الدارين، وتب علي توبة نصوحا لا أنكثها أبدا، وألزمني سبيل الاستقامة لا أزيغ عنها أبدًا.

اللهم انقلني من ذل المعصية إلى عز الطاعة، وأغنني بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك، ونوّر قلبي، وأعذني من الشر كله، واجمع لي الخير كله، أستودعك ديني وأمانتي وقلبي وبدني وخواتيم عملي وجميع ما أنعمت به علي وعلى جميع أحبائي والمسلمين أجمعين. و باب الدعاء واسع جدا، ويقول الشيخ: لكني نبهت على أصوله ومقاصده، والله أعلم.

الحادي عشر: الأفضل للواقف ألا يستظل، بل يبرز للشمس إلا لعذر بأن يتضرر، أو أن ينقص دعاؤه واجتهاده؛ ليقف لله تعالى على هذا المعنى من معاني التذلل ومن معاني بذل النفس لله جل وعلا، وأن يراه في الشمس واقفا ينتظر رحمته وينتظر مغفرته يطلع الله تعالى عليه وقد فعل بنفسه ذلك فيغفر له ذلك سبحانه وتعالى.

الثاني عشر: ينبغي أن يبقى في الموقف حتى تغرب الشمس؛ فيجمع في وقوفه بين الليل والنهار، فإذا أفاض قبل غروب الشمس فعاد إلى عرفات قبل طلوع الفجر فلا شيء عليه، وإن لم يعد أراق دما، وهل هذا واجب أو مستحب؟ فيه قولان للشافعي أصحهما: أنه مستحب، والثاني: أنه واجب، وهذا فيمن حضر نهارا، أما من لم يحضر في النهار فلا شيء عليه، ولكن فاتته الفضيلة.

لذلك فليحذر الحجيج، فقد حكى بعض إخواننا الراجعون من الحج أن بعض شركات الحجيج أمروهم أن يحضروا حاجاتهم لينزلوا إلى مزدلفة بعد العصر، وهي الساعة التي يتنظر فيها

الناس مغفرة الله تعالى، وأن يهب فيها المسيء للمحسن، وأن يتجاوز عن الذنوب العظام، وأن يقف المرء موقف الخشوع، والاستغفار والبكاء والتلبية وغير ذلك من أعمال هذا اليوم العظيم التي ينتظر الناس بها أن يغفر الله لهم، إذا بهم يقولوا لهم: هيا لنمشي بعد العصر، فيصبح كل شغلهم أن يتجهزوا ليرحلوا من عرفات، فينشغلون بالصعود والتربيط، وما يحدث من رفع الصوت والجري وكأنه ليس هناك حج، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

الثالث عشر: ليحذر كل الحذر من المخاصمة والمشاتمة والمنافرة والكلام القبيح، وهذا أصبح كثير في هذه الأيام، (الشتم والدفع، وأين الأكل والشرب)) وكأن يوم عرفة للأكل والشرب والمشاتمة والمنافرة ولا حول ولا قوة إلا بالله!

لذلك يحذر كل الحذر من ذلك، بل ينبغي أن يحترز عن الكلام المباح ما أمكنه؛ فإنه لو استرسل مع الكلام المباح يخاف انجراره إلى الكلام الحرام من الغيبة ونحوها، وينبغي أن يحترز غاية الاحتراز عن احتقار من يراه رث الهيئة، أو مقتصرا في شيء، ويحترز كذلك عن انتهار السائل ونحوه، وإن خاطب ضعيفا فليتلطف في مخاطبته، فإن رأى منكرًا محققًا وجب عليه إنكاره، وأن يتلطف في ذلك.

الرابع عشر: ليستكثر من أعمال الخير في يوم عرفة وسائر أيام عشر ذي الحجة؛ فقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ما العمل في أيام أفضل منه في هذه الأيام يعني: أيام العشر. قالوا: ولا الجهاد؟ قال: ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بماله ونفسه فلم يرجع من ذلك بشيء**»[1] وأيام العشر هي الأيام المعلومات، أما الأيام المعدودات فهي أيام التشريق: الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر.

مسألة: إذا غلط الحجاج فوقفوا في غير يوم عرفة

يعني: وقفوا يوم الثامن أو يوم العاشر. يقول الإمام النووي: إذا غلط الحجاج - جميعهم- فوقفوا في غير يوم عرفة نُظر: إن غلطوا بالتأخير فوقفوا العاشر من ذي الحجة أجزأهم، وتم حجهم ولا شيء عليهم وسواء ظهر لهم الغلط بعد الوقوف أو في حال الوقوف.

---

(١) أخرجه أحمد (١/٣٤٦ ، رقم ٣٢٢٨) ، والبخاري (١/٣٢٩ ، رقم ٩٢٦).

ولو غلطوا فوقفوا في الحادي عشر، أو غلطوا في التقديم فوقفوا في الثامن، أو غلطوا في المكان فوقفوا في غير أرض عرفات؛ فلا يصح حجهم بحال.

إذن لا يجزئهم إذا غلطوا إلا أن يقفوا يوم العيد بعرفات، وذلك لارتباط ليلة العيد بعرفات، إما إن كان خطأهم بالوقوف، قبل يوم العيد أو بعده، فلا يجزئهم بحال.

ولو وقع الغلط بالوقوف في العاشر لطائفة يسيرة، لا للحجيج، لم يجزئهم على الأصح، ولو شهد واحد أو عدد برؤية هلال ذي الحجة فردت شهادتهم لزم الشهود الوقوف في التاسع عندهم، وإن كان الناس يقفون بعدهم.

يعني: إذا جاء اثنان، أو ثلاثة رأوه بأعينهم هلال ذي الحجة، والناس لم تأخذ بهذه الشهادة، فمن رأوه بأعينهم، يكون يوم التاسع عندهم يوم عرفة، ويلزمهم أن يقفوا في اليوم الذي رأوا فيه الهلال، ولو أرادوا أن يقفوا ثانية مع الناس –في يوم رؤيتهم- فلا مانع، لكن هذا اليوم الذي رأوا فيه الهلال لزمهم أن يقفوا فيه؛ لصحة رؤية هلال ذي الحجة ولصحة يوم عرفة عندهم.

ولو قالوا – هؤلاء الذين رأوا الهلال- لن نقف وإنما سنقف مع الناس، لا يصح وقوفهم، وحجهم باطل، بلا خلاف في مذهب الشافعية، وحكى بعض الأصحاب أنه يجزئهم عند بعض الكلام في مذهب الحنفية عن محمد بن الحسن.

مسألة لمن تأخر عن الدخول لعرفات ولم يصلي العشاء

وقد تحدث هذه كذلك في هذه الأيام، يقول: لو أن محرما بالحج سعى إلى عرفة، كان يعمل مثلا في جدة ولم يستطع الدخول إلا في وقت متأخر، وكان لم يصلي العشاء، وسعى إلى عرفة، فقرُب منها قبل طلوع الشمس ليلة النحر، بحيث أن الوقت الذي بقي، إما أن يصلي فيه العشاء أو يسعى فيه للوصول لعرفة، باقٍ على الفجر خمس دقائق أو عشر دقائق، إما أن يدخل عرفة أو يذهب عليه الحج فقد تعارض في حقه أمر الوقوف وأمر صلاة العشاء، فلو صلى العشاء فلن يدخل عرفة ، ولو جرى ليدخل لم يصلي العشاء...فماذا يفعل؟

وهي مسألة جميلة نذكرها، يقول: هناك ثلاثة أوجه، ونذكر الوجه الثالث، وهو الذي ذكره كثير من أهل العلم غير الشافعية، وهو: أن يجمع بين الصلاة وبين الذهاب إلى عرفة؛ فيصلي صلاة شدة الخوف وهي الصلاة التي يصليها الشخص وهو ماشٍ في لقاء العدو، فيحرم بالصلاة، يكبر: الله

أكبر، ويشرع فيها ويعدو ذاهبًا إلى عرفات، فيدخل إلى عرفات مصليًا، وهذا العذر بالذات من الأعذار التي تبيح صلاة شدة الخوف.

مسألة: التعريف بغير عرفات

وهو القعود في المسجد يوم عرفات لمن لم يذهب للحج ما حكمه؟ يقول الإمام النووي: والتعريف بغير عرفات وهو الاجتماع المعروف في البلدان، اختلف العلماء فيه، فجاء عن جماعة استحبابه وفعله؛ فقد روي عن الحسن البصري أنه قال: أول من صنع ذلك ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الأثرم من أئمة الحنابلة: سألت أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى عن التعريف في الأمصار فقال الإمام أحمد: أرجو ألا يكون به بأس؛ قد فعله غير واحد، الحسن وبكر وثابت ومحمد بن واسع، كانوا يشهدون المسجد يوم عرفة. وكرهه جماعة، فورد جواز ذلك وأنه لا بأس به عند الشافعية وعند الحنابلة.

وقد صنف أبو بكر الطرطوشي المالكي الزاهد رضي الله عنه كتابا في البدع وذكره فيها، فمن يأخذ بهذا الكلام، نقول أن ذلك فعله غيره من أئمة السلف، وقد قال الإمام أحمد: إنه لا بأس به؛ فالمسألة إذن بعيدة عن أن تكون بدعة !

الإفاضة من عرفات إلى مزدلفة

السنة للإمام إذا غربت الشمس وتحقق غروبها أن يفيض من عرفات، وأن يفيض الناس معه، وأن يؤخروا صلاة المغرب بنية الجمع إلى العشاء.

قد أفاضوا ولا يزالون باكين لم يعلموا قد غفر لهم أم لا، يكثرون من التلبية، وذكر الله تعالى. والسنة أن يسلك الإمام بهم إلى مزدلفة طريق المأزمين الذي ذكرنا، وهو بين العلمين اللذين هما حد الحرم من تلك الناحية.

يقول: وإذا سار إلى المزدلفة سار ملبيًا مكثرًا من التلبية، وأن يكون المشي بسكينة ووقار، ليس على الحال العصبية و"النرفزة" والدفع وخبط السيارة التي أمامه، وإنما هو في تعظيم الله تعالى، وفي ضيافة الله جل وعلا، يرجو رحمته، وينتظر مغفرته؛ لذلك لا ينسى أيضًا في هذا الحال

الاستغفار، كما قال: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: ١٩٩] فلا يزال في التلبية والذكر والاستغفار حتى يصل إلى مزدلفة.

يقول: فإن وجد فرجة استحب له أن يسرع وأن يحرك دابته اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن لم يجد مشى على هيئته بسكينة ووقار يلبي، ويذكر الله تعالى ويستغفر الله جل وعلا.

يقول: فإذا وصلوا مزدلفة، صلوا المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا، وباتوا بمزدلفة. ثم إن الجمع بينهما يكون على الأصح بأذان وإقامتين لهما.

وإذا وصل إلى مزدلفة يستحب أن يصلي قبل حط رحله، ولا ينيخ الجمال ويعقلها حتى يصلي؛ لأنه ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم صلوا المغرب والعشاء مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ولم يحطوا رحالهم، حتى صلوا العشاء، والله تعالى أعلم.

وهذه مسألة مهمة وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، فالبعض ما أن ينزل إلى مزدلفة حتى يجلس للأكل والشرب، وتنزيل الحقائب وبعد ذلك يصلي. السنة أن يقدم الصلاة لله تعالى، والله تعالى يتولى أموره بعد ذلك، وييسر له حاله، لأنه إن قدم حق الله تعالى آل أمره إلى الغبطة والرضا.

مسألة: صلاة المغرب والعشاء قبل الوصول لمزدلفة

قال جماعة من أهل العلم الشافعية: يؤخر المرء صلاة المغرب والعشاء إذا لم يخش فوت وقت الاختيار للعشاء وهو ثلث الليل على القول الأصح، وعلى قول إلى نصف الليل، فإن خافه لم يؤخر بل يجمع بالناس في الطريق.

وهذا القول معناه: أن المرء إذا خشي أن تفوته صلاة المغرب والعشاء إلى نصف الليل أو إلى ثلث الليل على الأصح؛ فإنه ينزل ليصليها في وقت الاختيار، وبعض أهل العلم يقولون: إن صلاة العشاء يخرج وقتها بنصف الليل، والبعض يقول بثلث الليل، ومذهب الشافعية أن وقت العشاء من أذان العشاء إلى أذان الفجر.

وهذه تحدث أحيانًا أثناء الإفاضة من عرفات إلى مزدلفة من شدة الزحام ، فيقترب وقت صلاة الصبح قبل الوصول إلى مزدلفة، ففي هذه الحالة يجوز صلاة المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا قبل الوصول إلى مزدلفة، أو في أول مزدلفة.

ولو انفرد بعضهم بالجمع جاز، ولو صلى إحدى الصلاتين مع الإمام وصلى الأخرى وحده، فذلك جائز، ولو صلى أحدٌ المغرب في عرفة جاز ، ولو صلى العشاء فقط بمزدلفة جاز، ولو أخر المغرب والعشاء إلى مزدلفة وصلى المغرب والعشاء في مزدلفة جمعًا وقصرا، فهذه السنة، ولو قدم المغرب والعشاء جاز، وخلاف ذلك كله جائز ولكن ليس سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

مسألة : حكم المبيت بمزدلفة

وهذا المبيت في أعدل أقوال أهل العلم واجب. بعض أهل العلم قال: هو ركن لا يصح الحج إلا به، وبعضهم قال: مستحب، والوسط في هذه المسألة أن المبيت بمزدلفة واجب؛ فمن تركه عليه دم.

وهذه الأيام كذلك يقصر الحجيج في المبيت بمزدلفة، فينزلون من عرفات على الحرم، ليطوفوا !! فليأخذ المرء حذره إذا حج مع هؤلاء.

وقد يقول البعض: عند الذهاب إلى مزدلفة، نزلنا لنصلي المغرب والعشاء قبل منتصف الليل ثم ركبنا وذهبنا إلى منى، ماذا نفعل؟ نقول: يلزمه المبيت في النصف الثاني من الليل؛ لأن هناك أناسا تدفع إلى منى قبل نصف الليل ويقولون: لقد حققنا أصل السنة، ويدفعوا من مزدلفة قبل نصف الليل، وهذا لا يجزئ ، إنما ما يجزئه من المبيت بمزدلفة أن يبقى ولو فترة قليلة بعد نصف الليل، فإن دفع قبل نصف الليل فاته المبيت بمزدلفة وعليه دم واجب.

وإن حضر مزدلفة في النصف الثاني من الليل حصل له المبيت على نص الشافعي رحمه الله تعالى.

وإن ترك المبيت من أصله، أو دفع قبل نصف الليل ولم يعد، أو لم يدخل مزدلفة أصلا صح حجه وأراق دما، ولكن لم يفعل ما أمره النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «**خذوا عني**

مناسككم»[1] ولم يحج كما حج النبي صلى الله عليه وسلم، ذلك الحج التي ينتظر به رحمة الله تعالى.

وقد ذهب إمامان جليلان من أصحابنا إلى أن هذا المبيت ركن، لا يصح الحج إلا به، قاله أبو عبد الرحمن ابن بنت الشافعي رحمه الله وأبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة رحمه الله تعالى، لذلك يتأكد لأهل الإيمان الاعتناء بهذا المبيت.

مسألة: فضل ليلة مزدلفة

وليلة المبيت بمزدلفة وهي ليلة العيد، ليلة عظيمة جامعة لأنواع من الفضل منها: شرف المكان، فمزدلفة من الحرم، وكذلك شرف الزمان، وجلالة أهل الجمع الحاضرين وهم وفد الله تعالى وخير عباده، ومن لا يشقى بهم جليسهم؛ فينبغي أن يعتني الحاضرون في مزدلفة بإحياء هذه الليلة بالعبادة والصلاة والتلاوة والذكر والدعاء والخشوع والتفكر، وكذلك يستحب أن يغتسل في مزدلفة للوقوف بالمشعر الحرام وللعيد ولما فيها من الاجتماع، و من لم يجد ماء تيمم، كما سبق الإشارة لذلك.

وقد أنكر البعض إحيائها لمشقته الشديدة على الحاج لكثرة أعماله قبلها وبعدها، ولأنه صلى الله عليه وسلم لم يصح عنه فيها شيء لاضطجاعه عقب صلاته إلى الفجر، ونقول : أنه لا يلزم من اضطجاعه صلى الله عليه وسلم عدم الإحياء، لحصول الإحياء بالذكر والتفكر، وأن تركه صلى الله عليه وسلم القيام، لرفع المشقة عن الناس وحتى لا يكون فعله هذا من نسك الحج.

فصل: ويتأهب بعد نصف الليل للدفع إلى منى، ويأخذ من المزدلفة حصى الجمار، وهي سبع حصيات، وفي قول أن يأخذ حصى أيام التشريق، فيكون المجموع سبعين حصاة، أو تسع وأربعون للمتعجل، والاحتياط أن يزيد فربما سقط منها شيء.

ويستحب أن يكون الحصى مثل حصى الخذف لا أكبر ولا أصغر، يعني: أقل قليلاً من أنملة السبابة، فلا تأتي بحجرة كبيرة ولا حجرة صغيرة، وإنما قريب من الأنملة بحيث أن يمسكه بين السبابة والإبهام ، ويكون الحصى في قدر حبة الحمص، ويكره كسر الحجارة إلا لعذر، ولا يصح

---

(١) أخرجه مسلم (٩٤٣/٢ ، رقم ١٢٩٧) وأبو داود (٢٠١/٢ ، رقم ١٩٧٠) .

أن يرمي بأسمنت أو طين أو حجر كبير أو غيره، لذلك فليضغط على الحصاة بأصبعية، فإن تفتت فلا تصلح لأن يرمي بها.

ويسأل السائل يقول: لا بد من أخذها من مزدلفة؟ لا، من أي موضع أخذها المرء جاز له ذلك، لكن يكره أن يأخذها من مسجد- وكانوا في الزمن الماضي يلقون الحجارة في المسجد حتى لا يسجدوا على التراب، أو الحش- مكان قضاء الحاجة - أو المواضع النجسة.

أعمال يوم النحر

ويوم النحر هو أكثر أيام الحج عملا، ففيه الدفع إلى منى ورمي جمرة العقبة والحلق والهدي وطواف الإفاضة ونزول مكة والرجوع إلى منى؛ فأعماله كثيرة، لذلك فليبادر فيه بصلاة الصبح في أول وقتها، وليحافظ على ركعتي السنة قبلها.

بعد أن يصلي الصبح يذهب إلى المشعر الحرام، ثم يقف تحته ؛ ويحمد الله تعالى ويكبره ويهلله ويوحده ويدعوه ويكثر من التلبية، واستحبوا أن يقول: اللهم كما أخذتني فيه وأريتني إياه فوفقني لذكرك إن هديتنا، واغفر لنا وارحمنا كما وعدتنا بقولك وقولك الحق:﴿ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٩٨] ويكثر من قوله: اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ويدعو بما أحب ويختار الدعوات الجامعة والأمور المهمة، وأن يكرر دعواته يرجو بذلك تطبيق سنة النبي صلى الله عليه وسلم ورحمة الله تعالى والمغفرة، وكل هذا لا يعمله أحد هذه الأيام إلا من رحم الله تعالى.

ومزدلفة كلها موقف كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «جمع كلها موقف» [(١)] و"جمع" هو اسم مزدلفة، فيجوز أن يدعو في أي مكان في مزدلفة.

قبل طلوع الشمس وبعد الإسفار جدا، يدفع إلى منى ليرمي جمرة العقبة، وليستأنف بقية أعمال المناسك.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٩٣/٢ ، رقم ١٢١٨) ، وأبو داود (١٩٣/٢ ، رقم ١٩٣٦).

يقول: والسنة أن يقدم الضعفة من النساء، فلو كان معه نساء أو أطفال يريد أن يدفع بهم يمكن أن يدفعوا بعد نصف الليل من مزدلفة إلى منى ليرموا جمرة العقبة قبل الزحام، أما غيرهم ممن ليس بضعفة فيمكثون حتى يصلوا الصبح بمزدلفة كما ذكرنا.

والأعمال المشروعة يوم النحر، أربعة: رمي جمرة العقبة، ثم ذبح الهدي، ثم الحلق، ثم الذهاب إلى مكة لطواف الإفاضة، وهي على هذا الترتيب مستحبة.

من أراد أن يسير على سنة النبي صلى الله عليه وسلم في ترتيب أعمال يوم النحر، أول ما يبدأ يرمي جمرة العقبة، ثم إن كان عليه هدي ذبحه، وبعد ذلك يحلق شعره، ثم بعد ذلك ينزل إلى طواف الإفاضة.

مسألة: الأعمال الواجبة للتحلل

وهي ثلاثة: **رَمي جمرة العقبة بسبع حصيات، والحلق، والطواف. فإن فعل أمرين** من هذه الثلاثة فقد **تحلل التحلل الأول، يعني: جاز له أن يغير ملابس الإحرام ويلبس الملابس العادية**، ويجوز له الطيب، وقص الأظافر، وكل محرمات الإحرام **إلا النساء والصيد**.

فإن **فعل الأمر الثالث** تحلل التحلل الثاني وجاز له كل محرمات الإحرام بما فيها النساء والصيد.

وإن كان **الهدي** من الأعمال المشروعة في يوم النحر إلا أنه **لا يدخل في أعمال التحلل** ، أعمال التحلل ثلاثة: رمي جمرة العقبة، والحلق، والطواف، على هذا الترتيب.

فإن خالف الترتيب جاز ولا شيء عليه؛ فإن رمى جمرة العقبة ونزل طاف طواف الإفاضة لا شيء عليه، وغير ذلك كله جائز، يسر فيه النبي صلى الله عليه وسلم على المؤمنين أن يقدموا أو أن يؤخروا إذا لم يتمكنوا من ترتيب ذلك كما قال لمن سأل: «**ارم ولا حرج، اذبح ولا حرج، طف ولا**

حرج»[1] ، أما المحافظ على السنة فينبغي له أن يبدأ بهذا الترتيب يرجو به اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم في حجه.

فصل: ويدخل وقت الرمي والحلق والطواف بنصف الليل، من ليلة النحر التي هي في مزدلفة نفسها، والحلق والطواف فلا آخر لوقتهما ، أما آخر وقت للرمي فهو مغرب الثالث عشر، ثالث أيام التشريق ورابع أيام العيد، فإذا انتهت هذه الثلاثة خرج وقت الرمي وعليه دم إذا لم يرمِ.

وإذا خرجت هذه الأيام ولم يطف طواف الإفاضة ولم يحلق؟ قال: طواف الإفاضة والحلق لا آخر لوقتهما، بل يبقيان ما دام حيا، وهما ركنان لا يصح الحج إلا بهما.

وقد يسأل سائل: ذهب للعمرة ورجع ولم يحلق أو يقصر ماذا يفعل؟ نقول: ما زال عليه الحلق أو التقصير إلى يوم القيامة على مذهب الشافعية، لأن الحلق أو التقصير ركن من أركان الحج.

آداب رمي جمرة العقبة

الأول: ينبغي إذا وصل إلى منى ألا يعرج على شيء قبل جمرة العقبة، وتسمى الجمرة الكبرى وهي تحية منى؛ فلا يبدأ المرء قبلها بشيء، ويرميها قبل نزوله وحطه رحله.

وهي على يمين مستقبل القبلة إذا وقف في بطن الوادي وجعل الكعبة على شماله؛ لأن جمرة العقبة هي الأقرب إلى الكعبة.

ولينتبه الآتي إلى الجمرات فلا يرم أول جمرة يقابلها، لأن الجمرة الصغرى هي أول ما يقابله الآتي من مزدلفة فلا يرميها، ثم يجد الجمرة الوسطى فلا يرميها كذلك، ولكن يذهب إلى الجمرة الكبرى؛ والصحيح المختار في رمي جمرة العقبة أن يقف في بطن الوادي ويستقبل الجمرة ويجعل منى عن يمينه والكعبة المكرمة عن شماله ويرمي السبع حصيات.

---

(١) أخرجه البخاري (١/٤٣ ، رقم ٨٣) ، ومسلم (٢/٩٤٨ ، رقم ١٣٠٦). ولفظه (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– وَأَتَاهُ رَجُلٌ يَوْمَ النَّحْرِ وَهُوَ وَاقِفٌ عِنْدَ الْجَمْرَةِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِىَ. فَقَالَ « ارْمِ وَلاَ حَرَجَ » وَأَتَاهُ آخَرُ فَقَالَ إِنِّي ذَبَحْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِىَ. قَالَ « ارْمِ وَلاَ حَرَجَ ». وَأَتَاهُ آخَرُ فَقَالَ إِنِّي أَفَضْتُ إِلَى الْبَيْتِ قَبْلَ أَنْ أَرْمِىَ. قَالَ « ارْمِ وَلاَ حَرَجَ ». قَالَ فَمَا رَأَيْتُهُ سُئِلَ يَوْمَئِذٍ عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ قَالَ « افْعَلُوا وَلاَ حَرَجَ).

الثاني: السنة أن يرمي جمرة العقبة بعد طلوع الشمس وارتفاعها قدر رمح يعني: في وقت صلاة الضحى.

الثالث: السنة أن يرفع يديه في الرمي حتى يرى بياض إبطه؛ وذلك حتى يسمى رميًا، فلو أتى أحدٌ ووجد الحوض خاليا ووضع الجمرة في الحوض بدون أن يرفع يديه، فهذا لا يسمى رميًا. ولكن المرأة لا ترفع يدها حتى لا يبدو منها شيء.

الرابع: أن يقطع التلبية بأول حصاة يرميها، ويكبر بدل التلبية؛ لأنه بالرمي يشرع في التحلل من الإحرام، والتلبية شعار الإحرام؛ فلا يأت بها مع شروعه في التحلل.

ولو قدم الحلق أو الطواف على الرمي، قطع التلبية كذلك. فمن نزل على البيت الحرام ليطوف طواف الإفاضة، أو من نزل من مزدلفة فحلق، وبعدها ذهب ليرمي جمرة العقبة؟ قال: يقطع التلبية كذلك. فما أن يصل منى فيبدأ في أي فعل من أفعال التحلل إلا ويقطع التلبية، ليكبر الله تعالى، ويكون التكبير بعد ذلك شعاره في بقية أيام التشريق.

واستحب بعض أصحابنا في التكبير المشروع مع الرمي أن يقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلاً إلى آخر التكبير الوارد.

الخامس: أن يرمي راكبًا، وهي ليست متحققة كثيرًا في هذه الأيام، هكذا ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولعله كان يرمي راكبًا حتى يعلم الناس صلى الله عليه وسلم المناسك، وكما أشرنا يرميه ولا يلقيه، ويرميه وهو يقصد الحوض.

مسألة: ما يجزئ من الحصيات الواصلة للحوض

فلو رمى في الهواء فوقع في الحوض لم يعتد به. فالبعض يقول: أنا رميت هكذا في الهواء وكيفما تأتي! نقول له: لا بد أن يسمى رميًا، وأن يرمي في الحوض نفسه، ولا يشترط بقاء الحصاة في الحوض، فلو رماها في المرمى ولكثرة الحجارة تدحرجت خارج المرمى فرميه صحيح إن شاء الله تعالى.

وبعض الناس اليوم يرمى في الشاهد وليس في الحوض ، وهو العمود الموجود في منتصف الحوض، وهو عمود عريض الآن، نقول: الصحيح أن ترمي في الحوض .

ولا يشترط وقوف الرامي خارج المرمى؛ فلو وقف في طرف المرمى ورمى إلى الطرف الآخر أجزأه، ولو اصطدمت الحصاة المرمية بالأرض خارج الجمرة، أو بمحمل في الطريق، أو عنق بعير أو ثوب إنسان ثم ارتدت فوقعت في المرمى، اعتُد بها.

يعني لو قصد الرامي أن يرميها في الحوض، فاصطدمت بأحد ولكن وقعت في المرمى أجزأته، لحصولها في المرمى بفعله من غير معاونة، أما لو واصطدمت بأحد فحركها فأوقعها في المرمى لا يعتد بها؛ لأنها وقعت في المرمى بتحريك الآخر وليس برمي الرامي؛ فليأخذ المرء حذره من هذه المسائل.

يقول: ولو وقعت على عنق البعير مثلاً ثم تدحرجت إلى المرمى؛ ففي الاعتداد بها وجهان: أظهرهما: لا يعتد بها. فلو وقعت على رأس واحد قريب من المرمى فتحرك، فوقعت في المرمى لا يعتد بها. ولو وقعت في غير المرمى ثم تدحرجت إلى المرمى دون أن يحركها أحد ، أو دفعتها الريح فوقعت في المرمى اعتد بها.

ويشترط أن يرمي الحصيات على سبع مرات، فالبعض يمسك السبع حصيات ويرميها دفعة واحدة، هكذا لم تحسب إلا حصاة واحدة.

مسألة: الاستنابة في الرمي

أما إن عجز عن الرمي بنفسه لمرض أو حبس، أو عجزت امرأة ، فيستنيب من يرمي عنه.

والاستنابة لها شرطان:

الشرط الأول: أن يرمي النائب عن نفسه أولا.

الشرط الثاني: أن العذر لا بد وأن يكون باقيًا إلى نهاية فترة الرمي، وهو اليوم الثالث من أيام التشريق، فمن عنده عذر يمكن أن يزول في يوم أو يومين وفي اليوم التالي إن شاء الله يمكنه أن يرمي، نقول له: يرمي في اليوم التالي الجمرات كلها: الأولى والثانية والثالثة، لأول يوم، ثم الأولى والثانية والثالثة، لليوم الثاني، وهكذا.

وإن قدر على الذهاب ولم يستطع الرمي فيستحب أن يناول العاجز من ينوب عنه الحصى إن قدر. وهذه مسألة جميلة إن كنت لا تقدر أن ترمي فتمسك الحصاة وتعطيها لمن يرمي لك، وتكبر وهو يرمي مثلاً، أو هو يكبر مع تكبيرك ويرمي هو.

مسألة : هل يجيز الازدحام الاستنابة في الرمي

لأن البعض يسأل: هل يجوز النيابة عن زوجتي في الرمي نظرا للازدحام الشديد ؟ الزحام الشديد فقط ليس عذرا ، فيمكن لك أن ترمي أنت في الزوال، لاتباع هدي رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، ثم بعد ذلك إذا خف الزحام بعد العصر، تذهب بزوجتك فترمي هي بنفسها .

مسألة : الشك في عدد الحصيات

ولو شك هل رمى في الأولى ستًا أو سبعًا وذهب ورمى الثانية، أو أنه لا يتذكر، إن كان رمى ستًا في الأولى أو في الثانية؛ يعتبرها في الأولى ستًا، فيكمل عليها السابعة ثم يعيد الجمرة الثانية.

إذن لو شك رمى ستًا أو سبعًا، يبني على الأقل. ولو شك هل رمى الست في جمرة العقبة الأولى أو الوسطى، يعتبرهم في الأولى ثم يعيد الوسطى للزوم الترتيب في الرمي؛ فيجب أن يرمي الصغرى ثم الوسطى ثم الكبرى.

إذا فرغ من جمرة العقبة انصرف، فنزل في أي موضع من منى، وحيث نزل جاز، ولكن الأفضل أن يقرب من منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر الأزرقي أن منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على يسار مصلى الإمام، و أظن أنه مكان قريب من مسجد الخيف الآن .

الهدي والحلق وطواف الإفاضة

فإذا نزل من مزدلفة، ذبح هديه إن كان متمتعًا أو قارنًا، أو ذبح أضحية أو إن كان عليه دم نسك، إن وقع في محضور من محظورات الإحرام، أو لم يأت بواجب؛ فحينئذ يذبح هديه.

والهدي كالأضحية إن كان شاة لا بد وأن تكون ثنية لها سنتان، أو إن كان ضأنًا جذع له سنة، ويستحب للرجل أن يتولى ذبح أضحيته، وللمرأة أن تحضر أضحيتها حين الذبح، وإن استطاع أن يذبح أو أن يمرر هو السكين ، ثم يذبح له الذابح، هذا هو المستحب والوارد عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويستحب في الهدي ما يستحب في الذبح، من توجيه الذبيحة إلى القبلة، وأن تكون مضطجعة، وأن تكون مربوطة إلى غير ذلك من المعاني التي ينبغي للذابح أن يواليها حال ذبحه.

وهناك مسألة مهمة في الذبح يأخذ بها الشافعية وهي: أن الذابح لهديا التمتع أو القران لا يأكل منها، جمهور أهل العلم الباقين من غير الشافعية يجوزون الأكل من الهدي التمتع أو القران، أما الشافعية فلا يجوزون ذلك.

وإنما يجوز له أن يأكل من هدي التطوع سواء كان أضحية أو لحما ذبحه في الحج، وهذه المسألة أحوط قليلا عند الشافعية.

مسألة : من ترك أكثر من نسك

قلنا أن من ترك نسكاً، فعليه هدي، فهل معنى من ترك أكثر من نسك عليه أكثر من هدي؟ نقول: نعم طالما كان النسك واجبا، إلا أن يكون النسك ركنا، لو فاته طواف الإفاضة يجبره دم ويفعل طواف الإفاضة ما دام حيا ، وكذلك يبقى عليه السعي ما دام حيا ، ويبقى عليه الحلق ما دام حيا كما ذكرنا.

مسألة : وقت وكيفية الصوم لمن لم يستطع الهدي

كل من كان متمتعا أو قارنًا أو ترك واجبا من الواجبات، فعليه الهدي، فمن لم يجد، فالصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع لأهله، فمتى وكيف يكون الصوم؟ يقول : يشترط التفريق بين الثلاثة والسبعة ، فلا يصوم العشرة مرة واحدة ، ويكون التفريق أربعة أيام غير مدة السفر.

فيصوم المرء ثلاثة أيام في الحج، وهي أيام ستة وسبعة وثمانية ذو الحجة، فيكون قد صام ثلاثة في الحج ، ويأتي يوم عرفة، ويوم العيد ،وأيام التشريق مفطرا ، وينفر النفر الأول، فهذه أربعة أيام غير أيام السفر الذي يمكن أن يرجع فيه لأهله، فيكون بذلك قد فصل بين العشرة.

فصل: فإذا فرغ من النحر حلق رأسه، أو قصر من شعر رأسه والحلق أفضل لا شك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللهم اغفر للمحلقين ثلاثًا**»[1]، وأقل واجب هذا الحلق ثلاث شعرات حلقًا أو تقصيرًا، ومن لا شعر له يستحب له أن يمر الموسى على رأسه.

---

(١) رواه البخاري (٢/٦١٧ ، رقم ١٦٤١) ، ومسلم (٤/٨١ ، رقم ٣٢٠٨) .

فمن كان لا شعر له، أو حلق رأسه في العمرة ولم يخرج شعره عند التحلل للحج، يستحب له أن يمر الموسى على رأسه؛ لأن البعض أحيانًا يأتون على عرفات مباشرة من عملهم؛ فيعتمرون ويذهبون إلى عرفات؛ فيأتون يوم العيد ، بلا شعر ! لذلك الأولى لمن كان متمتعًا، أن يقصر، حتى إذا جاء يوم النحر وجد شعرا يحلقه.

ولو كان له شعر وبرأسه علة لا يمكنه بسببها التعرض للشعر، صبر إلى الإمكان ولا يفتدي ولا يسقط عنه الحلق.

وأفضل أوقات الحلق، أن يكون عقيب النحر، ولا يُختص بمكان، ولكن الأفضل أن يحلق بمنى كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، ولو فعله في بلد آخر في موطنه أو غيره جاز، ولكن لا يزال حكم الإحرام جاريًا عليه حتى يحلق.

ففي الحلق والتقصير قولين للشافعي وغيره من أهل العلم، الأول: أنه ليس بنسك، والقول الصحيح: أن الحلق نسك من مناسك الحج، وأنه ركن لا يصح الحج إلا به، ولا يجبر بدم ولا غيره، ولا يفوت وقته ما دام حيا.

فلو غادر المسافر إلى بلده ولم يحلق، فلا يزال محرمًا إلى أن يحلق أو أن يقصر، ولا يزال مرتبطًا بمسائل الإحرام التي لا تحل إلا بالحلق أو التقصير. يعني: لو تعجل وذهب إلى جدة ليركب، ولم يحلق، فلا يزال محرمًا ويجري عليه حكم الإحرام، ولا يزال الحلق في حقه ركن إلى أن يؤديه.

والسنة في صفة الحلق، أن يستقبل القبلة، ويبتدئ الحالق بمقدم رأسه، ثم الشق الأيمن ثم الأيسر، ثم يحلق الباقي، ويستحب أن يدفن شعره هذا كله، وهذا حكم الرجل.

أما المرأة فلا تحلق، بل تقصر، ويستحب أن يكون تقصيرها بقدر أنملة من جميع جوانب رأسها؛ لأن البعض يأخذن من ذيل الشعر ثلاث أو أربع شعرات، نقول المستحب أن تأخذ من جميع حدود الرأس قدر أنملة "عقلة الإصبع".

من رمى جمرة العقبة وحلق فقط، جاز له التحلل الأول، وهو: أن يلبس ملابسة العادية ويقص أظافره، ويتطيب، كما قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٢٩]، ثم ينزل إلى مكة ليطوف طواف الإفاضة، وهو طواف الركن أو طواف

الزيارة. وهو ركن لا يصح الحج بدونه، وقد سبق بيان سنن وآداب ومستحبات الطواف، وذكرنا كذلك المشاهد الجميلة التي ينبغي أن يعتني بها أهل الإيمان.

ولو لم يطف طواف الإفاضة، يلزمه الطواف ولو طال الزمان ومضت عليه سنون؛ فلا بد وأن يطوف، والأفضل أن يفعل هذا الطواف يوم النحر قبل زوال الشمس، ويكون ضحوة بعد فراغه من الأعمال الثلاثة التي ذكرنا وهي: رمي جمرة العقبة، والحلق، وذبح الهدي؛ ففي صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أفاض يوم النحر، ثم رجع فصلى الظهر بمنى**»[1].

وإذا طاف ولم يكن قد سعى بعد طواف القدوم وجب عليه أن يسعى بعد طواف الإفاضة.

ومن كان قارنا، وسعى بعد طواف القدوم فليس عليه سعي بعد طواف الإفاضة، أما إن لم يكن قد سعى بعد طواف القدوم ، وجب عليه أن يسعى بعد طواف الإفاضة، لأن السعي ركن، لحديث النبي صلى الله عليه وسلم :«**إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا**»[2] وإن كان سعى لم يعده، بل تكره إعادته، أما المتمتع فعليه طوافان وعليه سعيان.

ويكره له أن يؤخر طواف الإفاضة إلى أيام التشريق من غير عذر، وتأخيره إلى ما بعد أيام التشريق أشد كراهة، وخروجه من مكة بلا طواف أشد كراهة.

ولو طاف للوداع وهو لم يطف طواف الإفاضة لأي سبب من الأسباب كالجهل والنسيان وقع هذا الطواف عن طواف الإفاضة، ولو لم يطف أصلا، وعاد إلى بلده، فلا يزال محرمًا، وإن طال الزمان ومضت عليه سنون، ولا يحل له حينئذ أن يقرب امرأته، حتى يرجع فيطوف طواف الإفاضة، وإن واقع امرأته، يكون عليه دم.

فإن تحلل التحلل الثاني حل له كل شيء، فرجع إلى منى قبل صلاة الظهر، وهذه لا تحدث هذه الأيام، إلا لمن رحم الله، فقد يظل الناس في المناسك ولا يرجعون إلى منى إلا بعد منتصف الليل، وسنبين حكم ذلك.

---

(١) رواه مسلم (٤/٨٤ ، رقم ٣٢٢٥) .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤/٧٩ رقم ٦٩٤٤)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/٢٣٢ رقم ٢٧٦٤).

مسألة : المبيت في منى في أيام التشريق

المبيت بمنى أيام التشريق واجب على أعدل الأقوال، فإذا لم يبت الليلتين وكان قد نوى أن يتعجل، أو لم يبت الثلاثة وقد نوى أن يتم الليالي الثلاث في منى، يلزمه دم. وإن فاتته ليلة فعليه مُد من طعام.

فإن تأخر ووصل بعد نصف الليل إلى منى ؛ فإنه حينئذ لم يبت هذه الليلة في منى، والصحيح في مذهب الشافعية أنه يجبره مد من طعام.

وهناك مسألة تحدث يوم العيد هذه الأيام، أن معظم الناس لا يستطيعون أن يرجعوا منى قبل الظهر ليصلوا بها الظهر، فيرجعون في الليل، وأناس كثيرون يرجعون بعد منتصف الليل؛ لشدة الزحام والمواصلات ساعتها، فمن وصل منى بعد منتصف الليل لم يحتسب له المبيت بمنى هذه الليلة، ويلزمه مد من طعام، وإن فاته ليلتان لزمه مدان، وإن فاتته الأيام الثلاثة يلزمه دم، وننبه على ذلك لأن أناس كثيرون يقعون في هذه المسألة، وقد يقال له: ليس عليك شيء! نقول: المبيت بمنى واجب ويلزم بتركه دم، وإن ترك ليلة جبرها بمد من طعام.

أما من كان له عذر كرعاية الإبل والسقاية وغيرها من هذه الأعذار التي كانت في الزمن الماضي، فيجوز له ترك المبيت بمنى، أما هذه الأيام فالأعذار، كمن له مال يخاف ضياعه أو يخاف على نفسه أو الذي معه، أو له مريض يحتاج إلى أن يتعاهده في مستشفى مثلاً، أو أن يبحث عن أحد قد تاه منه مثلا، أو يكون به مرض يشق معه المبيت في منى؛ فالصحيح أنه يجوز له ترك المبيت، وله أن ينفر بعد الغروب ولا شيء عليه.

أعمال أيام التشريق بمنى

أيام التشريق الثلاثة هي: الأيام الثلاثة بعد يوم العيد، وهي أيام الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، وسميت التشريق؛ لأن الناس يشرقون فيها لحوم الهدايا والضحايا، يعني: من أخذ لنفسه جزءًا من لحوم الأضاحي يشرقها يعني: ينشرها في الشمس ويقددها ليستطيع أن يحفظها ليأكلها بعد ذلك.

والحادي عشر يسمى يوم القر بفتح القاف وتشديد الراء؛ لأنهم يقرون فيه بمنى لمن بقي في منى ثلاثة أيام أو يومين، والثاني عشر النفر الأول يعني: من أراد أن يتعجل وأن يتحلل وأن ينهي أعمال حجه، ومن أراد أن يؤخر إلى اليوم الثالث عشر سمي يوم النفر الثاني.

وهذه الأيام الثلاثة هي الأيام المعدودات، كما قال: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وأما الأيام المعلومات فهي العشر الأوائل من ذي الحجة ويوم النحر منها، كما قال :﴿ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ ﴾ [الحج: ٢٨] وهناك اختلاف بين أهل العلم فيها وذلك مذهب الشافعية.

رجع الحجيج إلى منى، ليمكثوا فيها يوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، ورسول الله صلى الله عليه وسلم تأخر يعني: جلس إلى يوم الثالث عشر، فلم يتعجل، كما قال الله تعالى: ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٠٣] .

وأول ما يستحب للحجيج بمنى أن يكبروا عقب صلاة الظهر يوم النحر وما بعدها من الصلوات التي يصلونها، ويستحب له أن يكبر في كل وقت بعد الصلوات وقبل الصلوات وعند طلوعه وعند نزوله، وعند جلوسه وعند ذهبه؛ لأن أيام منى كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم: «**أيام أكل وشرب وذكر لله تعالى**»(١) وكان ابن عمر يكبر؛ فيكبر الناس بتكبيره حتى ترتج منى من شدة التكبير. وهذه الأيام، فكأن الحجيج اتفقوا على ألا يكبروا ! واتفقوا على الغفلة وترك هذه الشعائر ولا حول ولا قوة إلا بالله !

وأما غير الحجيج ففيهم أقوال مختلفة أشهرها عندنا: أنهم كالحجاج، والأقوى أنهم يكبرون من صلاة الصبح يوم عرفة، إلى أن يصلوا العصر من آخر أيام التشريق بصلاة العصر، ويكبر

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٧٥ ، رقم ٢٠٧٤١) ، ومسلم (٢/٨٠٠ ، رقم ١١٤١).

الحجاج وغيرهم خلف الفرائض المؤداة وخلف النوافل وخلف صلاة الجنازة في الأصح، ويستوي في استحباب التكبير المسافر والمقيم والمصلي في الجماعة والمنفرد والصحيح والمريض.

والثاني: من الأعمال المشروعة والمستحبة في هذه الأيام: أنه يسن للإمام أن يخطب يوم العيد بعد صلاة الظهر بمنى خطبة مفردة يعلم الناس فيها المبيت بمنى والرمي في أيام التشريق وغير ذلك من طواف الوداع وما يحتاجه الناس من هذه من المناسك حتى يرجعوا إلى بلادهم.

اختلف العلماء في يوم الحج الأكبر، والصحيح أنه يوم النحر، وبعض أهل العلم يقول: هو يوم عرفة.

والثالث: أنه يستحب أن يغتسل كل يوم للرمي، وهي مسألة عند الشافعية، وهي من تعظيم الشعائر فعليه أن يفعلها، بقية المذاهب فيها توسعة، وإنما كما يذكر هنا: أن المرء يستشعر ما يأتيه من أعمال تقربه إلى الله تعالى، وتؤدبه بأدب الشرع الشريف، وكذلك تلقي في قلبه الإحساس بما يأتي من وتعظيم الشعائر: ﴿ **وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ** ﴾ [الحج: ٣٢] فينتهج سنة النبي صلى الله عليه وسلم ويأخذ بحظه من إقباله على ربه جل وعلا.

مسألة: وقت وصفة الرمي

والسنة في الرمي أيام التشريق أن يكون عند الزوال، وليحرص المرء على ذلك، لأنه على قول من قال بأن الرمي لا بد أن يكون عند الزوال، فإنه لا يجزئ أن يرمي قبل الزوال.

ويستحب إذا زالت الشمس **أن يقدم الرمي على صلاة الظهر**؛ لأن الناس تسأل يصلي أم يرمي أولا؟ السنة أن يرمي ثم يصلي.

ويجب أن يرمي في كل يوم من أيام التشريق الجمرات الثلاث، كل جمرة بسبع حصيات، فيأخذ إحدى وعشرين حصاة، ويبدأ بالجمرة الصغرى وهي التي تلي مسجد الخيف، فيستقبل القبلة ثم يرميها بسبع حصيات، واحدة تلو واحدة، ويكبر عقب كل حصاة، حتى ينتهي من الحصيات السبع.

بعد ذلك ينحرف قليلا عن الجمرة، بحيث تكون خلفه، ويقف في موضع لا يصيبه فيه المتطاير من الحصى، ويستقبل القبلة ويدعو الله تعالى، ويكبر ويهلل ويسبح ويدعو مع حضور القلب وخشوع الجوارح، ويمكث كذلك قدر سورة البقرة.

ثم يأتي الجمرة الثانية وهي الوسطى ويصنع فيها كما صنع في الأولى ويقف للدعاء كما وقف في الأولى إلا أنه لا يتقدم عن يساره كما فعل في الأولى؛ بل يتركها بيمين.

ثم يأتي جمرة العقبة، وهي الجمرة الثالثة ويصنع فيها كما صنع في الأولى والثانية، ولا دعاء بعدها إنما ينصرف في خشوع وسكينة، ثم يرجع ليصلى الظهر إن لم يكن قد صلى.

في الزمان الماضي، كان هناك بركة في الوقت، فيذهب المرء ويرمي ويقف ويدعو قدر سورة البقرة، ويرجع ووقت الظهر لم يخرج ! لذلك فليحاول المرء أن يدعو، ويستعين الله تعالى أن يبارك له في وقته وجهده، لعل الله تعالى أن يوفقه ، وأن يرزقه سبحانه وتعالى الدعاء المقبول النافع.

ثم يمكث ليلةُ في منى ويكبر الله تبارك وتعالى، ويرفع صوته به، ثم بعد ذلك يقضي لياليه في الدعاء وقراءة القرآن والصلاة في هذه الليالي التي يوشك أن يفارق فيها هذه الأماكن، والتي يرجو عندما يفارق أن يكون قد تغير حاله إلى المغفرة وإلى الرحمة وإلى الإنابة إلى الله تبارك وتعالى، فيرجع بحال أحسن مما جاء به.

ويفعل مثل هذا في اليوم الأول واليوم الثاني واليوم الثالث، لمن لم يتعجل، أما إن أراد أن يتعجل، فليرم الجمرات في اليوم الثاني وليدفع من منى إلى مكة قبل آذان المغرب، فقد انتهت في حقه أعمال الحج ، أما إن أذن عليه المغرب في منى؛ فيلزمه حينئذ المبيت لليوم الثالث ليرمي جمرات العقبة الثلاث الباقية ثم ينصرف من منى.

ولو نفر قبل غروب الشمس وخرج من منى ووجد أنه نسي في منى بعض حاجاته أو نسي ولده، فاضطره ذلك أن يعود إلى منى لعذر من الأعذار، جاز له أن يعود متى كان مضطرا.

مسألة : من فاته رمي بعض الحصى أو كُله

من فاتته حصاة ، يجبرها بمد من طعام، ومن فاته حصاتان يجبرهما بمدين من طعام، ومن فاته ثلاث حصيات أو أكثر من أي يوم يجبرها بدم، ومن فاته الرمي كله يجبره بدم.

ومن فاته وقت الرمي في يوم الحادي عشر، يرمي في الثاني عشر ولكن بالترتيب؛ فيرمي أولا عن اليوم السابق الجمرة الأولى والثانية والثالثة، ثم يرمي عن يومه الأولى والثانية والثالثة، وكذلك إن فاته الرمي في أول يومين، رمى عنهما أولا ثم رمى عن اليوم الثالث، وذلك حتى غروب شمس ثالث أيام التشريق، فقد خرج وقت الرمي، فمن لم يرم أو فاته ثلاث حصيات فصاعدًا، لزمه دم فلازم يذبح قبل أن يخرج من منى، ويوزعه على فقراء الحرم.

مسألة: الذهاب إلى المحصب

وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى المحصَّب حين نفر من منى، كما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى المحصب فصلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وهجع هجعة يعني: نام نومة خفيفة، ثم دخل مكة وطاف»[1] وهذا التحصيب مستحب اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإن كان ليس من سنن الحج ولا من مناسك الحج ولكنه من سنته صلى الله عليه وسلم وفعله المشرف، استكمالا لبقية الأعمال التي يأتيها المرء في حجه أن يفعل ذلك.

مسألة : فوات طواف الوداع

أصح الوجهين في مذهب الشافعية أن طواف الوداع واجب، فإن تركه بغير عذر يلزمه شاة ، فإن لم يستطع فيلزمه صيام ثلاثة أيام وسبعة إذا رجع ، فيصوم ثلاثة أيام ثم يفرق بينها بعدة أيام لا تقل عن أربعة أو خمسة أيام ، ثم يصوم السبعة.

انتهينا من وصف رحلة الحج لأصحاب الأشواق لعل الله تعالى أن يحملهم لزيارة بيته بعمرة أو حج، نسأل الله تعالى أن يرزقنا وإياهم هذا الشوق والحنين إليه وإلى بيته سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه البخاري (٢/٦٢٧ رقم ١٦٧٩).

ملحق الفتاوى:

فتاوى متعلقة بالحج

س: هل يجوز القيام بالعمرة عن أمي المتوفاة حال قيامي بالحج؟

ج: إن كان مقصدك أنك بعد أن تتم تعتمر عمرتك وأن تتم حجك أن تأتي بعمرة أخرى جديدة لا علاقة لها بحجك وعمرتك، فتحرم من التنعيم أو الجعرانة وتأتي بالعمرة لأمك كان هذا جائزًا إن شاء الله تعالى.

وإنما يستحب لك إذا لم تعتمر أمك أو تحج أن تنشئ لها عمرة بسفرة مخصوصة ، كما لو كانت هي حية، فإنها لو كانت حية كانت ستحرم من الميقات، وبعد ذلك تذهب لعمل المناسك، فإن تمكنت أن تفعلها من أبيار علي؛ فذلك يكون أولى.

س: ما نوع النعل الذي يلبسه الحاج، وهل يجوز أن يكون النعل مخيطًا؟

ج: النعل المخيط يعني المفصل على قدر العضو، فهذا معنى المخيط، فلو لبس نعلا "متخيطة" ولكن ليست مفصلة على قدر الرجل من خلف ومن أمام مثل "الشبشب" جاز، أما إن كان مثل الحذاء التي تلبس بحيث يكون محيطًا بالقدم فلا يجوز، لو لم يكن يستطيع أن يحضر "شبشبا" شق حذاءه من خلف، حتى لا يكون محيطا بالقدم.

س: هل يجوز القيام بعمرة عن أختي ؟

ج: إن كانت تستطيع العمرة؛ فلا يجوز لأحد أن يعتمر عنها، فالنيابة في الحج أو العمرة لمن لم يتمكن لموت، أو المرض الذي لا يمكن معه السفر أو تحمل مشقة الركوب.

س: هل يجوز لبس الخفين أثناء الطواف وأنا محرم؟

ج: يحرم على المحرم لبس كل محيط بالجسم كالحذاء والخفين وغطاء الرأس، كالقلنسوة أو العمامة أو يضع خرقة على رأسه أو أي شيء محيط بالجسم، كالجلابية والسراويل وغيره كل ذلك للمحرم لا يجوز إلا إن كان لضرورة فلا إثم عليه وعليه الفدية.

س: أعمل في مكة واعتمرت في أشهر الحج ولكن لم أنو بها عمرة التمتع، ثم أردت الحج، فهل يجوز الحج متمتعًا أم مفردًا؟

ج: يجوز لك الحج مفردا. وفي أصح القولين في مذهب الشافعية متمتعا وليس عليك هدي

س: ذهب إلى المملكة العربية السعودية للعمل وأيضًا للعمرة، وكان العمل بجدة، فذهبت لجدة، ثم ذهبت إلى الحرم مكة ليس محرمًا وصليت العشاء ثم رجعت إلى جدة، ثم أتيت المسجد الحرام في اليوم التالي محرمًا معتمرًا ، فهل علي شيء؟

ج: إن كانت نية السائل أنه ذاهب للعمل هناك ثم بعد ذلك سيعتمر ، فلا يلزمه أن يحرم من الجحفة التي هي ميقات أهل مصر. أما دخوله الحرم للصلاة، فلا ينبغي للمرء أن يدخل مكة المكرمة إلا محرما بالحج أو العمرة ، فإن فعل ذلك بغير عذر فقد أساء.

وما فعله في اليوم التالي من الإحرام من جدة ودخوله مكة محرما بعمرة، فهو المطلوب إن شاء الله تعالى، ويعفو الله تعالى عنه عن دخوله اليوم الأول بغير إحرام.

س: ما حكم دفع مبلغ من المال للحصول على تأشيرة الحج فرضًا أو تطوعًا للرجل والمرأة؟

ج: على المرء أن يحذر النصب؛ لأنه لا يوجد تأشيرة حج بنقود، والكثير يستغل دين الله تعالى ليحقق مكاسب مادية في هذه الأيام.

س: هل يجوز الاقتراض للحج مع القدرة على السداد بعد الحج ؟

ج: لا يجوز الاقتراض للحج؛ فالأصل في الحج أن يسدد المرء ما عليه من ديون قبل الحج إذا كانت ديونا حالّة، وإن كانت غير حالّة فإن ترك وفاء لها من مال أو رهن، أو أحد يسد عنه جاز له ذلك، وإن استسمح أصحاب المال. بأن يقولوا له: اذهب للحج ولا تشغل بالك ولو مت إن شاء الله لا أريد منك شيئا ، يجوز في هذه الحال.

س: المسافر بالطائرة للحج قبل دخول وقت صلاة الصبح ويصل بعد الشروق، كيف يصلي الصبح؟

ج: يصلي الصبح في الطائرة على أي حال لحرمة الوقت، وحفاظًا على وقت الصلاة ، إن لم تتمكن أن تصلي قائما فقاعدا، فإن لم تتمكن من استقبال القبلة فعلى أي اتجاه، فيصلي على أي

هيئة كانت، ثم بعد ذلك يعيد الصلاة إذا نزل مكان وصوله، لأنه صلى صلاة غير مستوفاة لأركانها وشروطها.

س: هل يجوز قراءة أدعية من كتاب يوم عرفة أو في الطواف؟

ج: من ناحية الجواز جائز، وإنما الأصل أن يخرج الدعاء من قلبك إلى الله تعالى.

س: هل يجوز حمل شنطة مخيطة أثناء الطواف؟

ج: لا بأس بذلك.

س: لو أن الحاج معه صحبة لكنهم يتهاونون ويفرطون في هذه سنن وآداب المناسك، فهل على الحاج أن يتركهم وأن يفعل السنن، أو أن يظل معهم ويفرط في السنن؟

ج: يتركهم ويبحث عن شخص آخر يعمل السنن يصحبه، فإنه لا يدري هل سيحج بعد هذه الحجة أو لا؛ فيحاول أن تكون هذه الحجة على هدي النبي صلى الله عليه وسلم.

س: إذا كانت ليلة أول أيام ذي الحجة، هل يجوز لمن نوى أن يضحي أن يقص شعره أو أظفاره في هذه الليلة؟ أم عليه الانتظار إلى يوم العيد؟

ج: من نوى أن يضحي في الأيام العشر جاز له أن يقصر من شعره أو أظفاره في ليلة غرة ذي الحجة، أما إذا دخلت أيام العشر فلا يقصر ولا يأخذ من أظفاره إن نوى أن يضحي.

س: هل الفصال أثناء الشراء في الحج من الجدال في الحج ؟

ج: هناك فرق بين أمرين :

أن يكون الأمر الذي يفاصل فيه لأمور الحج ، فقد كان السلف الصالحين إذا أرادوا أن يشتروا شيئا مما يقوم به الحج لم يفاصلوا فيه ولم يجادلوا ؛ لأنهم يرجون بها الحسنة والثواب ، ويرجون بها أن يخلف الله تعالى عليهم.

أما إذا كان في الحج نفسه، فإن رأى المرء أن هذا السعر الذي يقول له البائع ظالما وكنت تعرف الأسعار المناسبة لما تشتري، تقول ذلك للبائع، فإن قال مثلاً: هذه بعشرين، قل: هذه بخمسة، أن وافق كان به، وإلا، فلا تفاصل فيها ولا تجادل . لأنك حين تقول هذا لا يساوي إلا

خمسة، فهذا ليس من باب الفصال، إنما أن يقول : ثلاثين تقول : خمسة عشر، فلم يوافق، تقول: نجعلها عشرين، فهذا معنى الفصال.

س : عند سفري للحج لم ينبه قائد الطائرة على محاذاة الميقات ، فنويت الإحرام قبل هبوط الطائرة بوقت قليل، ولا أعرف إن كان ذلك قبل الميقات أم بعده ؟

ج : خروجًا من الشك، اذبح شاة ووزعها في فقراء الحرم، فهذا أسلم لحجتك.

س : ماذا تفعل المرأة إذا أحرمت بعمرة التمتع ، ثم حاضت ولم تطهر حتى يوم عرفة ، أو إذا طهرت قبل يوم عرفة ؟

ج: فإن أحرمت المرأة بعمرة التمتع ثم ذهبت إلى مكة المكرمة فحاضت قبل طواف التمتع ، فعليها أن تؤخر الطواف إن كان يرجى قبل عرفة أن تطهر ، ثم تطوف وتسعى بعمرتها، فتتحلل ثم تذهب إلى عرفة ، فإن لم تتمتع وجاء عليها عرفة ولا زالت حائضا، تذهب إلى عرفة ، وبعد أن تقضي مناسكها وتتطهر تأتي بالعمرة.

س : ما حكم من التفت بوجه إلى البيت ولو للحظة أثناء الطواف بالبيت؟

ج: لو لفت بوجهه فقط لا شيء عليه، ولكن لا يلتفت بجسمه كله فيطوف ووجه للبيت، فهذا هو الممنوع ولا يصح طوافه ، لأن المقصود أنه إذا طاف بالبيت، أن يكون كل البيت بحذاء يساره كل البيت، أما أن يلتفت بوجهه حال الطواف وجسمه كله شماله على البيت لا شيء فيها إن شاء الله تعالى.

س : هل إذا حج شخص مع أبويه وعائلته وله ثمانية عشر عامًا هل تسقط عنه الفريضة ؟

ج: نعم تسقط عنه الفريضة، فثمانية عشر عامًا غالباً يكون جرى عليه القلم، وصار مكلفًا وسقطت عنه الفريضة.

س : علم رجل من امرأته أنها سبق لها الحج قبل أن يتزوجها لكنها لم تطف طواف الإفاضة جهلاً منها فهل عقد الزواج بينهما صحيح؟ وماذا عليها بعد أن بنى بها؟ وبعد أن علم ذلك فما يحل له منها؟

ج: لم تطف طواف الإفاضة أي: لا زالت محرمة، ولم تتحلل التحلل الثاني الذي يبيح لها أن تتزوج، لأن من محرمات الإحرام، عقد النكاح ، فلا يجوز للمحرم أن يكون زوجا ولا زوجة ولا

شاهدا ولا وليا ، وصاحب السؤال عقد عليها وهي لا زالت محرمة، فعقد النكاح بينهما باطل. لذلك فعلى الزوجة أن تذهب للعمرة وتقضي طواف الإفاضة في أسرع وقت، ولا يقربها زوجها حتى تطوف طواف الإفاضة، وأن تسعى إذا لم تكن قد سعت؛ وبعد ذلك تكون قد تحللت، وعلي الزوج أن يجدد عقد النكاح بينه وبين ولي الزوجة.

س: من أكرمه الله تعالى بزيارة بيته والقيام بشعائره، كيف يحافظ على أحواله بعد عودته من الحج ؟

ج: هذا سؤال مهم، وهذه المسألة ليست متعلقة بالحاج فقط، وإنما متعلقة بما ينبغي أن تكون عليه أحوال المؤمن بعد أيام المناسك ، سواء كان حاجا أو غير حاج. وذلك لأن المرء بعد مواسم الطاعة ، قد تنزل أحواله، ولا يدري سبب ذلك، وأول أسباب ذلك: تسلط الشيطان على الإنسان بعد الطاعة.

فأثناء الطاعة في الأيام الشريفة لا يقدر الشيطان على المرء، فما أن تنتهي هذه الأيام حتى تتسلط الشياطين على الطائعين، لتفسد عليهم ما كان منهم من أعمال وقربات، ولا يعصمهم من ذلك إلا التحصن بحصن الله الحصين، وهو ذكر الله تعالى.

لذلك أمر المولى سبحانه وتعالى بعد الحج:﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠] لئلا يكون للشيطان عليك هذه القوة، التي يضعف بها البدن، ويقلل بها الطاعة، ويقطع بها طريقك على الله تعالى، وإنما لا زلت متماسك القلب، تحصنت بحصن الله تعالى من هذا الشيطان، وكذلك استعنت بهذا المدد من الذكر؛ لأن الذكر هذا مدد الله تعالى يقوي به القلب، وينشط به الجوارح، ويعصم به من الشيطان، كلما ذكر الله تعالى قوي على الشيطان وعلى النفس وعلى الهوى، وكما ذكرنا في مشهد الذكر، فإن ذكر الله تعالى هو مقصود الحج، ومن خرج بالذكر فقد استقامت أحواله بعد ذلك على طريق الله تعالى.

وذلك لأن الذكر هذا هو الحصن من الشيطان الذي يجعلك تصمد في هذه الأيام التي تكون الشياطين فيها على أشدها في تضليل بني آدم، وفي إبعادهم عن طريق الله تعالى، وفي تضييع الطاعات التي فعلوها مرة أخرى.

لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ومثل ذكر الله تعالى كمثل الرجل الذي خرج العدو في أثره سراع حتى إذا أتى إلى حصن حصين حصن نفسه منهم»[112] ويقول النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا: « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس وإن نسي الله التقم قلبه »[113] فهو جاثم على صدره يضع خرطومه على قلب ابن آدم: إن ذكر الله تعالى خنث، وإن غفل عن ذكر الله تعالى وسوس له.

وكذلك كما قال ربنا جل وعلا عن الشيطان: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤] يعني: بالفرسان والمشاة، ولكنه قال بعدها: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الإسراء: ٦٤] والذكر هو الذي يقوي هذا القلب، ويعطيه هذا المدد الذي يدفع به هذا الكيد من كيد الشيطان، وبه تستقيم أحوال المرء بعد هذه الأعمال من أعمال الطاعات، وبه يتحصن المرء الضعيف من كيد الشيطان مع أن كيد الشيطان، كما قال تعالى:﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء: ٧٦] ، ولكن لما ضعف القلب صار أضعف من كيد الشيطان.

يخرج المرء في نهاية المطاف بهذه الكلمة:﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ويعود لمطالعة مشهد الذكر الذي شرحناه في مشاهد الحج؛ ليتبين له المراد.

إن رجعت إلى الغفلة مرة أخرى فأنت الذي تركت نفسك للشيطان، وأنت الذي مكنته منك؛ فلا تلومن إلا نفسك.

ومما يعين على لزوم هذا الذكر، طول المكث في المسجد، كلما وجد وقتًا تحصن ببيت الله تعالى، لقراءة القرآن، وذكر الله تعالى، والصلاة والتفكر في إصلاح نفسه وفي إقباله على الله تعالى،

---

(١١٢) رواه الترمذي (١٤٨/٥ ، رقم ٢٨٦٣) ، وقال: حديث حسن صحيح .

(١١٣) رواه الطبراني في الدعاء (٥٢١/١ ، رقم ١٨٦٢) . وابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان (ص ٤٣ ، رقم ٢٢) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٠٢/١ ، رقم ٥٤٠) . وأبو يعلى (٢٧٨/٧ ، رقم ٤٣٠١) وقال الهيثمي (١٤٩/٧) : فيه عدى بن أبي عمارة ، وهو ضعيف.

وفي استمطار رحمة الله تعالى، ودعاء الله تعالى أن يحفظه وأن يثبته، وأن يقويه وأن يمده بمدده، وأن يقيه شر نفسه والشيطان والهوى، وأن يقيه كذلك شر عمله وسوء أعماله التي يأتيها، ويتضرع إلى الله تبارك وتعالى أن يكون هو الحافظ له، وأن يكون وكيله سبحانه وتعالى، وأن يكون المولى هو الذي يدفع عنه سبحانه وتعالى .

ومن وجد نفسه سيضعف، فليدعو ربه قائلًا: يا رب ليس لي سواك، يا رب احفظني، يا رب اصرف عني الشيطان، فإذا وجد المولى سبحانه وتعالى عبد متضرعًا متذللاً خائفًا وجلاً مشفقًا على نفسه؛ فإن الله تعالى يحفظه، ولا يتركه للشيطان، بل يجعله في عداد جنوده سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى لا يسلم جنوده لعدوه أبدا.

والمعني التالي الذي ينبغي للعائد من الحج أن يستشعره، هو الوفاء بالعهد مع الله تعالى، وقد ورد عن بن عباس رضي الله عنهما : « **الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، فمن استلمه وصافحه ، فكأنما صافح الله تعالى** » [١١٤] ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « **الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة** » [١١٥] ، وفي صحيح مسلم ، قال صلى الله عليه وسلم : « **الحج يهدم ما قبله** » [١١٦]، فمن برَّ حجه فقد غفرت ذنوبه، ومن استلم الحجر فقد عاهد الله تعالى على ترك المعاصي والقيام بحقوقه جل وعلا فيتذكر المرء أنه طالما عاهد الله تعالى ، وطالما نكث في عهده ، وطالما بايع الله تعالى على كذا وكذا من الأعمال الصالحة ، ونكث في هذه العهود ورجع عنها ، ولذلك قال: ﴿ **فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾.

من تاب ثم رجع إلى الذنب ، وإلى المعصية وإلى مخالفة الأمر ، وإلى الوقوع فيما يغضبه سبحانه وتعالى ، لم يُوثق بمعاهدته ؛ ويروى في ذلك أن بعض السلف دخل على مريض مكروب في

---

(١١٤) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على البكري (٦٨٦) : هذا معروف عن ابن عباس وقد روي مرفوعاً ولم يثبت.

(١١٥) رواه البخاري (١٧٧٣) كتاب الحج ، باب وجوب العمرة وفضلها ، ومسلم (١٣٤٩) كتاب الحج ، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة .

(١١٦) رواه مسلم (١٢١) كتاب الإيمان ، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة .

شدة الكرب ، فقال له : عاهد الله على التوبة ، لعله أن يقيلك صرعتك ، يعني أن يشفيك ، وأن يصفح عنك .

فقال المريض المكروب: كنت كلما مرضت عاهدت الله تعالى على التوبة فيقيلني، يعني كلما مرض عاهد الله تعالى على التوبة، فيقيل عثرته ويشفيه ، فلما كان هذه المرة ، يقول : فلما كان هذه المرة ، ذهبت أعاهد الله كما كنت أعاهده في كل مرة ، فهتف بي هاتف من ناحية البيت : قد أقلناك مرارا ، فوجدناك كذابا ، ثم مات عن قريب .

وهي الموعظة التي ينبغي أن يعيها أهل الإيمان لتحثهم على الوفاء بالعهد ، وتحثهم على عدم نقض عهودهم مع الله تعالى ، وأنه يوشك أن يتوب عليك فترجع ، ثم يتوب عليك فترجع ، حتى يغلق باب التوبة فتموت، من الذي قد أمن على نفسه الموت ؟ ومن الذي قد أمن على نفسه أن يؤخذ بغتة ولا يمهل حتى يرجع مرة أخرى إلى التوبة والعمل الصالح ؟

والحال المهم بعد نهاية أعمال الطاعة هو استشعار الزهد في الدنيا، قال الحسن رضي الله عنه: آية الحج المبرور أن يرجع زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة .

وهذه العلامة ينبغي أن يراها المرء في نفسه في كل ما يأتي من الأعمال الصالحة ؛ لأنه لما غفرت ذنوبه وسيئاته، أحس بخفة ذلك على قلبه وعلى كاهله ، فيصير راغبا في الآخرة ، زاهدا في الدنيا ؛ لأن القلب قد صفا لربه، ومسحت منه السيئات والذنوب ، فصار القلب مستقبلا لهذه الأنوار من رحمات الله تعالى ، والتي بها يتبين له طريق الآخرة فيتوغل فيه ، ويتبين له طريق الدنيا فيزهد فيها.

أما أن يرجع بعد هذه الأعمال الصالحة، إلى ما كان عليه قبل ذلك ، فكأن هذه الأعمال لم تأت له بثمرة ، ولم تعطه نتيجة ، وإنما دخلها وخرج منها كما دخلها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذه الأحوال تعم كثيرا من أحوالنا اليوم، وهذا الذي يجب أن يتفكر فيها المرء تفكرا يحمله على أن يراجع نفسه، وأن يستدرك هذا الخلل ، وكذلك أن يستفتح هذه الأيام بالتوبة إلى الله تعالى، والندم على ما فات، وأن يدخر منها ما يكون سببا لعفو الله تعالى عنه ، واستقامته على طريق الآخرة .

وكذلك من علامات قبول الطاعة أن توصل بطاعة بعدها ، أما أن يفتح الله تعالى عليك أبواب العمل الصالح ، ومواسم الخير والمغفرة ، فتأخذ بنصيب منها، ثم تعود بعدها إلى المعصية ، يدل ذلك على عدم قبولها.

وعلامة قبول الطاعة أنه بعد هذه الأعمال وتلك الأيام، إذا به يستمر عليها ، ويجد في غيرها من العمل الصالح ، ويجتهد فيما تبقى، فما أحسن الحسنة بعد الحسنة ، وما أقبح السيئة بعد الحسنة، ذنب بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها، وما أوحش ذل المعصية بعد عز الطاعة ، سلوا الله تعالى الثبات إلى الممات ، وتعوذوا من الحوْر بعد الكوْر .

ومما يعين الحاج أيضًا على استشعار الحياء من الإتيان بالمعاصي، ما جاء في استحباب استقبال الحاج وطلب الدعاء منه، وما ورد أيضًا في أنه يشفع في كذا من أهله؛ لأنه إذا رجع إلى المعصية بعد الحج، كان ذلك سببًا في أن يسقط هو من عين نفسه، فهل ينتظر بعد ذلك أن يشفع لأحد أو أن يستغفر لأحد ؟

فقد ورد في صحيح مسلم، عن عبد الله بن جعفر قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر ، تلقي بصبيان أهل بيته ، وإنه قدم من سفر فسبق بي إليه ، - عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن جعفر يكون ابنه - يقول : فحملني - أي : صلى الله عليه وسلم حملني – بين يديه ، ثم جيء بأحد ابني فاطمة، رضي الله عنها، فأردفه خلفه ، فأدخلنا المدينة على دابة – النبي صلى الله عليه وسلم » [١١٧] ، وفي المسند ، ورواه الحاكم عن عائشة قالت : « أقبلنا من مكة في حج أو عمرة ، فتلقانا غلمان من الأنصار ، كانوا يتلقون أهليهم إذا قدموا » [١١٨] .

وكذلك يستحب السلام على الحاج إذا قدم ومصافحته وطلب الدعاء منه ، فإنه حديث عهد بربه، قريب عهد بالمغفرة والتوبة من الله تبارك وتعالى ، فهو أقرب إلى استجابة الدعاء عند الله تعالى .

---

(١١٧) رواه مسلم في صحيحه (٢٤٢٨) كتاب فضائل الصحابة.

(١١٨) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٨٦١٦).

وهذه بركات التائب وبركات العمل الصالح ، وأن الله تعالى يفيض من هذه البركة على من حوله وعلى من دعا له ، وعلى من تشفع فيه لله تعالى ، وأنت تحتاج إلى ذلك في نفسك ثم تحتاج فيها إلى أهلك وولدك ، وإلى أحبائك وإخوانك ، وأنت المقصر في حق نفسك والمقصر كذلك في حق غيرك .

وروى الإمام أحمد بإسناده ، عن أبي موسى قال : « إن الحاج ليشفع في أربعمائة بيت من قومه ، ويبارك في أربعين من أمهات البعير الذي يحمله ، ويخرج من خطاياه كيوم ولدته أمه ، وإذا رجع من الحج المبرور رجع وذنبه مغفور ، ودعاؤه مستجاب » [١١٩] وإن كان في الحديث مقال ، فهذا كلام ليس بعيدا على الله تعالى ، وفيه ما يشهد له من الكلام الصحيح من كلام النبي صلى الله عليه وسلم .

والقضية المهمة أيضا أن يستشعر المرء الخوف على أعماله التي أتى ، خاصة وأنه قد أتى هذه الأعمال ثم رجع بعدها إلى سابق عهده ، وإلى التقصير والتفريط والغفلة ، والركون إلى الدنيا ونسيان الآخرة ، وعدم الاستقامة على أمر الله تعالى ، وهذا كله يخوف المرء ليبحث عن أسباب التردي وعن أسباب الحرمان ، والبعد عن أسباب الوقوع مرة أخرى في مغبة المعصية ، ليصحح ذلك من نفسه ، وليقبل على ربه ، ويعود إليه سبحانه وتعالى ، قبل ألا يقبل اعتذاره .

وفي النهاية فالرجوع من الحج يذكر بالقدوم على الله عز وجل، والقادمين على الله تعالى قسمان ، قسم مسرور بقدومه على ربه بما رأى من الكرامة حيث أطاع الله تعالى ، فوجد ذخر ذلك عند الله ، أو لما رأى من الإهانة بسبب المعصية والبعد ، فرأى هلاك ذلك عند الله تعالى .

قال بعض الملوك لأبي حازم رضي الله عنه : كيف القدوم على الله تعالى ؟ فقال أبو حازم : أما قدوم الطائع على الله فكقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه ، وأما قدوم العاصي ، فكقدوم العبد الآبق على سيده الغضبان .

قال علي رضي الله عنه : تتلقاهم الملائكة على باب الجنة : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر : ٧٣] ويلقى كل غلمان صاحبهم يطفون به ، ويقولون : أبشر، فقد أعد

(١١٩) أورده المنذري في الترغيب والترهيب ، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الترغيب (٦٩٨).

الله لك من الكرامة كذا وكذا ، وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين ، فيقول : هذا فلان – باسمه في الدنيا – فيقلن : أنت رأيته ؟ فيقول : نعم ، فيستخفهن الفرح، حتى يخرجن إلى الباب ينتظرنه .

وقال أبو سليمان الداراني : تبعث الحور العين، الحوراء الوصيف من وصائفها فتقول : ويحك، انظري ما فُعل بولي الله تعالى ، تنتظر زوجها من الطائعين ، فتستبطئه فتبعث وصيفا آخر فيأتي الأول فيقول : تركته عند الميزان ، ويأتي الثاني فيقول : تركته عند الصراط ، ويأتي الثالث فيقول : قد دخل الجنة ، فيستخفها الفرح فتقف على باب الجنة ، فإذا أتاها اعتنقته .

فهذه بعض معاني التي ينبغي تذكر ما فيها بعد العودة من رحلة الحج، ليحمل الناس التوبة مرة أخرى واستدراك ما فات ، والبكاء على ما ضاع من أعمال صالحة ، لعل الله سبحانه وتعالى أن يجبر ما كان من التقصير، بالعمل الصالح والتوبة والاستقامة على أمره، والزهد في الدنيا ، والإقبال على الآخرة .

الفهرس

موضوع هذه الرسالة هو رحلة الحج المباركة، وقد قسمنا الكلام عن هذه الرحلة لاربعة أقسام:

الاول: الشوق لرؤية بيت الله تعالى، وهو المعنى الذي ينبغي أن يتحقق في أهل الايمان ليدل على محبتهم لرؤية ربهم ولقاءه، وعلى محبتهم لهذا اللقاء، فيكرمهم سبحانه وتعالى في الدنيا بأن يذهبوا إلى بيته المعظم.

الثاني: أعمال البر، وهي الأعمال التي ينبغي أن يحافظ عليها المؤمن؛ لتكون سببا في أن يحمله الله تعالى لبيته ويكون حجه مبرورا. فلا يبر حج المرء إلا أن يحافظ في ظاهر حاله على أعمال البر التي ذكرها المولى سبحانه وتعالى، وأشار اليها النبي صلى الله عليه وسلم ليحصل بذلك بر الحج فيعود من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

الثالث: مشاهد الحج، وهي اعمال القلب، التي ينبغي أن يلحظها المرء بقلبه، وأن يتفكر فيها حال رحلة الحج، فيقوم بقلبه تلك الشواهد التي تعظم هذه الشعيرة، حتى تكون عونا له على التقرب الى الله تعالى بهذه المعاني العظيمة من معاني الحج.

الرابع: وصف الرحلة، بمعنى: ماذا يفعل الحاج من حين ينوي الحج الى أن ينتهي من مناسكه في البلد الحرام، ويعود الى أهله. وذلك لان الحج من أركان الإسلام، فيلزم الحاج أن يتعلم كيفية أداء المناسك، كما جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم، لتكون حجته مبرورة، فتكون في ميزانه حينئذ خير مما طلعت عليه الشمس من مشرقها إلى مغربها من الأعمال الصالحة.

الطبعة الأولى